دراسات في الأخلاق

بحث وتحليل لحالات خاصة في تربية الصبيان

تأليف

يعقوب قام
أستاذ في التربية من جامعة ييل
سكرتير قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية

obeikandl.com

تقدمة الكتاب

لانزاع فى أن الغرض الاسمى من التربية هو بناء الاخلاق ، بأوسع معانى هذه الكلمة . فالعلوم والمعارف وأنواع المهارة التى يحصل التلميذ عليها فى المدرسة ليست الا وسائل يقصد منها تسديد سلوك المرء فى حياته ، وتوجيهه الى ما يعود عليه وعلى المجتمع بالنفع والسعادة

ولا نزاع كذلك فى أننا إذا قسنا مقدار نجاح مدارسنا أو منازلنا فى تربية الاطفال بهذا المقياس ، وجدنا انها قد فشلت فشلا ذريعا ، لأن معظم شبابنا يقضون حياتهم على صورة ، إن لم تكن فاسدة مؤذية ، فهى على كل حال سلبية غير منتجة . وقل أن نجد فيهم من جعل له فى الحياة مثلا اسمى يسعى الى تحقيقه وبحسن تدبير قواه وما يتهيأ له الظروف تدبيرا يدنيه منه

وقد نكون ظلمنا مدارسنا إذ رميناها بالفشل فى التربية الخلقية لأن الفشل والنجاح إنما يكونان نتيجة السعى والمحاولة . أما مدارسنا فهى فى شغل شاغل عن الاخلاق ، ولا تكاد تشعر أن من شأنها العناية لها إلا فى دائرة ضيقة ضعيفة الاثر . ذلك أن لها غاية أخرى لا تتصل بالحياة أو السلوك فى شىء ، ولها مقياساً آخر للنجاح والفشل فى مهمتها . هذه الغاية هى ملء اذهان التلاميذ بشتى أنواع المعلومات حتى يمكنهم افراغها فى ورقة الامتحان . وهذا المقياس الذى تقاس به صلاحية المدرسة هو « النتائج » وليس مما يؤثر فى النتائج تأثيراً ظاهراً أن تهتم المدارس بالوسائل التى تربى فى التلاميذ الشجاعة والرجولة ، والاعتماد على النفس ، والاخلاص للعمل . والتواضع ، والايثار ، والتضحية فى سبيل الصالح العام ، وما الى ذلك من الفضائل التى يفتقر اليها المجتمع المصرى ايما افتقار . لذلك كان

كل ما تعنى به المدرسة من اخلاق تلاميذها يتلخص فى كلمتين . هما : «حفظ النظام» وليس النظام شيئاً سوى المظاهر الخارجية للسلوك . فللمدرسة قوانين معروفة ، وعلى التلميذ أن يخضع لهذه القوانين طوعاً أو كرها . ومتى خضع التلاميذ لها فكل شى طيب . مادام التلميذ لا يتغيب عن الحصص ، ولا يتكلم مع جاره فى أثناء الدرس ، ولا يعصى أوامر معلمه ، ولا يضرب من هم اصغر منه سنا ، ولا يحدث ضوضاء فى أثناء فسحته . فهو حسن الاخلاق . أما اذا حدثته نفسه باقتراف جرم من هذه الجرائم . فهناك سلطة المدرسة وسطوتها لردعه . هناك العصا . والحبس والطرد من المدرسة ، وغير ذلك من الوسائل الكفيلة بكسر ارادته ، وردة الى الصواب. واذا ناقشت المعلمين فى هذه الطرق ، بادروا الى تعزيزها بحجج مألوفة. فالعقاب يحدث فى نفس التلميذ المألم يرتبط بالجرم فيمنع التلميذ عن تكراره وتمرين الطفل على النظام والطاعة الخ — سواء أكان بالرياضة والاقتناع أم بالقهر والاضطرار — يغرس فى نفسه عادات صالحة ، تنفعه فى مستقبل حياته

هذا ملخص فلسفة مدارسنا من الناحية الخلقية . وهى فلسفة عتيقة معيبة من من اية ناحية نظرنا اليها ، وقد كانت سائدة فى البلاد الاخرى ، ثم اخذت فى التلاشى. وحلت محلها الآن فلسفة جديدة ، هى التى يعتنقها مؤلف هذا الكتاب ويبسطها فيه للمربين المصريين

وجوهر هذه الفلسفة هو أن التربية الخلقية ينبغى أن ترمى الى تنمية شخصية الطفل ، وتقوية ارادته ، مع توجيه هذه الارادة فى الاتجاهات الصالحة . حتى يمكنه أن يستقل يوما ما عن المربى ، ويصبح قادراً على حكم نفسه بنفسه . وهذا لا يمكن الوصول اليه بالارغام والقمع ، لأن الارادة انما تقوم على الدوافع النفسية الداخلية ، والارغام لايتصل الا بالفعل الخارجى ، فقد تستطيع المدرسة بما لها من السلطة ، وباستعمال التخويف والعقاب ، أن تخضع التلميذ لارادتها ، وتحمله

على تنفيذ ما تريد منه تنفيذه ، ولكن هذا الخضوع قد يخفى تحته براكين ثائرة تنتظر الانفجار . لأن رغبات التلميذ الاصلية لا تزال باقية كما هى ، فالفعل لم يصادف فى نفس التلميذ رضى ، فلا يمكن أن يلتئم فى مجموعة الدوافع النفسية التى تنبنى عليها ارادته . ومن العبث القول بأن تكرار فعل ماتحت تأثير الخوف يحول هذا الفعل الى عادة ثابتة فهذا يتنافى مع علم النفس الحديث ، إذ أن من شروط تكوين العادات أن تصحب المران عليها لذة نفسية

فالقمع اذن قد يحفظ النظام الخارجى فى المدرسة ، ولكنه لا يهذب التلاميذ ، ولا ينمى شخصياتهم . لأن الشخصية لا تنمو الا فى جو من الحرية . لهذا كان اعتماد أنصار التربية الحديثة على ما أطلق عليه المؤلف « النشاط الحر » . فسلوك الطفل اذا ترك لنفسه ، نتيجة لدفعات غريزية وميول طبيعية قوية . فهو يحب الحركة والجرى واللعب ، ويحب الاجتماع بأترابه ، ويميل فى العادة الى التصدر والزعامة فيهم ، ويحب ان يقاتل وينتصر ، ويحب أن يبحث ويستكشف ، وأن يجمع ويقتنى . فليس للمربى أن يعترض هذه النزعات ويقمعها بل عليه أن ينتفع بما ينتج عنها من نشاط حر لذيذ ، ويوجهه فى الاتجاهات التى يبتغيها . لا تحاول أن تجعل من الطفل شيخاً قبل الأوان ، بل دعه يحيا حياة الطفولة التى تدفعه اليها طبيعته ، وشجعه على ذلك بكل ماتملك من الوسائل . وعليك أن تتخذ العدة لجعل هذا النشاط الطبيعى ميدانا للمران على الفضائل الخلقية والعقلية

ولكن كيف يتأتى ذلك ؟ واذا كنا نترك الطفل حراً يفعل مايشاء وتشاء له أهواؤه ، فما هو عمل المربى ، وأنى له أن يؤثر فى سلوك هذا الطفل ويهذب من أخلاقه ؟ والجواب على ذلك شطران : فالأول هو اننا نملك أن نهيء الظروف الملائمة لبعض أنواع النشاط دون الاخرى . والثانى هو أننا نستطيع أن نتصل بالطفل ونجعله يشاء مانشاؤه نحن . فالذى يؤخذ على التربية القديمة هو قهر الطفل

على القيام بشيء مارغم ارادته . فهذا ليس له قيمة تهذيبية . ويجب أن نتحاشاه بقدر المستطاع . ولكن يجب أن نقنع الطفل بما نريده من طريق العقل ، أو نستهويه اليه من طريق الشعور . فنجعله يرغب فيه بمحض ارادته . فاذا بدرت من الطفل هفوة ، فلا يكون إصلاحها بالقسوة والعقاب . بل بالبحث عن الدافع الذى دفعه اليها . ومعالجة هذا الدافع بما يتفق مع مزاج الطفل ونفسيته . فالعقاب لايثمر فى معالجة الاخلاق اذا كان المذنب لايشعر أنه يستحقه . والمهم اذن هو التأثير فى المذنب حتى يقتنع بخطئه ويستهجن العمل الذى وقع منه . وهذا التأثير سهل متى كانت علاقة المربى بأطفاله علاقة مودة وعطف من ناحيته وثقة ممزوجة بالحب والاحترام من ناحيتهم . ومتى كانت له دراية كافية بنفسية كل طفل وميوله وظروف حياته . وسيرى القارىء مثلا ناطقا لذلك فى هذا الكتاب

لعل القارىء يرى بجلاء من هذا الاستعراض بعد الشقة بين الانظمة والخطط التى تسير عليها مدارسنا وأساليب التربية الحديثة ، ويلمس حاجة المربين المصريين الى كتاب يشرح لهم هذه الاساليب شرحا عمليا واضحاً . والكتاب الذى بين يدينا هو أول خطوة فى سبيل سد هذه الحاجة . فمؤلفه قد درس أساليب التربية فى أمريكا وشاهد تطبيقها عمليا . ثم أتيحت له الفرصة ليطبقها بنفسه فى قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية . وها هو يصور للقراء صورة حية لتجاربه ، رسم فيها بكل صراحة وبساطة مشاهداته ، والطرق التى استعملها . والنتائج التى وصل اليها ، ممثلة فى دراسات فردية محسوسة . وهذه ولا شك خدمة جميلة يؤديها للتربية فى مصر

قد يختلف بعض القراء مع المؤلف فى شيء من ابحاثه النظرية ، وقد يرون أنه لم يستقص التحليل فى بعض الحالات الى نهايته . أو أن طرق العلاج التى استعملها احيانا لم تكن أفضل الطرق . ولكن هذه أمور

ثانوية . وهو لا يدعى أنه قال الكلمة النهائية فى الموضوع ، بل هو يعرض تجاربه للبحث والنقد ، وليس يضير الكتاب فى شىء أن يخطىء المؤلف فى الطرق الخاصة التى استعملها فى أية حالة بذاتها لان قيمة الكتاب الحقيقية هى فى الروح التى تتخلله من أول حرف الى آخر حرف فيه . والتى يصح أن تكون مثالا يتأمل فيه ويحتذيه كل مرب فى مصر . هى فى المبادىء الاساسية التى يعمل المؤلف على تطبيقها فى تربية الاطفال ، والتى مافتىء يكررها ويؤكدها ويوضحها فى هذا الكتاب حتى لايخرج القارىء منه الا وقد تشبعت بها نفسه . قيمة الكتاب الحقيقية ، فى أنه يحتوى على مثال عملى يلفت نظر المعلمين فى مصر الى ان واجبهم لايقتصر على تحفيظ الدروس ، بل أن عليهم واجبا أهم من ذلك هو العناية بأخلاق تلاميذهم وانهم مطالبون بدراسة هؤلاء التلاميذ فى فصول الدراسة وفى خارجها ، والاهتمام بكل بادرة تبدو منهم ، واستقصاء أسبابها ، وانتهاز الفرصة التى تتاح لهم لتكميل أخلاقهم

هذا الى ان الكتاب يلفت النظر الى طائفة من الفضائل التى تهمنا فى مصر بصفة خاصة لما لنقصنا الظاهر فيها من الاثر السيىء فى حياتنا . واذا كان المؤلف يقول انه لم يتفق الحالات التى وضعها ، وان الصدف وحدها هى التى ساقتها اليه ، فهذا بلا شك من محاسن الصدف .

وانى لسعيد اذ اتيحت لى قراءة مخطوطة هذا الكتاب ، وآمل أن يلاقى من زملائى المدرسين الاهتمام الذى يستحقه .

معهد التربية فى ٢١ يونيه سنة ١٩٣١ — اسماعيل محمود القبانى

مقدمة المؤلف

يبحث هذا الكتاب فى التربية من الوجهة العملية ، وبعبارة أخرى لايرمى المؤلف من ورائه الى أثبات بعض النظريات او نقض بعض النظريات الاخرى وانما يقصد فقط الى ايراد بعض الحوادث التى مرت عليه وهو يعالج موضوع التربية ، والمؤلف يشتغل بالتربية بحكم وظيفته وبحكم هوايته ، وتمر عليه بالطبع بعض الحالات التى تستدعى انتباهه وتتطلب منه الدرس والبحث . فيدرس ويبحث ثم يدون دراساته وابحاثه ، وهاهو يقدم دراساته وابحاثه للقراء مشفوعة برأيه فى العوامل والدوافع ، ومصحوبة أيضاً بشرح العلاج الذى رأى ان يتقدم به فى بعض هذه الحالات ، ولا يغفل ان يذكر النتائج التى ترتبت على هذا العلاج ، ثم يحاول ان يحلل هذه النتائج فان وجد أنه أخطأ سوف لايستنكف من ذكر هذه الاخطاء ، وان أصاب فسوف لايحمله سروره على المغالاة فى وصف هذا النجاح

هذه دراسات عملية موضوعية (Objective) لايجب ان يكون للاعتبارات الشخصية دخل فيها ، ولقد حرص المؤلف على ان يبقيها كذلك ، لقد حاول صادقا مخلصاً على ان يبقيها موضوعية من غير ان تتأثر بخواجله النفسية أو بمنازع نفسه من اهواء وشهوات ، وعسى أن يكون قد وفق الى هذا

ليس لهذا الكتاب غاية سوى بسط هذه الحالات كما حدثت ، وسوى تقديمها للاباء على العموم وللمشتغلين بالتربية منهم على الخصوص حتى يستعينوا بها على تربية الصبيان الذين فى عهدتهم

وليعلم القارىء أنى لم أنتق المادة التى هى موضوع هذا الكتاب ، وبمعنى

آخر لم ارتب الظروف بحيث احصل منها على مثل هذه الحالات . فليست هذه الحالات اذن من صنع المؤلف أو بتدبيره ، وما كان له فيها الا دور المتفرج الناقد الذى يستطيع ان يحلل الظواهر ويدون مشاهداته ، وبكلام صريح لم أقصد ان أدرس الفردية أو العصيان والتمرد مثلا ، لم اسع وراء هذه الظواهر الاخلاقية بشكل من الاشكال ، لم أنقب وراءها ، او ابحث عنها عن قصد وبارادتى ، وانما وقفت وقفة المتفرج ، اشاهد الصبيان الذين فى عهدتى ينشطون ، ثم اراقب هذا النشاط بطريقة علمية موضوعيـــة ، فاذا بانت على احدهم احدى هذه الظواهر الاخلاقية ، أبحثها ، واحللها ، واعالجها ، ثم أدون هذه جميعاً ، وبعد ذلك أنقد نفسى ، وانقد العلاج الذى استعملت ، والنتائج التى وصلت اليها ، ثم أدون هذه كلهـا أيضاً

يرى القارىء من هذا لماذا انا تخيرت هذه الظواهر الاخلاقية دون غيرها ، ولماذا لم أبحث بعض العناصر الاخرى للاخلاق ، يرى الآن لماذا اخترت الفردية والطاعة والخوف وغيرها ، ولم اتخير شيئاً آخر ، والسبب فى هذا الاختيار واضح وهو انى لم اتخير شيئاً فى الواقع ، وانما شاهدت شيئاً يقع تحت حسى فدونته فى كتاب وقدمته للجمهور

كانت بعض الحوادث تتطلب العلاج ، فتقدمت بعلاج بذاته ، والآن يحق للقارىء ان يسأل « ولماذا تقدمت بهذا العلاج دون غيره ؟ لماذا لم تتخير شيئاً آخر بخلافه ؟ » وهذا السؤال فى محله ويستدعى من المؤلف جواباً مقنعاً ان كان ذلك فى امكانه ، ولـكن الجواب على هذا السؤال يستدعى منا ان ندخل فى نظريات التربية ، وان نشرح مبادئها الاساسية وهذا مالا نزمع ان نفعله بشىء من التطويل فى هذا الـكتاب ، لأننا قد تقدمنا به فى كتاب آخر لمن شاء ان يرجع اليه ، وانما

هذا لايمنع بالطبع ان نشرح بالاختصار النظريات التى بنينا عليها هذا التصرف من جانبنا ، وقد فعلنا ، فاوردنا بعض الابحاث النظرية التى تتصل بموضوع هذا الكتاب . وحرصنا على ان يكون الجانب النظرى منه مختصرا مركزاً

وعلى هذا فقد خرج هذا الكتاب عملياً فى موضوعه بعيدا عن المسائل النظرية بقدر ماسمحت لنا به الظروف ، وبالاختضار نستطيع ان نزعم ان هذا الكتاب هو ترجمة لحياة بعض الصبيان ونشاطهم فى معهد الصبيان بجمعية الشبان المسيحية

فالى س ، ش ، ل ، و ، ا ، ع من أعضاء قسم الصبيان أتقدم بهذا الكتاب ، راجياً ان يكون أثرى فى حياتهم مما يعمل لجعل هذه الحياة سعيدة وفائضة وغنية بجلائل الاعمال

يعقوب فام

الباب الاول

الفردية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الاول

فردية مستترة

كنا نلعب لعبة تستدعي فريقين متباريين ، للفائز منهما جائزة بسيطة ، وتتلخص اللعبة فى هذا . يقف الصبيان فى فريقين متقابلين متساويين فى العدد ، ويعطى لكل من الصبيين الاولين (لقمة) ويطلب منهما أن يأكلاها بسرعة ويصفرا بعد أن يزدرداها ، وبعد ذلك تعطى (لقمة) أخرى لمن يليهما فيزدرداها ويصفرا أيضاً ، وهكذا دواليك الى أن ينتصر فريق منهما على الآخر

وحدث فى أثناء هذه اللعبة ماجعلنا نلمس تنطع واحد منهم فى الفردية البغيضة المرذولة تلك الفردية التى هى من أكبر غلطات الخلق المصرى ، لا بل من ضرباته ومصائبه التى تكاد تودى بالمظاهر الاجتماعية فى البيئة . قطعنا شوطا كبيراً فى هذه اللعبة الى أن كاد أحد الفريقين ينتصر على الآخر انتصاراً مبينا لولا أن الصبي الاخير من هذا الفريق أبى أن يأكل لقمته وتوقف عن ذلك كل التوقف ، فثارت ثائرة الفريق بجملته لحقوقه الاجتماعية التى تكاد أن تذهب هباء بتصرف فرد واحد

وللجماعة الحق فى الثورة ضد هذه الفردية القبيحة لانه ليس من المناسب أن يقف انسان بمفرده فى سبيل جماعة كاملة فيمنعها عن أن تحقق أغراضها التى تسعى اليها بجماعة . وفى الحق أن فرداً كهذا فى المجتمعات الراقية يجد أن الجماعة أقوى بكثير من ان يستهين بحقوقها أو يزدريها ، وأن للجماعة طرائق متعددة تستطيع أن تسلكها لتأديب أمثال أولئك الافراد ، ولكن الحال فى بلادنا بخلاف هذا بكل أسف ، فلمن شاء ان يزدريها بغير حساب أو عقاب

أصر صاحبنا هذا اصراراً شديداً على ان لايتناول اللقمة وثار عليه رفاقه

ثورة عنيفة ونظروا الى جميعهم ليروا ماذا أنا فاعل ، وقد كانت معضلة لان طرائقنا فى التربية تختلف عن الطرائق المتبعة فى بلادنا ، فليس يجدى فى هذه الحالة أن آمر الصبى أن يتناولها لانه قد يمتنع ويتقبل العقاب الذى فى مكنتى أن أنزله به ، وفى هذه الحالة يكون قد لحقه ضرر اخلاقى ليس من السهل ازالته

يضر الصبى فى مثل هـــذه الحالة لسببين ، أولا لانه قد يستقر فى ذهنه انى أكرهه ولا أقيم وزنا لشخصيته ، يشعر فى هذه الحالة انى متعسف ومتعنت وأرغب فى اذلاله وارغامه على غير طائل ، وكل مايجول بخاطره فى مثل هذه الحالة ان له كرامة يريد ان يدفع عنها ، ففى نظره أنه لم يخطىء ولم يعتد على أحد ولم يغتصب حقوق أحد ، وانما الجماعة تريده على أن يفعل أمراً لا يرغب فيه هو ، وهذا اعتداء منها لامبرر له فى نظره ، ثم آتى أنا أيضاً وأعين الجماعة عليـــه وأناصرها حتى تقهره وتخضد شوكة نفسه ، ان هذا لايطاق عنده وقد يمعن فى عناده ويوغل ، ثم ألح أنا فى عقابى وأوغل الى أن أرغمه على الخضوع ارغاما ، وفى هذه الحالة أكون قد ارتكبت خطأ لايعود ينفع معه تحبى اليه ، ولا أعود بمستطيع أن أؤثر فيه إلا عن طريق العنف والغصب

وهناك وجه آخر للمسألة وهو هذه الجماعة المكونة من عشرين صبياً التى تريد اذلال هذا الفرد الذى حقرها وفوت عليها أغراضها ، هذه الجماعة لايمكن ضبطها اذا ماأطلقنا العنان لها ، لانها ستقتص منه ويكون قصاصها شديداً لا يتناسب مع الذنب ، ففى طبيعة الأشياء ان الجماعات قابلة للانفعال والاضطراب الشديدين ، انفعالا واضطرابا منشاؤه العاطفة العمياء ، وبعد ان تثور جماعة كهذه ليس من الحكمة أن تسلمها المذنب أو تطلق لها العنان لتفعل معه ماتريد ، انما يحسن ان توقفها هى الأخرى عندحد لايجب أن تتعداه فى معاملتها للافراد المذنبين

لهذين السببين تركت الصبى لنفسه فى ذلك الظرف وحرصت على أن يرى

فريقه انه ليس لخيبتهم من سبب سوى فردية هذا الانسان وتعنته معها . وبالطبع أحاط به الصبيان وانهالوا عليـــه بالتوبيخ والتبكيت والتعجب لحاله هذه . . . فأغمضت عيني على هذا لحظة حتى يرى الصبي لنفسه كيف أنه أساء الى رفاقه ، بعد هذا منعتهم عن ان يسترسلوا ، ولكنهم خسروا الرهان بسببه على أي حال

ولاحظت كل الوقت ان الصبي لم يكن مرتاحا لما فعل . وكنت أرى من عينيه ومن تصرفه كله أنه قلق وخجل ومرتبك ، واعمنا نحن في العابنا المختلفة دون ان يحدث شيء آخر

وفي اليوم التالي أي بعد أن مر على هذا الحادث أربع وعشرون ساعة دعوته إلى مكتبي ، فدخل ، ووقفت هاشاً باشاً وسلمت عليه باليد وأجلسته أمامي . وبدأنا الحديث ، سألته عن العاب البارحة وهل أعجبته أم لا ، فأجاب انها كانت بديعة وانه سرمنها كل السرور ، ثم عرجت على ماحدث منه في اليوم السابق وسألته « وما رأيك فيما فعلت ؟ » فأجاب على الفور قائلا ، « الحق يافلان افندي اني كنت أبلهاً معتوها البارحة ، فلم أدر لماذا تصرفت هذا التصرف المعيب »

فضحكت وقلت حقاً ان لكل منا ساعة شؤم لايدري فيها مايفعل ، نحن نعد من العقلاء العاديين ولكن تنتابنا في بعض الاوقات نوبات من الجنون ، بعدها نفيق الى عملنا فنضحك من نفوسنا ، ولست أشك في انك ضحكت من نفسك بعد ان رجعت اليها تحاسبها على ماعملت . . . والآن ماقولك في هذا الحر الذي يكاد يمنع علينا انفاسنا . . . انك تعتني بشعرك كثيراً فهو منسجم مرتب . . وهكذا انتقلنا من حديث الى حديث حتى استأذن وانصرف

اظن اني نجحت في اكتساب ثقة هذا الصبي ، وانه وجد بالاختبار اني لست متعنتاً معه او مستبداً به ، اختبر هذا في احرج العلاقات بيننا ، لانه استرسل في عناده استرسالا كاد ينقلب الى عصيان وتمرد ، ولكنه وجد اني تمالكت عواطفي

ولم أتحمس أو أندفع وراء العاطفة لخمد شوكته أو اذلال نفسه ، لم افعل شيئاً من هذا مع انه كان فى استطاعتى فعله ولا يكلفنى ذلك كبير مشقة . كان يعلم ذلك حق العلم ويشعر به فى قرارة نفسه . لابل كان يتوقعه وينتظره ، الا انه كان يخشاه ويخافه ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . مع انه هو الشيء الطبيعى الذى يحدث بين كل استاذ وكل تلميذ . وقد كنت انا نفسى استاذاً فى عدة مدارس وأعرف بالاختبار كيف ان المعلم يثور لكرامته المزعومة عند مايخالفه تلميذ ، وكيف ينهال عليه بالتوبيخ ان لم يكن بالعقاب على تمرده وعصيانه . ولهذا السبب بعينه تتوتر العلائق بين الاساتذة والتلامذة فلا تعود المدرسة بيئة صالحة للنمو الاخلاقى فى الصبيان

ولست أنكر وطأة هذا الامر على نفسى ، لانى اشعر كما يشعر الاساتذة بأن لهم كرامة وان الطاعة واجبة لهم على تلامذتهم ، لست انكر ثوران العاطفة فى الانسان عند مايعصى الصبيان ويتمردون . ولا يغيب عنى ضغط هذه العاطفة للانسان ليفعل شيئاً أو ليوبخ وينتهر ويأمر وينهى او يعاقب ويضرب . كل هذا لست انكره ، ولكن يجب على الانسان ان يحكم عقله فى مثل هذه الحالات ويصبر ولو على مضض حتى يستطيع ان يعالج تلك الحالة الخاصة فى ظرف لاتكون العاطفة متحكمة فيه . وبذا يضمن ان علاجه ناجع مفيد . وانه برىء من التحامل والحقد والبغضاء ، او من العاطفة الفظة الغليظة

ثم يجب ان لايغيب عن بال الاستاذ ايضاً انه انسان ، وان حكمه كحكم جميع الناس . فهم متى ثارت عواطفهم يخطئون ، وخطاؤهم هذا تعود عواقبه على تربية الصبى . فلهذه الأسباب جميعاً ادعو الى التريث والصبر والاناة فى معالجة حالات الصبيان الخاصة . وبذا يكون العلاج أقرب للفائدة مما لو انفعل المربى للتو والساعة وعمل بموجب هذه العاطفة أو تحت تأثير هذا الانفعال

الفصل الثانى

الفردية : بحث نظرى

وقبل ان استرسل فى سرد بعض الحالات الاخرى عن الفردية أظنه يحسن بى ان أبحث هذه الظاهرة الاخلاقية من الناحية النظرية ، يحسن ان أحلل الفردية ذاتها مستقلة عن الحالات التى اكتشفتها فى أثناء اتصالى بصبيان هذا المعهد لأنه اذا لم يكن لهذه المشاهدات سند من النظريات العلمية الحديثة ، لايمكن ان تكون لها قيمة عملية كبيرة . والمؤلف يزعم ان النظريات العامة قد نبتت فى الأصل من الظواهر الموضعية والمشاهدات الخاصة ، وان كل ظاهرة من هذه يجب ان تستقيم مع النظرية العامة والا تسرب الشك الى المشاهدات او انهارت النظرية من أساسها

لقد زار المؤلف بعض بلاد أوربا وأمريكا ، فلم يجد الفردية المرذولة شائعة إلا فى مصر ، فالناس هناك افراد حقا ، ولكنهم جماعات أيضاً ، وحياتهم الاجتماعية هى اظهر فيهم من حياتهم كأفراد ، والجماعة عندهم لها حقوق ولها مميزات ، ولايجرؤ فرد منهم على العبث بهذه الحقوق وتلك المميزات ، لأن الجماعة قوية ، وعدم رضاها يقض مضاجع الفرد ويسلبه راحة الضمير وهدوء البال

هذا بخلاف الأمر فى مصر ، فهنا نحن افراد ، لا نهتم كثيرا بالجماعة . اذ ليس لها عندنا الحقوق التى يجب ان تكون لها ، والفرد منا يسير فى الارض طولا وعرضاً يفعل مايشاء ويقول مايشاء ، ولا يعمل حسابه فيما يقول ويفعل الا للافراد مثله ، ومادام عمله لايمس فرداً بذاته فهو يشعر أنه حر لا رقيب عليه ولا حسيب ولا يفهم أنه اذا كان للافراد عليه حقوق فبالأولى يكون للجماعة عليه حقوق أيضاً

وكلمة « الناس » لاتعنى شيئاً عنده ، فكل مايريد ان يفهمه هو هذا الانسان وذلك الرجل ، فالشاب مثلا يعترض السيدة فى طريقها . واذا حاولت ان توقفه عند حده يجيبك قائلا « وما شأنك أنت هل هى أختك ؟ هل هى زوجتك ؟ » ومادامت ليست أختك او زوجتك فانت فرد من الناس ، ليس لك حقوق بصفتك عضو فى هذه الهيئة ، وكل مالك من الحقوق فهو لك بصفتك فرد ليس إلا ، وبصفتك هذه لم يعتد عليك هذا الشاب ، فما شأنك عنده إذن ؟ دعه وجهاً لوجه مع هذه السيدة فالنزاع بين فردين ليس لثالث دخل فيه إلا عن طريق القرابة أو الزوجية

ذلك هو محصل فلسفتنا فى الاجتماع ، واقصد بذلك فلسفة الغالبية العظمى من سكان هذه البلاد . فالفرد منا يتعامل مع افراد آخرين وليس مع الجماعة ، ومادام لايحس هذه الجماعة ولا يراها أو يتحدث اليها وتتحدث اليه ، ومادامت لاتضع يدها فى يده ، أوتجذبه وتدفعه بالمعنى المادى الصرف فليس لها وجود بالمرة . أنه لايفهم معنى الجماعة بالمرة إلا من الوجهة المادية الصرف فمعناها عنده عشرة رجال او خمسون امرأة ، او ما اشبه ، وما ذلك الكائن المعنوى الذى تدعوه بالجماعـــة المصرية الا شيء خيالى لايحسن له وجوداً ، وبالتالى لايعمل له حساباً

وقبل أن نمعن فى شرح هذا الاجمال يحسن بنا ان ننبه الى الفرق الهائل بين فردية وفردية ، ويحسن لتقريب الموضوع للافهام ان نسمى أحـــداهما فردية (Indiviidualism) والاخرى شخصية (Individuality) وان كان أصل الاثنين واحد فى اللغة الانجليزية

والشخصية إمر مرغوب فيه ، وكل نظام لايسمح لها بأن تنمو وتشتد وتقوى انما هو نظام عليل تجب مداواته ، لأنه على مقدار نمو الشخصيات يتوقف خير الجماعة كلها . والشخصية هى مجموع خصائص الفرد التى تميزه عن سواه ، فكل

واحد منا له طريقة خاصة فى التحدث والسير والجلوس والقيام وله أيضاً طريقة خاصة فى التفكير والتعبير عن افكاره . وبالاختصار ان كل ما يميز انساناً عن آخر فى هذا العالم هو شخصيته . وهذا الاختلاف ضرورى لتقدم الانسانية . لأنه لولاه لكان كل منا صورة طبق الاصل للاخر ولما كان من الحكمة فى شىء أن توجد هذه الملايين من الناس . فكان يكفى انسان واحد لتعمير هذا العالم ولكن لما كنا نختلف احدنا عن الآخر فلا بد من وجود الجميع

فالشخصية اذن هى عبارة عن التنوع والتباين فى العقول والميول والرغبات والآمال . وهذا التنوع والاختلاف ضروريان ويجب العمل المتواصل لتوافرهما فى الافراد . وبذا يكون الواحد منهم متمما للاخرين ومكملا لوجودهم . وكما يقول الاستاذ ديوى أن «الشخصية فى معناها الادبى والاجتماعى هى شىء يصطنع ويقصد بها الاقدام والابتكار وتنوع الكفايات والأضطلاع بالمسئوليات التى تنجم عن عقائد الفرد وتصرفاته ، وكل هذه ليست هبات لدنية وانما هى أمور مكتسبة » وعلى هذا فهى مما يغرس ويشجع ويكون موضع التعهد والرعاية

والفردية شىء غير الشخصية . فالاولى جزء من محبة النفس والتنكر لما عداها من الانفس ، وهى لاتستقيم فى الجماعة ، وليس بينها وبين الجماعة من الامور المشتركة الا النزاع المستمر والقتال المستديم ، ومن خصائص الفردية أنها ضيقة محدودة عمياء لاترى شيئاً مما عداها

وهى فى قتال مستمر مع الجماعة على الوجود ذاته ، وليس على الحيازة كما هو الحال مع محبة الذات ، وفرق كبير بين ان يقاتل الانسان للوجود وبين ان يفعل ذلك لحيازة شىء آخر . فقد يكون من مصلحة المحب لنفسه ان يتعاون مع الجماعة ويسير معها ويعينها على تحقيق أغراضها لان هذه الاغراض بذاتها تفيده وتعود عليه بشىء ، ثم قد يجوز ان يخضع الانسان المحب لنفسه للجماعة ليتقى غضبها وينجو

بنفسه من عقابها . وما عدا ذلك فقد يجوز ان تلتقى الفردية بمحبة الذات

ليس للفردى مصلحة فى التعاون مع الجماعة ، بل كل مصلحته فى ان تتركه الجماعة لشأنه يفعل مايشاء ، فنزعته اذن فى ان يشذ ويغاير الجماعة ليس لسبب آخر إلا لأنه لايحب الاجتماع ولا يهتم لما يهتم له المجموع . انه لاينفر من التعامل مع الافراد كافراد ، فيأخذ منهم ويعطيهم ، ولا ينفرمن ذلك لان فرديته فى هذه الحالة تبقى قائمة بنفسها كما هى ، فليس يطلب اليها ان تندمج فى الجماهير

يشعر الفردى أنه فى كفة ميزان ، وأن الجماهير فى الكفة الاخرى ، فان رجحت الجماعة شال هو ، والعكس بالعكس ، أى ان نفسه تكبر وتتضخم الى ان تعدل مجموع باقى الناس ، فيصير فى هذا العالم طرفان فقط ، أحد هذين الطرفين هوالانسان الفردى ، والطرف الثانى الناس جميعا أو الجماعة التى يوجد هذا الفرد بين ظهرانيها ، يقول هوبهوس « ليس كل نمو فى الفرد مستطاعا أو مرغوباً فيه من الوجهة الاجتماعية . لانه لو أخذت شخصية بذاتها تتضخم وتكبر الى أن تصير كالمارد الجبار تذرع هذا العالم الصغير طولا وعرضا ، لما تبقى لباقى الناس الا أن يضؤلوا ويصيروا كالقبور القذرة ، فنمو الشخصية فى هذه الحالة معناه فناء الآخرين ، وهذا هو الحال مع كل نماء لايتناسب مع الحالة الاجتماعية . فالمقصود من النمو الاجتماعى اذن هو النمو المتناسب لافراد هذه الجماعة »

وليس بين الفردى والانانى الا خطوة قصيرة قد يخطوها فيصبح محبا لنفسه أيضا . فالاول لايرى خيراً فى الجماعة والثانى يزيد عليه درجة واحدة ، وهى انه يرى ان فيه الخير والبركة وهذه خطوة قصيرة كما هو واضح ، الاول يحتقر الجماعه والثانى يعبد نفسه

وبعد هذا نرجع الى الفردية نفسها لنقول انها مضرة بالجماعة البشرية ، أولا لانها تفكك وحدة هذه الجماعة . اذ لايستطيع انسان ان ينكران البشرية وصلت

إلى ماوصلت اليه لانها كانت دائما تعمل كوحدة . وليس يعنى هذا انها لم تكن تتقاتل وتتجزأ الى فرق . وانما المقصود ان الانسانية كانت متضامنة بشكل من الاشكال . حتى ان كل ماعمل لها فى جهة ما وصل صداه الى الجهة الاخرى . فعند ما انتصب الانسان القردى Pithecanthropus Erectus على قدميه فى جزيرة جاوه . انتصب كل انسان على الارض ، وعند ماأفلح المصريون وادى النيل أفلح الانجليز وادى التاميز

تدل كل هذه الأمور واشباهها على ان الانسانية وحدة لاتقبل التجزئة ، وانها فى هذا كالجسم الحى له أعضاء . ولا يتأتى فصل الاعضاء عن بعضها ، بل يجب الاعتناء بكل عضو بمفرده وذلك لخير الجسم جميعاً . فالفردية هى معول يعمل لهدم وحدة الجماعة . ومتى شاعت الفردية فى أمة فقد شاعت الفوضى والفوضوية أيضاً ، يقول فوييه (Fouillee) « ان اكبر خطر يجب ان تتقيه الامة الديموقراطية هو تفكك الجماعة الى وحدات ليس لكل منها هم الا ما كان متصلا بالنفس مباشرة يجب ألا تتفكك الى افراد يتناقص فيهم الشعور بالعلاقات والمسئوليات الاجتماعية» يقول هوبهوس « كان بعض كتاب القرن الثامن عشر يزعمون انه لو اتبع كل انسان ميوله Interest وسعى الى خيره لنتج من ذلك أحسن النتائج الاجتماعية الممكنة . ولكن الحقيقة ان الحياة للأسف ليست بهذه البساطة . لانه وجد ان سعى الانسان وراء ميوله وفائدته متخذاً فى ذلك أقرب الطرق الى اكبر الفوائد Desire لايعود على سلامة الجماعة أو تقدمها »

فى طبيعة الأشياء ان الفردية عدوة التعاون أيضاً ، لأن هذا يتطلب مجهوداً مشتركا يقوم كل فرد منا بقسطه فيه . قد تدفعنا الضرورات الاقتصادية الى التعاون مع باقى الناس طوعا أو كرها . الا ان ضرورات الاجتماع ليس لها قوة الامور الاقتصادية ، ولذلك نجد انه ليس للفردى مندوحة عن ان يختلط بالجمهور فى

البيع والشراء والأخذ والعطاء ، ولكنه عند مايترك لنفسه بعد ذلك ينزوى عن الجماعة ويقطع كل علاقة له معها ، فتتسع شقة الخلاف بينهما ولايعود يجمعهما شيء الا ماكان من الضرورات القصوى

لايجد الفردى غضاضة على نفسه فى التعاون مع المعاهد والمنشآت ولكنه لايستطيع أن يتعاون مع الافراد والجماعات ، وبمعنى آخر لايشعر الفردى بحرج فى ان يستعمل الترام ويذهب الى دور الصور المتحركة ويقوم بأعماله المطلوبة منه فى المكتب أو المصنع . فهو يستطيع ان يفعل كل هذه واشباهها . اما انه يجتمع الى رفاق ليقوم بمشروع مشترك ، أو ينضم الى جماعة للتسلية البريئة فلا ، ذلك لان هذا يتنافر مع ما اعتادته نفسه ، فهو يأخذ من الجماعة ماهى مستعدة لأن تعطى وينتفع بكل منافعها العامة والخاصة ، ولكنه لايحرك أصبعاً ليتعاون مع الجماعة فيما يعود عليهم جميعاً

يشبه الفردى انسانا متحذلقاً فى ملبسه يسير فى سوق احدى القرى تزحمه الناس من على جانبيه ومن خلفه ، هذا الظريف لايريد أن يحتك بالناس الا مضطراً ، ومتى خلص من هذه الجماهير أطلق ساقيه للريح ، وضرب فى مناكب الارض بعيداً عنها . يلعن الصدفة التى أوجدته فى هذا الزحام ، وانسان هذا شأنه من العبث الذى لاطائل تحته ان تطلب اليه ان يعاونك فى بيع سلعك أو شراء سلع الآخرين ، فهو لايحس ان بينه وبين هؤلاء الناس شيئا مشتركا

وهؤلاء الفرديون فى الواقع مغفلون ان لم تكن الفردية فى اصلها مرض من الأمراض النفسية . اذ لايستقيم للافهام ان انسانا سليم العقل والعاطفة يزدرى بالجماعة التى ولد ونشأ وترعرع فيها مهما كانت حالة هذه الجماعة . لانه اذا لم يكن لها فضل مطلقا فكفاها فخراً انها انتجت انسانا مثله ، هذا من وجهة نظره هو ، أما نحن فنزعم أن الجماعة التى تنتج عدداً كبيراً من هؤلاء جماعة مريضة ، ويجب

ان يحرص العقلاء فيها على معالجتها بكل الطرق الممكنة

كل ماللفرد من مميزات مكتسبة أو موروثة ، وكل ماله من حضارة ومدنية وثقافة هو من فضل جماعته عليـــه ، لابل ان الخرقة التى يستتر بها واللقمة التى يتبلغ بها هى جميعا من خيرات الجماعة عليه . فلولا الجماعة المصرية مثلا لما استطاع فرد من الافنديات أن يلبس السراويل ، لانه لو ولد فى أواسط أفريقيا لما كان له الا ان يسير عاريا ، كل هذه الأيادى التى للجماعة عند الانسان الفردى تغدو منسية ولا يبقى من كل هذا الا هو لنفسه ، وحتى هـذا أيضا تنازعه فيه ، يقول الاستاذ صورز « ليس للشخصية معنى من دون علاقتها بالجماعة ، لانه ماذا يبقى من (أنا) بعد ان ينتزع منها كل الاختبارات التى كانت لى كأبن وأخ وزوج وأب وصديق ومواطن ومعيد لما عمله الانسان فى الماضى ومتخيل لما سيعمله فى المستقبل . . . ؟ حقا ليست هذه العلائق وحدها هى (انا) لان لى شعور بوحدتى الشخصية وهى التى تجوز كل هذه الاختبارات ، ولكنى حصلت على هذا الشعور وحزت هذه الشخصية عن طريق العلاقات الاجتماعية ، فانا لست أنا الا عن طريق هـذه العلاقات فقط ، وبغيرها لست أعد شيئاً مذكوراً ، وبعد فأن غنى الشخصيات هو فى الحياة الاجتماعية ، وكما تكون حيوية الجماعة كذلك تكون حيوية أفرادها » ، ويقول بلدوين « ان النمو الطبيعى للفرد يقوده الى الشعور بالوحدة الاجتماعية ، ومن الجهة الاخرى ان استعماله لمميزاته الاجتماعية وقيامه بواجباته للجماعة يؤديان إلى تقدم شخصيته والى كمالها »

يتبين من هذا ان هؤلاء الفرديين هم فى الواقع ضربة على الجماعة التى ينتمون اليها ، وحجر عثرة فى كل خطوة تخطوها ، انهم يعطلون الروح المعنوى للجماعة عن ان تبلغ مداها الذى تستطيع ان تبلغه اذ يكفى للقضاء على الروح المعنوى للجماعة ان يشذ عنها بعض الافراد كما تدل على ذلك أبسط قواعد عـــلم النفس

الاجتماعى (Social Psychology) وعلى من اراد ان يتحقق هذا لنفسه ان يلقى نظرة على المشروعات التعاونية العامة ، فان نكوص بضعة أفراد عن مشروع من المشروعات يكفى لهدمه من أساسه ، ولم حالة من هذه الحالات وقعت تحت حس الجمهور المصرى حتى وقر فى نفسه اننا لا ننفع لشىء ، وما انا نذهب الى المشروعات ، اذ أنت تستطيع ان ترى أثر الافراد فى الجماعات فى عرض الشارع ، ففى حشد يعد بعشرات الألوف يكفى لتفريقه ان يجرى بعض الافراد نكوصا على الاعقاب

فاثر هؤلاء الفرديين فى الحياة التعاونية اثر خبيث لأن موقفهم بازاء هذه الحياة ليس سلبياً فقط بل ايجابياً أيضاً بمعنى انه ليس من طبيعة الجماعات ان تترك هؤلاء وشأنهم ، فكثيراً ما يسير الناس على غرارهم ويترسموا خطاهم فيقضون على جهود الجماعة ، فوجودهم ذاته مثبط لهمة الجماعة ومضيع لجهودها وداعية لخذلانها ، ومن لنا بتذكير هؤلاء الفرديين ان فى خذلان الجماعة بأى وجه من الوجوه خذلان لذواتهم ، أظنه برنارد شو الذى قال مرة ان أردت ان تعيش فى هذا العالم فلا بد لك ان تقاسمه اقداره . أما ان عز عليك ذلك فيجدر بك ان تبحث لك عن كوكب آخر بخلاف هذا لتعيش فيه ، يقول هوبهوس الفيلسوف الانجليزى « ينتج من هذا أن نمو الجماعة وتقدمها هو فى نفس الوقت تقدم للافراد واذا كان معنى النمو الاتجاه الى حياة فائضة ومليئة بالمعانى ، فتقدم الجماعة هو فى الواقع توجيه لحياة أفرادها الى الكمال والامتلاء » ويقول ديوى « من واجب الرجال ان يتعهدوا كفاياتهم وميولهم وشخصياتهم حتى يستطيعوا أن يجدوا لذتهم فى القيام بما يطلب منهم كافراد فى جماعة ، قد يجوز ان هذه اللذة قصيرة الأمد قليلة الكمية ، ولكنها فى نوعها ترجح كل الآلام الملازمة لها وترجح أيضاً كل أنواع اللذات التى يضطر الفرد لأن يتركها فى سبيل سعيه للجماعة . أننا نجد مصداق هذا القول فى الحقيقة البسيطة الآتية ، وهى ان الناس يختارون هذا المسلك

عن قصد وروية ،

فالفردية هي أولا ضرب من حب النفس وثانياً هي تغفل أو نوع من الامراض النفسية ، وثالثاً هي تحقير وازدراء بالجماعة ، ثم انها رابعا معطلة للتعاون والمظاهر الاجتماعية الاخرى ، وهي خامسا مضرة بالفرديين أنفسهم وبالجماعة التي وجدوا بين ظهرانيها واضرارهم ليست سلبية فقط بل ايجابية أيضا

وبعد كل هذا نتساءل هل يمكننا ان نتخلص من الفردية ؟ أم هي داء عضال انتاب الجماعة المصرية ولن تستطيع منه انفكاكا ؟

أننا نتبع فلسفة التفاؤل ، فنظن انه يمكن اقتلاع هذه الخصلة تدريجياً على مر الزمن ولكن يجب توافر عوامل كثيرة وتضافرها على تطهير البيئة تطهيراً نسبياً من هذا المرض وتتخير من هذه ثلاثاً فقط

١ — الجماعة

على الجماعة واجب يجب ان تؤديه لخيرها ولسلامتها . وواجبها هو ان تشتد على هؤلاء الفرديين ، لأن اهمالها يشجع هذا الصنف من الناس على ان يوغل فى ازدراء الجماعة والاستهانة بها وبحقوقها ، وفى الحق ان مجرد وجود هؤلاء الفرديين هو دليل مادى على ان الجماعة لم تعرف كيف تحترم نفسها وتحافظ على كرامتها ، فالفرد لايوغل فى فرديته الممقوتة مالم يكن مستهينا بسخط الجماعة وغضبها ، وسيان عنده ارضيت أم غضبت لأنها فى كلتا الحالين ليست تقـــدم ولا تؤخر عنده ، والانسان بطبيعته لايسعى وراء رضاء كائن ما أو الى اتقاء غضبه مالم يكن يوقن ان لرأى هذا الكائن قيمة واعتباراً

فلولا ان الفرد لايشعر ان لهذه الخلائق المجتمعة عند نافذة تذاكر السكة الحديدية مثلا قيمة واعتباراً لما اجترأ على أن يشق له طريقا وسطها يدفع هذا ويجذب ذاك ويضايق غيره ليصل الى النافذة قبل الناس جميعاً ولولا ان هؤلاء الناس جميعاً لايحتجون أو يرفعون

اصبعا فى وجهه لما سولت له النفس أن يفعل فعلته ، وعلى من يشك فى هذا ان يجرب هذا التصرف فى بلد راق كامريكا أو انجلترا مثلا ، هنالك لايجرؤ احد على هذا ليس لأن البوليس يمنعه كما يزعم البعض ! كلا فان مثل هذه الاجتماعات لايتحتم فيها وجود البوليس ، ولكنه لايستطيع ان يفعل ذلك لأن روح الجماعة لايسمح بمثل هذا التصرف

لاتحتاج الجماعة فى هذه البلاد لأن تضرب المعتدى أو ترد اعتداءه عليها بالقوة المادية ، ان شيئا من هذا لايكون ، بل كلما تفعله الجماعة هو ان ترمقه بعين الازدراء دون ان ينبس احد ببنت شفة . فيحار ذلك الفرد ويرتبك ولا يدرى ماذا يفعل سوى ان يعتذر ويرجع الى مكانه ، فليس فى امكان الفرد مهما كان ممعنا فى الفردية ان يثبت تحت هاتيك النظرات التى تصوب اليه من كل صوب وحدب

ولقد خطر لى يوما ان أجرب هذا فى مصر ، وكنت أريد ان ابتاع تذكرة من القناطر الخيرية الى القاهرة ، ووقف كل منا فى مكانه ينتظر ، فاتى انسان من هذا الطراز ودفع هذا وجذب ذاك وضغط الآخر الى ان وصل الى النافذة ، وكنت فى ذيل الجماعة كلها فتصديت له لأرى ماذا يكون من شأنه ، ولكنى عجبت جداً لأنى وجدت الجمهور قد أخذ يلومنى أنا ، فعلمت أنى أخطأت اذ اعتمدت على معاونة الجمهور قبل ان أتأكد انه يعلم ما أرمى اليه ، فحاولت ان اخلق رأياً عاما ضد المعتدى ، وفزت بذلك ، وتحول الرأى العام ضده ، ولكنه رأى عام ضعيف لم يؤثر فى المعتدى كثيراً ولم يغير شيئاً من تصرفه ، ولكنى رأيت من عين هذا الرجل انه لم يكن مرتاحا هادىء البال ، ثم أخذ يقلق ويضطرب ، واخذ يعتذر لهذا ويبرر سلوكه امام ذاك ويدعونى أنا لكى آخذ مكانه

فالرأى العام قوى بطبعه ، ولكنه لايدرى انه قوى ، ويدرج على هذا الجهل بقوته ، فيشجع هؤلاء على تصرفاتهم المعيبة . لا بل كثيراً مايظهر اعجابه بهؤلاء كأن

يقهقه ويضحك ويسر لهذه التصرفات . فهى فى نظره تدل على تفوق ونبوغ فى الفرد والحال انه كان يجب على الجمهور ان يعبس لكل من يستهين بحقوقه . ويظهر أن الاستاذ كو كان محقا حينما قال « ان أصل الغرائز والعادات الضارة بالجماعة هو فى الواقع فى معاهدنا الاجتماعية نفسها وفى العادات والرأى العام فيظهر ان الجماعه تنتظر من الافراد ان يكونوا محبين لذواتهم ، وقد تكافئهم على هذا بالفعل »

وهذا التساهل مع الفرديين يختلف تبعاً لاختلاف الجماعات . فالفردية تضطرد عكسا مع المدنية ، لانه كلما ارتقت الجماعة واوغلت فى الحضارة والمدنية تناقصت الفردية فيها ، وقد يستطيع الانسان ان ينظر لهذه المسألة من الوجهة الاخرى فيزعم انه كلما قلت الفردية البغيضة ارتقت الجماعة . يستوى هذا وذاك فى نظرنا ، لانه فى كلتا الحالتين نرى ان الواحدة منهما لاتستقيم للاخرى

وعلى أى حال ان واجب الجماعة ظاهر واضح ، واجبها ان تثق بنفسها قليلا وعلى المستنيرين والمتعلمين فيها ان يثقوا بها نوعا فيؤلبونها ضد الفرديين انى وجدوا ، قد تقهر الجماعة وتفشل فى حالات كثيرة ، ولكن يجب ان يكونوا مستعدين لأن يستحثوا همتها فى كل المواقف . يجب ان يؤدوا الامانة التى فى عنقهم فينوروا الرأى العام ويهذبوه لكى يستمسك بحقوقه أياً كانت هذه الحقوق

وفى ختام هذه النقطة يستطيع المؤلف ان يسر للروح الجديدة التى أخذت تنبثق فى الافق المصرى فى السنوات الاخيرة . فالرأى العام له الآن من القوة مالم يكن له قبل حركتنا من منذ سنة ١٩١٩ ، لايزال الطريق شاقا ووعرا امامنا ، الا اننا نأمل ان يتنبه الجمهور لبعض حقوقه ، ويدفع المعتدين عليها بالحسنى ، وكثير من هذا يتوقف على جهود الافراد المستنيرين

٢ — المدرسة

والعامل الثانى فى هدم الفردية أو تضييق أفقها هو البيئة المدرسية ، فالمدرسة هى

المكان الذى يوجد فيه الصبيان بياض نهارهم ، وهى التى تخص نفسها باحسن اوقاتهم واكثرها امتلاء بالنشاط واستعداداً للحركة والحياة ، ثم انها رأى عام فى نفسها ، ومتى تقوى فيها الشعور بهذه الحقيقة ، وبأن لها كجماعة بشرية منظمة مثلا ومبادىء مقررة لايصح للفردى ان يعبث بها ، متى تقوى فيها هذا الشعور يكون نفوذها أفعل فى حياة الصبيان من أى جماعة أخرى يوجدون فيها ما خلا العائلة نفسها . والصبيان فيها فى سن يستطاع معها توجيه ميولهم الى الوجهات التى تريدها . لأنه ليس فى استطاعة الرأى العام خارج المدرسة الا ان يعاقب الافراد ، أى ان طريقة الرأى العام سلبية ولكن المدرسة تستطيع ان تغرس الميول الاجتماعية الموجبة فى نفوس الصبيان

ليس المؤلف على اتفاق تام أو غير تام مع برنامج التعليم فى بلادنا ، لأنه يرى به من العيوب مايجعل النفس تثور فى كثير من الحالات . فالبرنامج مزدحم بالمواد ازدحاما مريعا ، ثم انه يفرض فى الصبى أنه يستطيع كل شىء من الوجهة العقلية والبدنية . أى انه يفرض فى التلميذ القدرة على ان يتعلم أى شىء تحت الشمس مادام يتدرج فيه من السهل الى الصعب . فمتى بدأ بالجمع فى الحساب مثلا يستطيع ان يدرس الطرح والضرب والقسمة والكسور الاعتيادية والعشرية والارباح المركبة والبسيطة وهكذا الى مالا نهاية . ولا يخطر فى بال واضع البرنامج ان لهذه حدودا لا داعى لأن يتعداها الصبى إلا إذا كان يزمع ان يتخصص . ولست أفهم لماذا يفرض على الصبى ان يظل يصارع علما واحدا بذاته بعد ان بدأ فيه ، لماذا لاتسقط المدرسة بعض هذه العلوم عند حد محدود . ثم لماذا يفرض فى الصبى ان يقضى الاسبوع كله داخل جدران الغرفة . لماذا لايكون له ساعات من الفراغ يطلب اليه ان يقضيها فى شىء آخر بخلاف الجلوس والاستماع الى الاستاذ ثم لماذا ينتظر من صبى الكفاءة مثلا ان يدرس سبعة عشر علما ويخرج منها جميعا بلا شىء

سوى القراءة والكتابة وبعض مبادىء الحساب ؟ كل هذه أسئلة تدور بخلد المؤلف ولا يجد لها حلا معقولا

ولكن هذا يبعدنا عن الغاية التى وضع من أجلها هذا الكتاب فلنترك هذه الأمور لوقت آخر. وانما هنا لك شيء تريد أن ننبه اليه الاذهان ، وهو ان الصبى بعد كل هذا الوقت والجهود اللذين يصرفهما فى المدرسة وبعد أن يخرج منها منهوكا مضعضعا بعد كل هذا يطلب اليه أيضا ان يسهر فى منزله ليتم ما نقص من الدروس ، يسهر ويدرس ويذهب الى المدرسة ثم يعود ليسهر ويدرس وهكذا يدور فى حلقة لعينة مفرغة وهو فى هذا كرقاص الساعة يعود من اليمين ليذهب الى الشمال ويرجع من هذا الى ذاك ، الحق انه يحسن بالمدرسة أو بوزارة المعارف أن تضع حداً أقصى للمذاكرة والدرس ، ويحسن ان يكون كلاهما فى المدرسة تحت ارشاد الاساتذة ، ثم بعد ذلك يتركون الصبيان وشأنهم يقضون باقى الوقت فى اللعب والمراح والرياضة ، لأنه اذا كان مفروضا فى الكبير ان يشتغل ثمانى ساعات فقط فكيف نفرض على التلميذ ان يشتغل أكثر من هذا ؟ ان للنشء حقوقا ولا يصح لوزارة المعارف أن تغفلها

الحق ان الصبيان فى بلادنا محتاجون الى الالعاب الرياضية بأنواعها ، لأنهم فى حالتهم الراهنة محرومون منها حرمانا مضراً بهم . فالبرنامج طويل يضطر الصبى لان يدرس كثيرا ، والاساتذة وراءه يلهبون نفسه وبدنه ايضا ليكب على الدرس والمذاكرة ، والآباء لا يتركونه لنفسه قليلا . بل يصرون على ان يحملوه فوق ما تحمل قواه فلا يرضى الاب لابنه بأقل من الاولوية فى الفرقة . وما دروا انه يستحيل ان يكون جميع الصبيان الاوائل فى فرقهم

يرى المؤلف ان الصبيان فى مصر مظلومون حقا ، وان جميع العوامل تضافرت على ان تحرمهم من حق من الزم الحقوق لهم الا وهو حق اللعب والمراح

والاستمتاع البرىء بالحياة ، فليس لحياتهم غاية سوى ان يستوعبوا المعلومات المدرسية ويستظهروها . انها حياة ثقيلة حقا معطلة للنماء المستكمل

ومع ذلك ان كان غرض الحياة هو استيعاب الحقائق فاللعب من خير السبل التى تؤدى الى هذه الغاية . لانه لو كان للصبي قدر كاف من اللعب المنظم تحت ارشاد الاخصائيين الذين يحرصون على ان يسددوه الى غاية معينة لاصبح الصبي أقدر على حيازة المعلومات وأكثر استعداداً للقيام بمطالب المدرسة وذلك لان الرياضة البدنية هى فى نفس الوقت رياضة للمخ وللجهاز العصبي ، وهذان هما اداة المذاكرة والحفظ ، ان كانت المذاكرة والحفظ هى كل مانحرص عليه

واللعب فى ذاته خير ، اذ هو من أفعل الوسائل فى تقويم الاعوجاج البدنى الذى يصاب كثيرين من الصبيان بسبب طول البرنامج وتشعبه وخروجه عن الحد المناسب الذى يتفق مع صحة الابدان ، والحق ان الانسان ليحزن ويكتئب اذ يجد ان الغالبية العظمى من صبياننا عليلة بشكل من الاشكال ، ويكفى للتحقق من هذا أن يزور الانسان أحد معاهد التربية فى بلادنا ، لانه لايكاد يجد فرداً سليما فى كل هذه المئات والالوف ، فهذا ضعيف البصر ، وذاك ثقيل السمع ، والآخر محدودب الظهر وغيره اصفر الوجنتين ، وآخر تقرأ آيات البؤس مسطورة على وجهه كأنه ماخلق إلا ليكون متطيراً ومتشائما

وكل هذه النقائص أو معظمها هى شر من السهل ازالته بقليل من التروض المنتج النافع . فلو كان للصبيان من يعتنى بصالحهم ويسعى وراء خيرهم لما وجد كثير من هذه النقائص . ويكفى لكى ترى الفرق الكبير بيننا وبين غيرنا من الامم أن تأخذ مائة طفل من مدارسنا وتصفهم وتقارنهم بمائة مثلهم من أبناء الغربيين . أنك لو فعلت فلا بد ان ترى ان الاوربيين يبزوننا قوة ونشاطا وحيوية ، والالعاب الرياضية على اختلاف أنواعها هى من أهم الاسباب لهذا النشاط وتلك الحيوية

يقول جانجز « كان ينظر للعب فى العصر الماضى على أنه مضيعة للوقت ، ولكن الدراسات العلمية الحديثة دلت بما لايدع مجالا للريبة والشك على أن اللعب هو أفضل أنواع النشاط لتنمية القوى . . . . . وأغلب الظن أن الطفل يتعلم وينمو عن طريق اللعب أكثر مما يتعلم وينمو من أى شىء آخر . . . . ولقد دلت الدراسات الحديثة أيضاً على ان الاطفال الذين يلعبون يتفوقون فى القوة العقلية والجسمية على غيرهم ممن لايلعبون »

وللالعاب أيضاً من الأثر فى الأخلاق مالا يمكن انكاره أو المكابرة فيه ، لان هذا المبدأ مفروغ منه ، فعلماء التربية قد اجمعوا على ذلك . وما كتب فى هذا الموضوع يملأ مكتبة كبيرة ، ولم يقرأ المؤلف فيما قرأ ان أحداً من علماء التربية فى عصرنا ينكر هذه الحقيقة . يقول ديوى « ان اللعب والفن ضرورات اخلاقية أوأدبية ، ويحتاج اليها الانسان لانها تتكفل بما يتبقى من غرائزنا بعد ان نكون قد صرفنا جزءاً منها فى أعمالنا الاخرى ، فهما يحفظان التوازن البدنى والنفسى اللذين لايمكن للعمل أوالشغل أن يحفظهما إلى مالا نهاية ، هما ضروريان لانهما يدخلان التنوع والمرونة ودقة الاحساس على طبيعة الانسان » ويقول شابمان وكونتس « ان اللهو ينمى الملكات ، ويطيل عهد الشباب لانه يوجد الشرائط العقلية والبدنية الضرورية للشباب . . . . وفوق كل شىء آخر نرى ان اللعب يكسب الحياة لونا وحلاوة وجمالا »

وغير ذلك ان جو المدرسة كما هى فى بلادنا الآن يختلف كثيراً عن الجو الذى يصلح للاحوال الاجتماعية ، اذ ماذا يطلب من الصبى ان يفعل فى غرفة التدريس الآن ؟ وهل نشاطه المدرسى فى الحالة الراهنة يعود على خصائصه الاجتماعية أم لا يعود ؟ نرى انه فى النظام الحالى لا يطلب من الصبى فى الفرقة الا ان يدل على مبلغ تحصيله من العلم الذى يدرسه ، مطلوب منه ان

يظهر للاستاذ مقدار تفوقه على رفاقه ، لأن طبيعة الدرس في النظام الراهن تستحثه على ان يغلب هذا ويرد خطأ ذاك ، ويتقدم على الآخر ، ويظهر افضليته على غيره ، فيسر الاستاذ لهذا التلميذ النجيب لأنه وطأ كل الرءوس الاخرى بالاقدام ، وظهر وطفا على هذا الحشد . وتفرد من دونهم فليس منهم واحد يطمح في ان يباريه

فالشوط هنا بين أفراد . والافراد هم الذين يفوزون . وبجهود الفرد يعود عليه دون غيره . ولن يعود شيء مما يفعل على الآخرين . فهو فردي . ونظام الفرقة يستحثه على ان يكون فرديا ، ومن مصلحته ان يكون كذلك ، ثم من مصلحته ايضا ان يفشل الباقون . فنضاله هذا هو عن النفس ليس غير ، وفي سبيل تلك النفس ماهو فاعل . اذ لايعقل ان الطالب يحفظ دروسه لفائدة فرقته . لأن هذه لاتدخل في حسابه ، ويجب ان لاتدخل في حسابه

وبعبارة اخرى ان نظام المدرسة عندنا كما هو على حالته الراهنة يتطلب من الصبي ان يكون فرديا فحسب ، بمعنى انه لايغريه ان يفعل شيئا لأجل الجماعة التي يعيش فيها . الى هنا ليس لنا مانعترض به على هذا ، لأن غاية التعليم ان يحصل الصبي لنفسه على أقصى مايستطيع الحصول عليه ، اذ أنه سيستفيد وقد يفيد الجماعة بمحصوله العلمي في يوم من الايام ، فلتدرج المدرسة اذن على هذا النظام ولنستحث الصبي على ان يجمع لنفسه من المعلومات أقصى مايستطيع جمعه

وأما من الوجهة الاجتماعية والأدبية فلا يمكن ان تترك المسألة عند هذا الحد لأن هذا النظام يتناسى الجماعة ، ولايجعل لها محلا في حياة الفرد ، لأنه اذا كان يطلب الى الصبي ان يقضي حياته الأولى على هذه الوتيرة ، فمن أين له الصفات الاجتماعية التي يتحتم ان توجد فيه لكي يستطيع ان يعيش وينشط في الجماعة ؟ كيف تنمو فيه هذه الخصائص ؟ وكيف يكتسبها بالمران والخبرة ؟ كيف يفعل هذا وليس له مجال لأن يختبرها في حياته اليومية . وحياته كما هي الآن مبنيـــه في

جعلتها على الفردية التى ظهر لنا أنها لاتستقيم وحياة الجماعات

وهنا الدور الذى تقوم به الالعاب الرياضية . وخصوصاً ما كان منها يتطلب تعاون الفرد مع الجماعة . ففى اللعب الذى من هذا القبيل ينسى الصبى الفردية التى اضطرته لها أنظمة المدرسة . هنا يضطر لأن يجاهد ويناضل من أجل جماعة من الجماعات . وكل مجهود يبذله يعود عليها ويقربها من غايتها التى تسعى اليها . والنجاح الذى يصيبه والاشواط التى يربحها ملك للجماعـــة كلها . وليس له منها الا مالكل فرد آخر من فرقته ، فليس للفردية فى هذا النشاط مايمكن ان يكون لها فى حجرة الدرس

هذا ماتستطيع المدرسة فى بلادنا ان تقوم به لخير الجماعة المصرية فلا يجوز ان تكون غايتها اعداد الطلبة للحصول على الشهادات والنجاح فى الامتحانات فقط . بل من وظيفتها أيضا ان تساعد على أن تجعل الطلبة اجتماعيين فى ميولهم وتستطيع ان تفعل ذلك عن طريق الالعاب الرياضية لابل نشعر أننا لانعدو الصواب اذ نقول ان الالعاب هى السبيل المحقق الذى تستطيع ان تصل منه المدرسة الى أخلاق الصبيان . لقد قلنا فى كتابنا « التربية والاخلاق » أنه ليس اعود على أخلاق الفرد وآدابه من ان ينشط فى سبيل الجماعة ويعمل لها ويناضل عنها ويخدمها ويحدب عليها ، ذلك لأن الاخلاق فى الواقع ليست صفة من صفات النفس او عنصراً من عناصرها او جوهراً من كيانهـا ، انما هى ميول ومران ونوع من نشاط الكائن الذى يعيش فى وسط الجماعة . فاظهر مافى الاخلاق هو كونها نوعا من النشاط الاجتماعى

والمدرسة قادرة على التحكم فى البيئة بحيث تجعلها صالحة لمثل هذا النشاط وكل ما كان النشاط مع الجماعة أفلحت المدرسة فى اقتلاع بذور الفردية القبيحة التى نشكو منها فى بيئتنا المصرية ، فنحن نريد ان نحيا كجماعة وليس كافراد ، نريد

أن نحيا ككائن حى وليس كخلايا متفرقة ، والمدرسة كائن معنوى يستطيع الصبيان ان يحسوا بوجوده ، ويستجيبوا له متى دعا ، يجب ان يتعلم الصبى ان يحيا كعضو فى جماعة وليس كفرد مستقل عن أى جسم آخر ، والسبيل الى ذلك كما نرى هو الملعب الرياضى

وحبذا لو شجعت المدرسة التعاون بأنواعه — التعاون — فى انشاء النوادى المدرسية وفى ادارة الشركات الصغيرة تحت ملاحظة المدرسة ، لابل نود لو أخذت بسبل التعاون فى استذكار الدروس ، كأن يقسم الطلبة ماهو مطلوب منهم على أعضاء الفرقة فيقوم كل منهم بما يخصه لخير المجموع ، وهكذا الى كل أنواع النشاط الذى يتطلب مجهودا مشتركا من الجماعة . لأن كل هذه هى من الشرائط الضرورية للتربية الاخلاقية ولايمكن فى نفس الوقت ان تكون معطلة للتربية النظرية التى غرقنا فيها لذقوننا فى هذه البلاد

وقبل ان نترك هذا الموضوع تركا نهائياً يحسن بنا ان نعرج بكلمة على مسالة التعاون فى الدرس الذى يسميه علماء التربية المحدثين طريقة المشروع أو Project Method . ومحصل طريقة المشروع هذه هو أن الطلبة لايدرسون الموضوع سواء أكان جغرافيا أم حساب أم خلافه دراسة انفرادية يهتم كل فرد فيها بما لنفسه ، لايتكلف الطلبة فى مثل هذا النظام باستظهار الحقائق مستقلين بعضهم عن بعض . وانما يطرح الموضوع عليهم كجماعة تتعاون للوصول الى غاية مشتركة . فهو من هذه الوجهة بحث تقوم به جماعة وليس درساً يستظهره الافراد . وبمعنى آخر يكلف الطلبة فى مدارس أمريكا مثلا — وهذا مايحدث بالفعل — أن يدرسوا رحلة الطيار لندبرج من امريكا الى أوربا . فيتكفل بعضهم بدراسة النظم السياسية للدول التى مر بها لندبرج . ويضطلع البعض الآخر ببحث طرق المواصلات البرية والنهرية التى استخدمها هذا الطيار فى الاتصال من بلدة الى اخرى وهو

فى ضيافة الحكومات المختلفة . ويدرس بعضهم المواد التى استخدمت فى بناء هذه الطيارة . والبلاد التى صدرت هذه المواد . وقد يقوم فريق منهم بصنع أنموذج للطيارة . وبالاختصار لايفرغ الطلبة من دراسة هذه الرحلة قبل أن يكونوا قد علموا عن هذه الدول الشيء الكثير . وكل هذه المعلومات التى يجدها الطلبة مجتمعين تطرح أمام الفرقة للنقد والبحث والاصلاح . ويخرجون منها بنتيجة هى ملك للفرقة كلها وليست لفرد بذاته

ان وسائل التربية الاجتماعية متوافرة المدرسة فى بلادنا كما هى متوافرة لكل المدارس فى جميع أقطار الدنيا ، ولكنها مغفلة عندنا كل الاغفال الا فى القليل النادر بينما قد خطا غيرنا فى هذا المجال خطوات واسعة ، فليس الاختلاف بيننا وبين المدارس فى بلادنا قائما على نوع المواد بقدر ماهو قائم على مقدارها وطريقة تدريسها . ولولاان تصرف المدرسة فى بلادنا معطل لنمو الصبى الاخلاق والبدنى لما أولينا المسألة شيئاً من الاهتمام

٣ — التربية المنزلية

تتناول التربية المنزلية جميع النواحى الاخلاقية للطفل ، فلا يمكن ان يعفى البيت من أى أمر فى هذه التربية . لأن كل نواحى الحياة الانسانية هى من أخص وظائف الأسرة ، فانت تستطيع ان تجد حداً لوظيفة المدرسة ، وتستطيع ان تجد مبرراً من الأمور النظرية لان تدافع عن المدرسة أو الجماعة أياً كانت ، تستطيع أن تدفع بأن هذه الوظيفة أو تلك ليست من خصائص معاهد التربية ، ولكن الحال بخلاف هذا مع العائلة ، لان كل مايمس حياة الافراد هو من أخص وظائف العائلة . والعائلة مطالبة بالقيام على شئون الطفل جميعها ، ولا نستثنى من ذلك شيئاً

فى استطاعة العائلة ان تفعل الاعاجيب فى حياة الاطفال ، لانها تستطيع ان تخلق الافراد خلقاً ، وهى فى الواقع تفعل ذلك وسواء أكانت تريد ذلك أم

لاتزيده . فهى تتحكم فى اقدار الاطفال ، تفعل ذلك ثم تلوم الطبيعة على نقائص الاطفال . والحقيقة ان الطبيعة بريئة فى معظم الحالات ، لان الارجح أن الافراد يصطنعون ولا يخلقون

ويعود اللوم فى مسألة الفردية خاصة على العائلة ، لانها إذا كانت قد فشلت فى ان تجعل الطفل اجتماعياً فى ميوله ونشاطه فمن يستطيع ذلك ؟ هل تستطيع ذلك الجماعة البشرية الكبرى وهى لاتملك الوسائل الفعالة التى تساعدها على ذلك؟ هل تستطيعه تلك الجماعة وهى عاجزة عن ان تفعل شيئاً سوى ان تكره الفردى وتعاقبه وان تحب الاجتماعى وتكافئه ؟ فالفرد يدخل فى زمرة الجماعة بميول واتجاهات فكرية ثابتة لاينفع فيها العقاب أو الثواب . وبعد فالجماعات ماتزال تتبع الغريزة والعاطفة فى معاملتها للافراد ، فهى اما تكره الفرد أو تحبه ، وكفى

ولكن للعائلة حكما آخر ، فهى لايخطر لها أن تكره الطفل بأى حال من الحالات ، لابل هى تنتظر من الطفل أن يخطىء وتعالج خطاءه بصبر وأناة وعقل ومحبة ، ثم هى متسامحة مع الطفل لاتحقد عليه لاية هفوة لان أقداره بين يديها وتستطيع ان تصطنع منه شخصية كبيرة . وأما الجماعة فتنتظر من كل من يهبط عليها ان يكون مستوفياً لنموه . فلا تشعر أنها مطالبة لأن تستكمل نمو الافراد ، وفرق كبير بين الحالتين

يجب ان تكون العائلة مستنيرة متعلمة حتى تستطيع ان تكون الافراد والشخصيات ، وفى امكان العائلة المستنيرة ان تتناول استعدادات الفرد الطبيعية بالتعديل والتهذيب حتى تصطنع منه انسانا من خيرة الناس ، وذلك بوضع الطفل فى الظروف التى تستدعى منه ان يفعل وينشط وان يكون من شأن عمله ونشاطه أن يؤدى الى خدمة الجماعة . فمن طبيعة الطفل ان يتحرك وينشط ويعمل ، أى أن الطبيعة ذاتها تتطلب منه ذلك ، فعلى العائلة اذن ان تسهل له السبل وترتب له

الامور حتى يكون ذلك النشاط مسدداً الى غاية اجتماعية

لاشك فى ان اللعب هو من أهم ظواهر الطفولة . فلو كان فى استطاعة العائلة ان تسدد هذا النوع من النشاط إلى غايات معينة لخدمت الطفل خدمة لاتقدر ، اذ بذلك تزيده رغبة فى هذا النوع من النشاط ، لانه إذا كان الطفل بطبعه يرغب فيه حتى وان كان لايرمى الى غاية معينة ، فكم تكون رغبته وشوقه اليه كبيرين إذا كانت له نتيجة تعود على عائلته واخوته فى البيت .

ولتوضيح هذا نضرب مثلا ، من عادة الاطفال انهم يقلدون والديهم ، فاذا كان الأب يحترف حرفة معينة ويزاولها فى المنزل نجد ان الطفل فى ألعابه يحاول محاكاة والده فينشط فى اللعب مثلما ينشط أبوه فى العمل ، ويتخذ الحالات والأوضاع التى يتخذها أبوه : فكم يكون سرور الطفل عظيما وكم يعود عليـــه من الفوائد لو سمح له أبوه فعلا بأن يساعده فى أعماله بشرط أن لا يرهقه ارهاقا كبيراً ولا يحمله فوق مايستطيع ان يتحمل ؟

والطفلة فى المنزل تقلد أمها فى عمل القهوة والشاى والمرطبات . وتقلدها أيضاً فى تقديم هذه للضيوف . مع فرق بسيط وهو أن ضيوف الطفلة لايوجدون إلا فى مخيلتها ، وليس هذا فقط بل تقلدها أيضاً فى غسل الملابس ولبها وفى تنظيف الصحاف وفى ترتيب الأثاث وفى الطبخ والعناية بالأطفال ، وهكذا الى أمثال هذه الامور التى لاتنتهى عند حد

فلو كان للعائلة من الملكات العقلية وحسن السياسة والنفاذ الى بواطن الأمور مايساعدها على استثمار هذه الميول فى الاطفال ، لكانت خدماتها لهم أكثر مما يظن الوالدون ، لأن اشتراك العائلة كلها فى عمل واحد ولغاية معينة واحدة مما يساعد على ايجاد الميول الاجتماعية الايجابية فى الاطفال . وغير ذلك ان هذا الاشتراك فى العمل هو مما يؤكد وحدة العائلة ويساعدها على التعاون فى قضاء مصالحها المشتركة

والاطفال فى الواقع يسرون عندما يشعرون انهم يخدمون عائلاتهم ، فكما ان الطفل يسر ويفرح للخدمات التى تؤديها العائلة له ، كذلك هو يسر ويفرح أيضاً عند مايشعر أنه يخدم عائلته ، وخصوصاً متى علم ان خدماته لها كانت من الاهمية بمكان عظيم وانها من أسباب تقدم العائلة ورفاهيتها ، ومجلبة لسرور الاب والام وراحتهماواقرارهما بالجميل للطفل . ولقد عرف المؤلف شابالايعمل شيئا من دون ان تساعده طفلته التى لاتتجاوز الحولين ، فهى تساعده فى ارتداء ملابسه صباحا ، وتحمل له الحذاء واحدة واحدة ثم الجوارب ثم كل ما تستطيع الوصول اليه من الملابس والاشياء

وثمة مكان آخر من البيت حيث تستطيع العائلة كلها ان تتعاون ، وهذا المكان هو المطبخ ، ففى هذا المكان يستطيع ان يتكاتف الجميع على القيام بمطالب العائلة كلها من طبخ وترتيب المائدة وغسل الاوعية ، وعلى الوالدين ان يجربوا هذه الطريقة وانا الكفيل بأن الأطفال يسرون لمعاونة العائلة فى أعمالها ، فليدخل الاب والام سوية الى المطبخ ويشتغلان فى تنظيف الأوعية ، وسوف يريان ان الاطفال يصرون على معاونتهما فى هذا العمل معاونة فعالة ومنتجة ، وسوف يرون أن تلك المعاونة تلقائية بدافع من اللذة والشوق

وفرق بين ان يتعاون الاطفال مع والديهم وبين أن يسخروا لأداء الواجبات التى لايريد الوالدون ان يفعلوها بأنفسهم . فرق كبير بين ان يكون الاطفال عبيداً أرقاء وبين ان يكونوا شركاء والديهم فى مسئوليات الحياة . ويحسن بالوالدين أن يتنبهوا لهـــذا الفرق ، لان فى التعاون عنصرا ضرورياً لكيانه لايوجد فى النوع الآخر من الخدمات ، وهذا العنصر هو اللعب ، فالعائلة التى يتعاون افرادها تشبه فرقة رياضية تتكاتف لاحراز الفوز وبلوغ الغاية ، وهذا مايسميه الانجليز فى لغتهم القيام بشروط اللعبة Playing The Game أما اذ لم يقم الافرادبقسطهم

فى هذا العمل يكونون ناكصين على أعقابهم مهزومين Not playiug The Game

فالأطفال بطبيعتهم يرغبون فى التعاون مع العائلة وعلى البالغين ان يتعاونوا معهم حتى تصير العائلة وحدة اجتماعية ديموقراطية حقاً ، أما اذا لم يفعلوا فانهم يكونون بيروقراطيين ، وفى النظم البيروقراطية تقوم الاغلبية على خدمة الاقلية ولست أريد ان أوغل فى شرح اضرار النظام البروقراطى فى العائلة . إذ يكفى ان نقول فيه أنه رق وسخرة وليس تعاوناً وتكاتفاً

إذا سارت العائلة على نظام التعاون بين افرادها كبارا وصغارا فليس يعقل ان ينشأ أطفالها فرديين لابل سوف تزول آثار هذه الفردية الممقوتة التى تعرقل سير الجماعات عندنا . ففى طبيعة الاشياء ان الفردية لا تستقيم والنظام التعاونى فى أى مجتمع ، وحيث وجد أحدهما لابد وان لايوجد الآخر ، والعائلة هى الركن المكين لأحدهما ، فهى التى توجه ميول الطفل الى هذه الناحية أو الى تلك ، وعلى الجهة التى تستطيع ان توجه الطفل اليها يتوقف مصير الطفل نفسه أولا وجزء كبير من سعادة العائلة ثانياً ثم عليها أيضاً تتوقف سلامة الجماعة العامة أخيرا

والآن بعد ان فرغنا من بحث الفردية نعود الى ما كنا فيه فنورد بعض الحالات الاخرى التى اعترضت المؤلف فى سيره ، وسوف يدل على نوع العلاج الذى استخدمه فى تطهير نفوس الصبيان من أثر هذه النقيصة ، ليس هذا فقط ولكنه سوف يكون علمياً فى طريقة ايراده لهذه الحالات ، فان يتستر على الفشل اذا كان قد اصاب علاجه فى بعض الحالات ، لأن الغرض من هذا الكتاب هو الخدمة والمنفعة العامة ، وليس غرضه تبرير وجهة نظر معينة

الفصل الثالث

مزاج طارىء

من عادتنا فى قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية ان نقيم حفلة ايناس فى كل اسبوع تقريباً يشترك فيها أكبر عدد ممكن من الصبيان . ولا نسمح لهم أن يلعبوا كافراد بل نحضهم على أن ينضموا للجماعة ويشتركوا معها فى ألعابها

حدث أننا كنا نلعب هكذا . وكان ثمة كرة متروكة فى الملعب . وإذا باحد الصبيان يتركنا ليلعب بها بمفرده من غير ان يلاحظ شعور الجماعة وكان الصبى نفسه يحب ان يلعب معها لأن العابها كانت لذيذة حقاً . ولكنه فردى ، يحب نفسه ويحتقر الجماعة نوعا . فتدفعه فرديته ليلعب بمفرده ويهمل الشلة . وتجذبه ضحكات الجماعة وقهقهاتها فيرجع ليرى ماهى فاعلة . طلبه الصبيان ليلعب معهم فرفض ليس لسبب إلا لأنه يريد ان يشذ عن الجماعة ، يريد ان يقاومها حباً فى المقاومة لاغير وهذا روح ردىء . يضر بالصبى ضرراً بليغاً ويزيده امعاناً فى الاستهتار بالهيئة التى ينتمى اليها

ومن واجبى كمرب ان أنتزع مثل هذه الفردية البغيضة بكل الطرق الممكنة ، أما إن لم أفعل هذا فقد فشلت فيما أنا آخذ فيه

طلبت اليه ان ينضم اليهم ليلعب معهم . فاعتذر بمرضه وضعفه وأنه لايستطيع ان يلعب بل يحب ان يجلس ويراقب ، وهذه فردية لاغش فيها ، لأن ماتفعله الجماعة لم يكن أشق مما كان يفعله هو ، هم وقوف يراقبون ويضحكون ، أو يشتركون فى الحركات البسيطة المضحكة التى كانت تتطلبها اللعبة . أما هو فقد كان يقفز ويجرى وراء الكرة ويقذف بها الى المرمى كل هذا سهل عليه مادام

يلعب بمفرده . واما اذا كانت تريد منه الجماعة ان يشترك معها فهو مريض وضعيف ولا يستطيع الحركة

هذه هى الفردية بعينها تلك الفردية التى تقتل كل نزعة اجتماعيـــة فى البيئة المصرية . وهذه النزعة بالذات هى مايجب ان تقاوم بكل الطرق المنظمة . لأن الاستهانة بالجماعة حباً فى الاستهانة بها شىء كريه بغيض وهو كالسوس ينخر فى عظام الجماعة كلها ويزيد الافراد جراءة عليها فلا يعودون يقيمون لها وزنا

ولم أر هذا الصبى لمدة خمسة أيام بعد ذلك لأنه على مايظهر شعر أنه أتى أمراً منكرا فلم يعد يستطيع مواجهتى . فانقطع عن الحضور لقسم الصبيان طول هذه المدة مع ان من عادته ان يمر كل يوم ليلعب بعض الساعة ثم يذهب الى بيته للدرس والمطالعة

وقبل ان ابين ماتبعته معه ومافعل هو بعد ذلك يحسن بى ان أقول كلمة عن ذلك الصبى لأن له حالة خاصة يجب ان نوضحها بعض الشىء

هذا الصبى حسن البزة والهندام . مقبول شكلا فى مجموعه . وقد كان الأول فى فرقته فى المدرسة التى كان يتعلم فيها . ثم كان متفوقا فى الالعاب الكثيرة فى قسم الصبيان وقد أتى عليه يوم كان فيه بطـــلا للعبة كرة الطاولة (بنج بونج) لكل جمعية الشبان المسيحية بقسميها للرجال والصبيان واذا كان القارىء يعلم ان الجمعية تضم حوالى ألف عضو من الرجال والصبيان . فقد يعلم مبلغ تفوق هذا الصبى فى تلك اللعبة . ثم كان متفوقا أيضاً فى الالعاب الكثيرة مثل التنس الصغير والكرة الطائرة والكارومز والكروكية . علاوة على أنه كان رئيس فرقة كرة السلة فى قسم الصبيان . وأكثر من ذلك فانه قد نال معظم الجوائز التى قدمتها المباريات العامة

يصعب جداً مع صبى هذه حاله ان لايأخذه الغرور ويشعر أنه افضل ممن عداه ، لانه يندر ان تجتمع كل هذه المميزات لصبى واحد . ولكنها اجتمعت

كلها له . فلا يعجب الانسان فى الواقع للادعاء والغرور أن يتسربا لنفس هذا الصبى . ولكن الادعاء والغرور عارضان سوف يفسدان عليه حياته ان لم يجد من ينقذه منهما بطريقة من الطرق ، ولست فى الحق اقسو عليه لانى أحبه وأفتخر به وأعجب لكل هذه الميزات التى امتاز بها عن جميع الأعضاء من قسم الصبيان . لست اقسو عليه اذن لانى أعلم مايتعرض له أى فرد آخر فى مثل حالته ، ولكن هذا لم يكن ليثنينى عن ان احاول معالجته بكل طرق التربية التى أعرفها

ولنرجع الآن الى ماتم فى أمره . فانه حضر بعد غياب خمسة أيام متوالية ، ولما رآنى عن بعد حيانى بحرارة فرددت تحيته بحرارة أيضاً . ولكنى لم أفعل أكثر من ذلك . ولم افاتحه فى الموضوع مطلقاً فى هذا اليوم ، بل انتظرت لارى مايكون من أمره وبينما كنت واقفاً أتحدث مع أحد الصبيان تقدم الى هو ورجانى أن أحضر لعبتهم فى كرة السلة قائلا « يعقوب افتدى هلم وانظر كيف نلعب بروح رياضية حسنة وكيف أننا نخضع لأوامر الحكم من غير تذمر . هلم لتريك كيف نلعب على مقتضى قواعد الاخلاق » فاظهرت استحسانى لهذا وجلست على مقاعد الملعب الرياضى أراقبهم

ويحسن ان انبه هنا الى ان الحكم الذى اختاروه للقيام على شئون اللاعبين فى هذا اليوم هو صبى يفهم قواعد اللعبة . وكان أصغرهم سناً وجسما . ولكنهم لعبوا كرجال حقاً فلم يتذمر لاحكامه أحد مع انه كان يخطىء مثل باقى الحكمين الرياضيين ، ولكنهم كانوا يتقبلون أحكامه عن طيب خاطر ومن دون اعتراض وانتهت اللعبة على هذه الحال ، ولم أفاتح الصبى فى الموضوع

وفى اليوم التالى — أى بعد أربع وعشرين ساعة — كنت جالساً فى حديقة الجمعية فمر على هذا الصبى ودعوته الى الجلوس لنتحدث قليلا ، فجلس وطلبت له بعض المرطبات . ورجعنا الى موضوعنا الاصلى . فسألته لماذا كان فردياً بهذا

الشكل القبيح فى ذلك اليوم . وتحدثت اليه عن هذه الفردية واريته كيف انها من الخصال التى لاتتفق ومعيشة الانسان فى الجماعة . وبينت له وجه الفردية فى تصرفه هذا

ولست أعلم على التحقيق لماذا ذهب يقص على حياته كلها فى ذلك اليوم ، ولكن سواء أكانت الصدفة هى التى دفعته الى شرح مامر عليه فى يومه ذاك أم كان ذلك لداع آخر خلاف الصدفة . أقول سواء اكان هذا أم ذاك فقد كنت موفقا فى هذه اللحظة . فقادنا الحديث الى هذا الموضوع . لان معرفة مايحيط بالصبى من الظروف والبيئة والعوامل الأخرى من أهم الامور فى التربية الاخلاقية . ولا يستطيع المربى ان يكون ذا أثر فى مجرى حياة الصبى من دون ان يعرف مايحيط به ومن دون ان يعرف ظروفه الخاصة والعامة ماله علاقة مباشرة بحالته الخاصة وما ليس له علاقة مباشرة بتلك الحالة ، وهذا بالذات مايفعله أطباء النفس والعقل (Psychiatrists) عند مايزمعون معالجة حالة ما ، فانهم يشجعون المريض على ان يتحدث اليهم بما يجول فى خاطره مهما كان حتى وان لم يكن لهذا الحديث غاية معينة ، وفى اثناء الحديث يكتشفون علة المريض لان مايربك عقله ويثير منه الشجون والعواطف لابد وان يجد منفذاً من حديثه ، وبمعنى آخر لابد ان تظهر العلة الأصلية سواء أكان المريض يريد هذا أو لايريده

أقول ان الصدفة خدمتنى فى هذه الساعة فبسط الصبى لى حالته فى يومه كله ، والحق ان له العذر وان كان هو لايدرى ذلك ولا يشعر به ، واليك ماا كتشفته من العوامل التى قلبت مزاجه فى ذلك اليوم . قال : « نهضت فى يومى ذاك — وكان يوم الجمعة الطويلة — وذهبت الى الكنيسة الساعة الثامنة صباحا ، ومكثت هنالك الى الساعة الخامسة بعد الظهر احضر القداس والصلاة ، وكنت صائما طول يومى كالعادة عندنا فى العيد . وعند تمام الساعة الخامسة شربت خلا ممزوجا الى مر

على مثال مافعل المسيح عند صلبه ، وبعد ذلك رجعت الى البيت وافطرت ، ثم حضرت الى قسم الصبيان مباشرة .

هذا تاريخه فى ذلك اليوم ، والحق اقول انى لما سمعت به ثارت نفسى فى داخلى عطفاً على ذلك الصبى ، والتمست له كل الاعذار فيما فعله وفيما أظهره من الفردية الممقوتة . الحق انى اعجب جداً لحالة عائلاتنا ، كيف أنها تسمح لصبى مثل هذا فى الثانية عشرة من عمره ان يصوم اليوم كله — يصوم على الطوى — ثم يفطر على خل ومر ! لست أرغب فى المجادلات الدينية ، فليس لها موضع فى هذا الكتاب . ثم لست اسمح لنفسى ان تقوم مقام أرباب الدين فى هذه المواضيع ، لست أسمح لها أن تدعو الى هذا النوع من الصوم أو الى ذاك ، ولكن لايسعنى هنا بصفتى من المهتمين بالصبيان الا ان اعترض على هـــذا الأمر ، اذ ليس من المستطاع أن يعامل الصبيان على هذا المنوال من غير أن يكون لذلك أثر سيء فى أبدانهم وأمزجتهم ، وقد يدوم هذا الأثر السيء وقد لايدوم ولكنه مع مايتراكم عليه من الاخطاء الاخرى التى تقترفها عائلاتنا فى تربية الاطفال لابد ان يكون له اضرار باقية

عندما علمت بذلك اشفقت عليه وأخذت غلطته تصغر فى نظرى وتقل اهميتها وكدت انهى الحديث عند هذا الحد . ولكنى قلت له على سبيل المزاح أنه يحسن به أن يختار لنفسه عقاباً يتناسب مع فرديته التى ظهر بها فقال « اطردنى من النادى شهرين » فقلت هذا عقاب شديد جداً ولا يجوز ان يوقع على هفوة صغيرة كهذه ، فقال « اطردنى ثلاثة أشهر » ولاحظت أن نفسه ثائرة فى داخله وأنه يتحدث وهو مدفوع بعواطف حادة تجيش فى صدره ، ولم أدر لذلك سبباً ولكنى شعرت أن المسألة لا يمكن أن تنتهى وهو فى هذه الحالة . لابل قد تتطور المسألة وتتعقد الامور ، وقد يبدر منه وهو فى هـذه الحالة ما قد يضطرنى لأن

اعاقبه عقاباً شديداً لا يتفق وذنبه . وعد فليس هـــذا هو الظرف الموافق (Pschological Moment)وليست تنفع المعالجة فى هذه الحالة . فصرفته على أن يمر بمكتبى عندما يزمع الذهاب الى البيت

فذهب وانضم الى رفقائه ولعب معهم كرة السلة واغتسل فى الدوش البارد . ثم عرج على مكتبى يسألنى هل أريد أن اتحدث اليه بشىء. فدعوته وجلسنا نتحدث ورجعنا الى ما كنا فيه . وبسطت له الامر واظهرت تعجبى لتطور المسألة الى هذا الحد وأنه عندما حكم على نفسه بالطرد شهرين أو ثلاثة لم يكن يراعى العدل مع نفسه بل كان يتحدث بشكل ينم على ثورة فى نفسه . وقلت له انى فى جهل تام بمنشأ تلك الثورة .ثم اظهرت استعدادى لمساعدته فى حالته هذه وطلبت اليه أن يتحدث الى بصراحة

وخرجنا بنتيجة لم تكن متوقعة بالمرة — خرجنا من هـذه الحالة مقتنعاً انى أنا ايضاً ملوم . وانى لم أكن متنبهاً الى واجبى واليك التفصيل

كان قد حدث منه حادث مثل هذا لا اذكره . وكنت قد افهمته غلطته هـذه واظهرت استعدادى لمسامحته فيها . ثم قلت له انى لا اكره من الصبى أن يخطىء لأن هذا من حقه ، ولأن الاخطاء ليست مما يستدعى المداراة أو المكابرة — بل تستدعى العدل والقصد فى تقليلها على كل وجوهها ، وانى فى مركزى هذا مستعد لمساعدة الصبيان فى التخلص من هـذه النقائص . ثم قلت له أنه عندما يرتكب هفوة مثل هذه عليه أن يجول بعينيه فى الجماعة ليرى أين أنا ، وانه سيرانى اضحك لغلطته . فان شعر انه مخطىء حقاً فليضحك هو ايضاً ! وأما أن شعر أنه لم يخطىء فليأت الى مكتبى ليقول لى أنه لم يخطىء وأنه يستطيع أن يبرر تصرفه

كنا قد اتفقنا على هذا ، وكنت قد نسيته ، فلما ظهرت فرديته فى هـذه المرة غضبت أنا ولم اعطف عليه فى غلطته ، بل ظهرت بمظهر القاضى الذى لا يهتم بظروف الجانى ، ولا يحد له من ظروفه وحالته النفسية مايشفع فى ذنبه : فلما رأى منى هذا

تألم : وظنني حقدت عليه وانوى أن انزل به عقاباً صارماً

وقر هذا فى نفسه أن خطأ أو صواباً : فتوترت أعصابه ووطن النفس على استقبال العقاب ايا كان : فلما ذكر الشهرين والثلاثة كان يحاول أن يترجم عما شعر أنه يدور فى قرارة نفسى انا

وأما من حيث الغلطة نفسها فقد شعر بها وعبر عن شعوره هذا بقوله أنه كان يجب عليه من أول الامر أن ينضم الى الجماعة فى العابها : وانه لم يستطع أن يجد مبررا لتصرفه : فهى غلطة على أى حال : ولا يدرى لها سببا

بعد ان وصلنا الى هذا الحد لم يبق أمامى الا أن اعتذر عن نسيانى لوعدى السابق : وعاتبته لأنه لم يكن صريحاً ولم يذكرنى بوعدى ويعتذر عن فرديته التى ظهر بها أمام رفقائه

وانتهينا من كل هذا على انه سوف يحاول أن ينقد نفسه بنفسه فان اخطأ فى حق رفقائه سوف يأتى من تلقاء نفسه ويدل على اخطائه كى أعلم أنه لنفسه بالمرصاد يحاسبها على هفواتها حتى تنمو وتسمو وتستطيع أن تحقق مثلها العليا

وافترقنا على هذا التفاهم المتبادل ولست ازعم أن هذا الصبى قد تخلص من فرديته وصار اجتماعياً . كلا . ولكنه شعر أنه اخطأ فى حق اخوانه فى هذه الحالة بذاتها وأنه سوف يحاول أن يصلح من شأنه فى مستقبل الايام . ولست أشك فى أنه سوف يخطىء مرة ثانية وثالثة . ولكنى أعلم أيضاً انى لمثل هذه الغلطات بالمرصاد . وأنى سوف اسلك معه نفس الطريقة فلا اسمح للشخصيات أن تتسرب الى شئوننا فتفسدها

ولست اقتصر على الامور السلبية فقط . بل سوف أحاول أن اضعه فى ظروف تتطلب منه أن ينشط من أجل الجماعة التى ينتمى اليها وسبيلى الى ذلك الملعب الرياضى وحفلات الايناس وغيرها كثير

الفصل الرابع

مرض نفسي

من عادتنا فى الأجازات المدرسية ان نذهب الى رحلات كثيرة وان نصرف طول اليوم فى احداها . وفى الحق ان هذه الرحلات هى احدى السبل الفعالة فى اكتشاف بعض النقائص الاخلاقية فى الصبيان . تلك النقائص التى يصعب اكتشافها عن طريق آخر ، فلنا فى هذه الايام التى نقضيها مع بعضنا خارج المساكن وفى الخلاء فرصة ثمينة لمعالجة تلك النقائص ولايكون علاجنا لها بالوعظ أو بالكلام بل بتسديد نشاط الصبيان الى غاية معينة من غايات الاخلاق

وفى هذه الرحلات نأخذ غذاءنا معنا . فكل صبي مطالب بأن يحمل طعامه من منزله ، وفى عصر اليوم نعمل الشاى ونوزعه عليهم . ثم نوزع عليهم أيضاً بعض الحلوى وذلك فى مقابل بعض النقود التى يدفعها الصبيان لهذه الرحلات ، ففى رحلاتنا الى القناطر الخيرية مثلا نكلف كل صبي ان يدفع ستة غروش ، منها أربعة ونصف اجرة السكة الحديدية وقرش ونصف لتكاليف الشاى ومايتبعه

ففى ذات يوم أعلنت العزم على القيام برحلة الى القناطر الخيرية ، وطلبت الى من يريد من الصبيان ان يحضر من والديه قيمة الاشتراك فى هذه الرحلة ، وكان أول من دفع هذا المبلغ صبي لايتجاوز الثانية أو الثالثة عشرة من عمره وكان فردياً ممعنا فى فرديته . والظاهر أن من عادته التى درج عليها فى حياته الاولى أنه لايقيم وزنا لجماعة يوجد فيها ، وذلك ظاهر من تصرفه مع الصبيان ، لأن كل ماتريد الجماعة ان تفعله معيب فى نظره ويجب ان يستبدل بشيء يرتئيه هو ، والحق ان الجماعة لم تكن تحبه مطلقا ، بل كانت تتألم لتصرفه معها وتتنكر لميوله نحوها

ومن الغريب ان أباه زارنى مرة فى مكتبى وتحدث الى بشئونه ، وأظهر رغبته فى منعه عن غشيان قسم الصبيان بحجة ان المدارس توشك ان تبدأ الدراسات ، وأنه لايحسن بالصبى ان يلعب فى اثناء السنة المدرسية ، واللعب فى اثناء الدراسة مضيعة للوقت الى آخر هذه الأسباب ، وعبثا حاولت اقناع هذا الوالد بخطأ هذه النظرية وبحاجة الصبى الى اللعب المنظم فى اثناء الدراسة ايضا ثم قلت له ان لنا غرضا آخر بخلاف تقوية ابدان الصبيان فنحن نقوم على رعاية اخلاقهم واصلاح مايمكن اصلاحه منها . وان السبيل المؤكد الى الاخلاق هى الالعاب بأنواعها ، وخصوصا تلك الالعاب التى تتطلب الجماعات . فما كان من هذا الوالد إلا ان قال « أما من جهة اخلاق ابنى فلا تقل شيئا ، انى على يقين من متانة اخلاقه ، الحمد لله ابنى رضى الاخلاق » وقد كان ماأراد وانقطع الصبى عن قسم الصبيان الى وقت كتابة هذه السطور

ولنرجع الآن الى ماكنا فيه فنقول ان هذا الصبى كان أول من بادر بقيد اسمه لهذه الرحلة ودفع مصاريفها المعتادة ، وكان ذلك قبل موعدها ببضعة أيام وفى ذات يوم طرق هذا الصبى باب مكتبى وقال أنه يريد ان يتحدث الى قليلا فوضعت ماكنت أشتغل فيه للتو والساعة وأظهرت استعدادى وميلى للتحدث اليه لأن التحدث الى احد الصبيان فى نظرى أهم مما عداه من الاعمال ، ثم جلس فى مقعد أمامى ودار الحديث بيننا على هذا المنوال ، وكان هو البادىء

— ماهو موعد الرحلة ؟

— فى يوم كذا الساعة كذا ، ويحسن ان نجتمع كلنا فى هذا المكان ونذهب سوية الى المحطة

— ولكن أنا ساكن فى شبرا ، ولست أجد داعيا للحضور الى هذا المكان (والجمعية تبعد عن محطة السكة الحديدية بمسيرة ثلاث الى خمس دقائق)

— لك ذلك ان شئت ، ولكنى افضل ان نذهب جميعا من هنا . وعلى كل فالامر سيان عندى

ويلاحظ القارىء ان هذه احدى مظاهر الفردية فى هذا الصبى لأن من يقطنون شبرا كثيرون ، ولم يطلب احدهم مثل هذا الطلب ، فهم يفضلون ان يسيروا مع الجماعة ولكن هذا المظهر من مظاهر الفردية ليس ذا أثر كبير وشعرت أننى استطيع ان اتساهل فيه ، ولكنه عاد فقال

— حسن اذن فسآتى الى المحطة مباشرة

— أنت وماتريد

— وثمة شىء آخر أريد الاستفهام عنه ، وهو هل تصرح لى بأن أركب حماراً من محطة القناطر إلى حدائقها ؟

— أظن لايحسن بك ان تفعل هذا

— ولماذا لايحسن ذلك ؟

— لعدة أسباب ، منها انكم مضطرون فى حياتكم المدرسية لأن تجلسوا طوال يومكم الى أسابيع وشهور ، فلا يحسن فى مثل هذه الرحلة ان تهملوا رياضة أجسامكم ، أنه لافضل لكم فى مثل هذا اليوم أن تسيروا على الاقدام وتكدوا أجسادكم حتى تساعدوا الدورة الدموية على الانتظام

— معقول — واذن فستصرح لى بأن أركب فى العودة من الحدائق الى المحطة

— ولا أستطيع أن أصرح بذلك أيضاً ، فليس هذا فى امكان كل الصبيان من الوجهة الاقتصادية ، وأنا نفسى كنت أحب أن أركب عند العودة ، ولكن لان بيننا من لايستطيعون ان يصرفوا أكثر مما صرفوا ، لايحسن بنا ان نستمتع نحن ونترك الباقين يلعنون حظهم ويسخطون على الاقدار التى لم تسعفهم بالوسائل الاقتصادية كما اسعفتك واسعفتنى

— طيب وانا مالى بالبقية . نتركهم وشأنهم ، من استطاع منهم فليركب ومن لم يستطع ذلك فليمش

— كلا ، لابد ان نفعل مايفعلون من باب المجاملة والانسانية على أقل تقدير .

— اذن أركب أنا وحدى ، وتسير أنت مع من يسيرون

— لايجب ان يكون لك وحدك شأن غير شأن الجماعة كلها

— ولماذا ذلك ؟ أنا لاأرى الحكمة فى هذا

— هذا يقودنى الى السبب الثالث : وهو أنك ذاهب إلى القناطر مع جماعة ولست منفرداً ، فماتفعله الجماعة يجب أن تفعله أنت . فللجماعة روح ، ولها كرامة وعزة نفس : ولها أيضاً مطالب قبل الفرد . فيجب على الفرد أن يقوم بمطالب الجماعة كلها بفرح ورضى : فليس افعل فى نفوس الجماعات وادعى الى غضبها وسخطها من شذوذ الافراد ، ولا يحسن بك أن تشذ

— سأفعل ذلك اكراماً لك أنت وليس للجماعة

— كلا : يجب أن يكون ذلك من أجل اخوانك : لانه سيان عندى أن تركب حماراً أو سيارة أو طيارة

— سأفعل حسب ماتشير ، ولكنى ألاحظ ان المبلغ الذى حددته صغير جداً ، فماذا تستطيع أن تفعل بستة قروش وأجرة السكة الحديدية أكبر من ذلك ؟

— كلا ان اجرة السكة الحديدية أربعة قروش ونصف فقط

— إذن ستذهبون فى الدرجة الثالثة

— هو كذلك

— لا لالا . أنا لاأستطيع أن أذهب فى الدرجة الثالثة مطلقاً . هذا كثير على ، أرجو أن تصرح لى بأن أذهب فى الدرجة الثانية

— إنى آسف جداً ، لاأستطيع ذلك مطلقاً

ـ ولماذا ذلك إذا كان فى استطاعتى أن أدفع التكاليف؟

ـ ليست التكاليف هى أهم مافى الموضوع . وانما أهم مافيه على الاطلاق هو الجماعة . وانت لست تفضل أيا منهم : فكما تفعل الجماعة يجب ان تفعل انت أيضا من دون اعتراض أو تذمر

ـ وأنا مالى ومال الجماعة ؟

ـ إذن لماذا تريد ان تذهب معها ؟ لماذا لاتذهب فى يوم آخر ولماذا التحقت بهذا القسم أصلا ؟ أليس لأنك تريد ان تكون مع جماعة من سنك وبيئتك ؟ اذن يجب ان يكون حكمك حكمها : وما تقبله هى يجب أن تقبله أنت

ـ إذا كان الأمر كذلك فلن أذهب معها الى القناطر

ـ لك ذلك ان شئت وسأرد لك مادفعته

ـ طيب اسمح لى أن أسأل سؤالا آخر

ـ تفضل

ـ هل تصرح لى بأن حضر معى الشاى والحلوى من البيت ؟

ـ ولماذا ذلك ؟ سنقدم لكم الشاى والحلوى هناك

ـ أنا لاأحب الشاى الذى تصطنعون ؛ والحلوى التى تجلبون

ـ وما عليها ؟

ـ أنا لاأحبها والسلام

ـ حكمك فى ذلك أيضا كحكم الجماعة ؛ فما دامت الجماعة تريد أن تصطنع الشاى هناك فلا بد وان تشربه كما نشربه نحن

ـ وحتى هذا أيضا لاتصرح لى به ؟

ـ وحتى هذا لاأصرح لك به

ـ إذن فسامحنى إن لم أستطع الذهاب

— لم تخطئ في حق ؛ فلا داعي لأن تستسمحني : هاك مادفعت

للقارىء الحق في أن يعجب لهذه الحالة : لانها من أروع مامر علي في طبائع الصبيان : ولكني أصرح أن هذا الحديث يكاد يكون صورة طبق الأصل لما حدث : فلم أغال أو أبالغ مطلقا في تصوير هذه الحالة بذاتها ؛ لابل اكاد أقول أنها مقتضبة جداً ؛ لأن الحديث استغرق ساعتين بتمامهما من غير نقص أو زيادة

قارن هذا بما قاله الأب من ان أخلاق ابنه والحمد لله ليست في حاجة الى التقويم أو الاصلاح ، ثم أحكم بعد ذلك على معايير الاخلاق عندنا ؛ وهل هي شيء سلبي محض أم لها وجهات إيجابية لاتتم من دونها؟ الحق انى أشهد لهذا الصبي بالامانة مثلا ؛ وذلك لانه لم يسرق شيئاً مطلقا من جيوب أقرانه ؛ أو بالحرى لم يصل الى علمي شيء من هذا مطلقا ؛ ثم انى لم أسمع مرة أنه ارتكب احدى القبائح ؛ ولكن ما رويته هو احدى مظاهر حياته الاخلاقية ؛ فما حكم القارىء الآن ؟ هل الناحية السلبية من الاخلاق هي كل مافي الأمر؟ أم هل هناك أوجه ايجابية يجب توافرها في الفرد حتى نستطيع ان نقول انه على أخلاق متينة ؟

أما نحن فاننا نذهب الى ان الوجهات الايجابية في الاخلاق هي أهم مافيها ؛ وانه اذا لم تتوافر هذه فلا نستطيع ان نزعم ان اخلاق الانسان فاضلة ؛ فالاخلاق في رأينا نوعان وهي صالحة أو طالحة . أما انها محايدة فلا . لأن هذه لاطعم لها ولا لون ؛ حقا انها لاتفعل الشر ؛ ولكنها لاأثر لها في الخير أيضا ؛ ولا يصح ان نفهم من الاخلاق هذا فقط . أما لو فهمنا ذلك لجاز لنا ان نزعم أن للحيوان أو للأحجار اخلاقا

فالاخلاق اذن صالحة او طالحة . فان لم تكن أحد الامرين فهي الآخر بطبيعة الاشياء . والنقائص الاخلاقيـــة هي نقائص اخلاقية على أي حال سواء أكانت سالبة أو موجبة . وفي رأينا ان اخلاق الفرد رديئة اذا عمل الشر ، وهي

رديئة أيضاً إذا امتنع عن عمل الخير . ذلك هو ما نفهمه منها ، وهذه هى المعايير التى نقيسها بها . ولا نستنكف ان نغير أرائنا عند الاقتضاء.

وعلى هذا القياس فنحن نزعم ان أخلاق هذا الصبى الذى رويتا حالته فيما تقدم غير حسنة . فهو يحتاج الى الاصلاح والتعهد حتى يتخلص من داء الفردية الذى أخذ بنفسه بشكل قبيح . ونحب لو عاونتنا الآباء فى هذا . والحق ان كثيرين منهم قد عاونونا كما سنورد فى الصفحات التالية . أما فى هذه الحالة التى نحن فيها فلم نحصل على المعاونة التى كنا نستحقها فقد اضطره والده ان ينقطع عن قسم الصبيان ويكب على دروسه ، وعسى ان يكون قد نجح فى دروسه . وحقق أمل والده فيه

لم يذهب الصبى الى الرحلة كما تقدم . أو على الاصح لم يذهب معنا لأننا عندما وصلنا الى حدائق القناطر وجدناه هنالك وكان — حسب قوله — قد أتى على عجلة من القاهرة . ومن غريب الامور ان الصبيان لم يأبهوا له ولم يجتمعوا حواليه كما كان يظن . لا بل قابلوه مقابلة فاترة جدا . فما عتم ان انصرف الى حال سبيله . ولم نعد نراه فى يومنا هذا

وفى ثانى يوم حضر الى قسم الصبيان ورجانى ان لا أكون قد تأثرت من ذهابه الى القناطر بعد أن كان قد انسحب من الرحلة . فافهمته أنى لم أتأثر البتة لذلك . وانما كان تأثرى لأنه أراد ان يشذ عن الجماعة التى ينتمى اليها

وقد لاحظت عليه فى الايام التالية أنه لم يكن هادىء البال قرير النفس كما يجب . وأنه كان يسارع الى الاستماع الى كلامى وكان يبادر للاشتراك فى الحياة الاجتماعية فى القسم ، ومع أن فرديته كانت تظل تتطلب الظهور ، الا أنه كان يتغلب عليها فى كثير من المواضع . ولكنى لم استطع ان استقصى ابحاثى الى أكثر من هذا الموضع لأن المدارس فتحت أبوابها بعد ذلك بأيام قليلة وانقطع هو عن الحضور انقطاعا تاما

والنتيجة التى استخلصها من هذه الحالة بذاتها ، هى انى لم أصل الى نتيجة يصح السكوت عليها . فلم أعرف هل نجحت أم لم انجح ، واقصد بذلك نجاحاً نسبياً موضعياً . لأنه لا يمكن أن يكون العلاج شافياً مانعاً دفعة واحدة وكل مانعلمه من اصول التربية الحديثة أن النجاح لابد أن يكون نجاحا موضعياً وأنه على المربى أن يظل يعالج الحالة بذاتها كلما ظهرت . اقول انى فى هذه الحالة بذاتها لا استطيع أن ارقب تقدم الصبي . فانه قد انقطع وذهب الى سبيله ، فلم اعد اراه : ولم تتح لى الفرصة الكافية لدرس اخلاقه ومعالجته كما كنت أروم وابغى

الفصل الخامس

فردية قبيحة

كنا فى رحلة اخرى فى جبل المقطم . وزرنا الخرائب التى تقع بعدالقلعة مباشرة ولست أدرى ما هى هذه الخرائب أو من بناها ولماذا بنيت . ولكننا كنا نبغى المسير فى شمس الشتاء المشرقة . ولم يكن لنا قصد من السير فى صخور هذه الجهة الا أن نعطى فرصة للطلبة ليروحوا عن نفوسهم خارج المدينة ، لأنهم كما يعلم الجميع مطالبون بان يقضوا حياتهم المدرسية أشبه بالمسجونين منهم بأناس يعيشون ويحيون . وكان اليوم عطلة لبعض المدارس ويوم كهذا يحسن بالطلبة أن يقضوه فى الخلاء لغير غاية سوى اللعب والمراح والاستمتاع بالهواء الطلق

وفى هذه الرحلات احرص على تقوية روح الجماعة . فلا اسمح لفرد مهما كانت مؤهلاته أو مركزه أن يعبث بهذه الروح لأى سبب من الاسباب . فيجب أن يشعر أنه فى جماعة لها عليه حقوق الجماعات على الافراد . وكثيراً ما يكلفنى هذا اتعابا جمة ومشاكل عدة . فاضطر لأن اصرف كثيراً من وقتى مع الفرديين الذين لا يشعرون بحقوق الجماعة عليهم . ولكنى احرص ايضاً على أن لا آخذ هذه الساعات من وقت الجماعة . فمتى ظهرت فردية أحد الصبيان بشكل يكاد يعبث بحقوق الجماعة استعمل سلطتى الادبية فى معظم الاحوال وسلطتى المادية فى القليل الشاذ حتى احمل هذا الفرد عل الخضوع لجماعته فى هذا الظرف الذى نحن فيه ، ثم افهمه عند سنوح أول فرصة لماذا فعلت ذلك

وعند التحدث اضع نفسى مع الطالب على قدم المساواة . فلا يكون هنالك آمر ومأمور . أو رئيس ومرءوس . بل صديقان لكل منهما ما للآخر من حرية

القول والفكر وأن وجدت فى أثناء البحث انى اخطأت فى بعض الامور لا اتحرج أو استنكف عن أن اقر بهذا الخطأ للصبي واعتذر عنه واشرح وجهة نظرى كأنى فى مركز المتهم أمام القاضى واعطى الحق للصبى فى أن يبين لى انى اخطأت فى كذا أو قصرت فى كيت لأن له حق محاكمتى على مسلكى معه ، كما انى لى الحق فى محاسبته على تصرفه معى أو مع الجماعة التى ينتمى اليها . كل هذه القضايا مفروغ منها فيما بينى وبين الصبيان الذين فى عهدتى ، ولا احتاج لتذكيرهم بها الا فى القليل النادر

كنا عشرة فى ذلك اليوم على جبل المقطم ، وكان فى زمرتنا صبى يبلغ الخامسة عشرة ، وهو تقريباً أكبر الصبيان الذين كانوا معنا ، ولكنه كان مضروباً بداء بلادنا فكان فردياً متنطعاً فى فرديته بحيث أنه كان دائما يكتشف فى نفسه وعلى حين غرة ميولا لا تتفق مع ميول الجماعة ووجدت نفسى مضطراً فى أحوال كثيرة لأن استعمل فن الكلام أو المنطق حتى اقاوم فيه هذه النزعة . وكنت انجح فى كل الحالات التى عرضت لنا قبيل عودتنا

فمثلا كانت الجماعة تقف فى مفترق الطرق وتحاول أن تقرر أيها تتبع . وبالطبع لكل منهم الحرية فى أن يتقدم للجماعة بما يرتأيه ، وله ايضا أن يدافع عن رأيه ويحاول جذب الآخرين اليه . ولكن عندما تقرر اغلبيتهم الذهاب الى ناحية معينة على الافراد الباقين أن يخضعوا وينفذوا ما تريده . وانا بصفتى مسئولا عن الجماعة كلها اتكفل بمن يشذ منهم وافهمه أنه لا يليق به أن يشذ والا فانه لا يليق لشرف الوجود فى وسط جماعة من الجماعات . وكان صاحبنا من الشاذين . لا بل كان أولهم . فكل ما قررته الجماعة لا يحسن لديه ، وظل يحتج ويتذمر ويشكو من جهل الجماعة ومن خطائها ، فكنت اسأله لماذا يظن ان الجماعة مخطئة فكان يقول لأنها مخطئة ليس غير وكان افضل لنا أن نفعل ما انصح به ثم بعد ذلك نذهب فى طريق الجماعة . وهذا بالطبع لم يكن ليرضينى أو يقنعنى منه فكنت احمله على الخضوع حملا بطرق الاقناع والود

ولا يتبادرن الى ذهن القارىء أن الجماعة كانت مستبدة به بأى شكل من الاشكال . ذلك لأنى معها ولو فعلت شيئا من هذا لكنت اقف فى طريقها كما أقف فى طريق أى واحد من الفرديين . ولكى ابين للقارىء جوهر النزاع بين روح الجماعة وروح الفردية اضرب مثلا مما حدث ، أرادت الجماعة مثلا أن تذهب لترى مدفع الظهر عند تمام الساعة الثانية عشرة ، وعلى هذا فقد ارتأت أن تلعب بعض الشىء الى أن يحين الظهر فتذهب لترى المدفع عند انطلاقه . وهذا أمر معقول لا يسع الانسان العادى الا أن يخضع فيه لرأى الجماعة ، ولكن الفردية تعارض ليس لأن الجماعة مخطئة ولكن لأن الفردية فى الواقع متعنتة ومتعسفة ليس الا ، وعلى أى حال هذا ما ارادته الجماعة . وأما هذا الصبى فقد عارض فى ذلك قائلا أنه يحسن بنا كلنا أن نلعب لنرى المدفع . ثم نعود فنلعب . ثم نرجع عند الظهر لنراه ينطلق

رفضت الجماعة بالطبع أن تستمع لهذا الرأى ، وقررت أن تنفذ رأيها فاحتج وعزم أن ينفذ رأيه وبدع الجماعة وشأنها ، ولكنى اعترضته وافهمته أنه يحسن به أن يخضع . وبعد بحث بينى وبينه خضع . وهكذا كنت تلاحظ فرديته فى أمور كثيرة لا حصر لها ولا عدد . وكنت اضطر كثيراً لمقاومة هذه الفردية القبيحة التى صارت عنصراً من عناصر اخلاقنا حتى كادت تودى بالحياة الاجتماعية عندنا ، وكما قلت سابقا لم يكن ثمة سبب قوى أو شبه قوى لهذا الفردى أن يشذ لأنه لا معنى مثلا فى أن تخرج الجماعة كلها من باب ويخرج هو من باب آخر ، أو تذهب هى الى جناح من هذه الخرائب ويذهب هو الى جناح آخر

ليس لكل هذه التصرفات الا سبب واحد . وهو أن الفردية تثور على الجماعة ولا تحب أن تخضع لها ، ولا يختلف اثنان فى أن هذه الظاهرة مضرة أشد الضرر بالحياة الاجتماعية على العموم وبالتعاون الاجتماعى والاقتصادى على الخصوص

لأنه من شرط التعاون أن يكون حكم الفرد كحكم الجماعة على السواء

وعند هذه النقطة يحسن بنا ان نكرر شيئا قلناه فيما سبق . وذلك لكى ندفع خطأ قد يعلق بالاذهان . قد يتبادر الى ذهن بعض القراء خطأ ان هذا قتل للشخصية وليس للفردية ، ولكن شتان بين الاثنتين . وهذه الحالة من أجل الحالات فى تبيين الفرق بينهما . فالشخصية (Individuality) كانت تستطيع فى هذه الحالة أن تجذب الجماعة كلها الى الرأى الذى ترتأيه . وحينئذ لم يكن لى أنا إلا أن أقبل وأسر لأن الجماعة اتفقت على رأى واحد . وكان هذا أيضا يوفر على مجهوداً لاطائل تحته صرفته فى معالجة الصبى وأما الفردية Iudviidualism فحكمها بخلاف هذا الحكم . فهى بطبعها تعجز عن اكتساب الجماعة الى صفها . لأن من طبيعة الفردية أنها لاتعطف على الجماعة ولا تحبها . وهذه الظاهرة متبادلة بين الفردى والجماعـــة . فليس بينهما شىء مشترك سوى الصراع والنضال على الحياة نفسها . وانتصار روح الفردية هو فى الواقع فناء لروح الجماعة . والعكس صحيح . ومن ثم كان الاختلاف . وكان عجز الفردى عن أن يكتسب الجماعة الى صفه . وعندما يعجز عن هذا الغرض يحاول ان يفسد على الجماعة أمرها ويحاول ان يقل من عزمها ويثبط من همتها ، ووظيفة التربية اذن هو تعهد الشخصية بالرعاية والعناية حتى تبلغ اقصى ماتبلغ ، ثم وظيفتها ايضاً ان تقاوم الفردية حباً فى خير الجماعة

كنت اذن فى صراع مستمر مع هذه الفردية طوال ذلك اليوم ، وكان يشهد هذا الصراع زميل اوربى ملم بأصول التربية كنت قد دعوته للذهاب معنا وكان ذلك الصديق يعجب لهذه الفردية المتأصلة فى نفس هذا الصبى ، وأذكر أنه قال « إذا كانت هذه هى المادة الخام التى تصطنعون منها رجال مصر فلا عجب ان يفشل عندكم كل مشروع للتعاون لأن فرداً كهذا فى جماعة ضعيفة كالجماعات

المصرية كاف لأن يفسد أى مشروع ترمع الجماعة ان تضطلع به »

وانتهى يومنا على أى حال . فعزمنا على الاوبة ، ويممنا شطر القلعة من جبل المقطم . وما كدنا نبلغ القلعة حتى خطر فى بال هذا الصبى ان يزور جامع محمد على فعرضت على الصبيان اقتراحه . فكان جوابهم أنهم تعبوا فى يومهم هذا ، وأنهم يرغبون فى العودة فقال الصبى « كلا لاأريد أن أعود الآن . ولماذا نعود الآن ولنا متسع من الوقت بعد انى أريد أن أتفرج على الجامع . ولابد ان أذهب اليه منفردا أو مع الجماعة »

ووجدت نفسى مضطراً لأن أفعل أحد أمرين . أما أن أرغمه على العودة ارغاما وقد اضطر لأن أستعمل القوة المادية لهذا الغرض وهذا يحل معضلتى أنا ويريحنى من البحث الممل معه . والقوة فى هذه الحالة لايقصد بها خير الصبى بأى وجه من الوجوه . بل تعود على المربى فتريحه من الصبى العنيد وتحل معضلاته وتسهل له الامور . فلا يعود الصبى يشذ ليس عن اقتناع ولكن خوفا من المربى فكرت فى كل هذا وقررت فى نفسى ان لا ألجأ للقوة بأى حال من الاحوال لانى لست هنا لأحل مشاكلى أنا بل مشاكل من هم فى عهدتى من الصبيان

ولم يبق أمامى الا أن أتركه لنفسه وأرجع مع الجماعة . وهذا أيضا غير سليم العاقبة لأنه فى عهدتى ولا يصح ان أتركه وأنا مسئول عنه ، ولكنى تركته على أى حال لأنى شعرت أنه كبير السن . ويستطيع ان يعود وحده خصوصاً وأنه كان قد سبق لحضر بمفرده الى هذه الجهة ، وبعد فنحن فى القلعة ذاتها ، أى أننا فى القاهرة ، فلاخطر عليه فيما لو تركته . وزنت كل هذه الامور ، فوجدت أن الافضل ان أنفذ للجماعة ماتريد وان أرفض معاونة الفردية على تحقيق غاياتها والتحكم فى الجماعة ، لهذه الاسباب جميعاً قلت له « حسنا ، ابق أنت ، وأدخل الى الجامع . ثم ارجو أن تعود بعد قليل لأنى أريد أن اطمئن عليك »

فقال سمعا وطاعة ، وذهب ثم عدنا

ولم ينته عملي عند هذه النقطة ، لأنه لما عاد الى قسم الصبيان دعوته الى مكتبي وباحثته كثيراً فى تصرفه ، وأريته وجه الخطأ فى تصرفه وكيف ان تصرفه كان محقراً للجماعة كلها . فرأى غلطته ، واعتذر عنها ، ووعد ان لايعود الى مثلها مرة اخرى ، وخرج من مكتبي على أحسن حال شاعرا أني صديق له أعطف عليه وأحاول مساعدته فيما يعرض له من المشاكل

ولا يظنن القارىء أن معالجة الصبيان تنتهي عند هذا الحد أو أنها بهذه السهولة والبساطة ، كلا ، لان رعايتهم تتطلب من المربي ان يكون على استعداد لمعالجة نفس الحالة عند ماتظهر فى ثوب آخر أو تتشكل بشكل جديد ، فاخطاء الصبيان لايمكن أن تقتلع وتزال بعملية واحدة كعملية البتر . لانه يعدان يعالجها المربي علاجا ما ، تراها قد ظهرت بشكل آخر وتراها تتطلب علاجا آخر وقد تظهر مرة ثالثة ، فيجب أن يلجأ المربي لنوع آخر من العلاج . فالمسألة اذن ليست سهلة هينة . بل هي شاقة وتتطلب من الصبر والاناة والتفكير والروية مايعجز دونه كثيرون من الاباء والمربين . وكثيراً ماأوشك صبري ان ينفد وان يتملكني الغضب ولكني كنت أحاسب نفسي حسابا عسيراً على هذا ، ولذلك فاني استطيع أن أصرح بأن المربي يجب أن ينقد نفسه أكثر مما ينقد تصرفات الصبيان ، لان كثيراً من حالات الفشل يعود اللوم فيها على المربي أكثر منه على الصبي . لقد وجدت ذلك بالاختبار المستمر ، واني اقدمه للآباء والمربين ليجعلوه موضوعا لدراساتهم وابحاثهم ، ولا أظنني مبالغاً اذا قلت أن تسعة أعشار النقائص الاخلاقية فى أطفالنا منشؤها عجز الآباء والمربين عن أن يلتفتوا لنفوسهم ليصلحوا من شأنها أولا

ولنرجع الى ماكان من أمر هذا الصبي بعد ذلك ، مر على هذه الحادثة مايقرب من الخمسة الشهور أو يزيد . ولم ألاحظ منه إلا تقدما مستمراً محسوساً فى هذه

الناحية من الاخلاق . فسررت . ووطنت النفس على معاونته فى سيره فى طريق الروح الاجتماعية . وكنت أشعر أنه أقرب الى من قبل وانه أسرع الى فهم أغراضى وما أرمى اليه عما كان أولا . كانت كل هذه الظواهر تشجعنى كثيراً . وكانت حالته من الحالات التى تجعلنى أشعر أن حياتى مع هؤلاء الصبيان لايمكن ان تذهب عبثا . كل هذه كانت تجول فى نفسى . وكانت من العوامل المشجعة لى على استمرار فيما أنا آخذ فيه . ولكنى كنت فى الوقت ذاته موطنا نفسى على ان لاأمعن فى التفاؤل فليس يصح ان يكون التفاؤل حمقا ولذلك كنت أحذر نفسى وأذكرها بمبدأى فى الفلسفة وهو ماأدعوه التفاؤل المستنير Moral Or Critical Optimism لان هذا الضرب من التفاؤل هو فى نظرى مايجدر بالمستنيرين والمفكرين . وبناء على هذا كنت ارقب التطورات فى نفس هذا الصبى

ولى فى هذا القسم مساعد شاب فى نحو العشرين من عمره ممتلىء قوة ونشاطا وعطفا على الصبيان وحبا لهم . وهو يعاونى معاونة جدية فى هذا العمل . واستطيع أن أركن اليه فى كثير من الحالات . ونحن دائما على اتصال وفى بحث وتفكير فيما يعود على الصبيان من كل وجه وعلى أخلاقهم خاصة

دخل هذا المساعد يوما الى مكتبى وقال لى أنه غير مرتاح لتصرف هذا الصبى بذاته . فسألته وما شأنه ؟ فقال انه يدخل الى قسم الصبيان بشكل يدل على التسلط ، ويتكلم بشكل لايدل على الاحترام الواجب لى بصفتى أكبر منه . فمثلا يحضر ويطلب الى فى خشونة أن أعطيه بعض الالعاب . ولا يتلطف فى الحديث معى كعادة الصبيان جميعا . وكأنه يريد بتصرفه هذا ان يستلفت نظرى فيقبض على الكرسى ويرفعه ثم يرمى به الى أقصى ماتصل يده . ولما لفت نظره الى ان هذا لايليق ، قال « أنا حر افعل ماأريد » وكل هذه التصرفات ليست مما يطاق » فشكرت الافندى على هذه المعلومات ورجوته بأن يعتصم بالصبر الى ان تواتينى الفرصة فأرى ماشأن الصبى فى هذا التصرف

ولم أكلمه مطلقا فى هذا الأمر ، ولكنى أمسكت به متلبسا بتصرف من هذا القبيل . وذلك انه حضر فى ليلة وذهب توآ الى المكتبة ليطلع على بعض المجلات ، وجلس الى المنضدة وخلع طربوشه ثم قذف به عدة أقدام إلى خادم القسم وقال له « ضع هذا فى مكان » ففعل ذلك وهو يضحك ، كأنه يهزل بتصرفه هذا ولا يجد . وذهبت الى الخادم وتناولت منه الطربوش وقذفت به اليه وانا أضحك أيضا وقلت له « إن الخادم يرفض ان يستمع اليك بهذه الطريقة » فقام وذهب الى الخادم وناوله الطربوش وقال له « من فضلك ضع هذا فى المكان المخصص له » ففعل الخادم وانتهت المسألة عند هذا الحد

ومع كل ذلك فانى كنت أشعر أنه فى تحسن مستمر من الناحية الاخلاقية . فلم تكن فرديته لتظهر بالشكل الذى كانت تظهر به أولا

ولكن حدث فى يوم من الايام حادث دهشت له وحرت فى أمره . ذلك أن هذا الصبى أخذ يتمرد ويعصى وتثور فيه نفسه كأنه يريد أن يؤكد شخصيته تأكيداً باتا قاطعا ، وهذا ان لم يكن فى نظرى مظهراً من مظاهر الفردية فهو على الأقل ادعاء وغرور ينجم فى أحوال كثيرة من المراهقة . ومظهر هذا الغرور هو أن يشعر الفرد أنه انسان كبير له خطر وله قيمة . وأن الناس فى الواقع لا يقدرون هذا الخطر وهذه القيمة . ولهذا السبب يريد ان يعلم الناس كيف يحترمونه ، وينظرون اليه نظرة التقدير والاعتبار . ومن مظاهر المراهقة هذه أن يصير الصبى شديد الغيرة على كرامته المزعومة . ويحمل كل الافعال التى يأتيها الآخرون على محمل الحط من كرامته والزراية به ويرى ان كل كلام لا يفهمه محقر له . وكل حركة لا يدرك الباعث عليها موجهة اليه للاستهانة به

ونحن لا نريد فى هذا المقام ان نستقصى عوارض المراهقة من الوجهة النفسية ، ذلك لأن لهذا الكتاب حجما لا يحسن ان يتعداه . أما إذا وجدنا أن المجال

يسع شيئا عنها فسوف نتحدث فيها ، ونبسطها للقراء بعض البسط ، فلنرجىء هذه اذن ونسترسل فى موضوعنا

من عادتنا فى قسم الصبيان أن نقيم بعض حفلات الايناس كما مر بك ، ولكنى درجت على عادة قصدت بها شرح مايعترض الجماعة من تصرفات الافراد فاذا كان قد ظهر من أحدهم روح الفردية القبيحة فى أثناء الحفلة مثلا أكلمهم قليلا عن هذه الفردية . وأظهرهم على قبحها وشناعتها . ولكنى أحرص الحرص كله على ان لاأدخل فى الشخصيات فلا أذكر ولو على سبيل التمثيل ماحدث من أحدهم ، وخصوصا متى كان الحادث قريبا للافهام ، لانه متى كان الأمر كذلك لابد أن ذكره يجرح احساس الصبى وهذا ماأتحاشاه وأتجنبه ، فللصبيان كرامة . ولهم عزة نفس ، ويجب على المربى أن يحرص على أن يقوى فيهم هذا الشعور ويتعهده بالرعاية حتى اذا ماصاروا رجالا يستطيعون أن يدافعوا عن كرامة نفوسهم

كل هذا اضعه أمامى ، ولا اسمح لنفسى أن تنساه لحظة واحدة ولكنى لااسمح للصبيان بالمكابرة ايضا فمادام أن أحدهم اخطأ فى ناحية من النواحى ، واقر بخطأه واستسمح الغير عن هذه الاخطاء . فليس للصبى أو لأى انسان آخر أن يعود فيكابر فى هذا الشعور وذلك الاقرار . لأنه يجب أن يكون الشعور بالخطاء شعوراً صادقا لالف فيه ولا دوران

فبعد أن استمتعنا بحفلة الايناس هذه ، أخذت اتحدث للصبيان عن الفردية البغيضة وابين لهم لماذا لا تتفق والحياة الاجتماعية الصحيحة ، ثم قلت لهم ، أن الخطأ من مميزات الحياة الانسانية . فلكل منا كباراً أو صغاراً حق الوقوع فى الخطأ ولكن ما يميز فرداً عن آخر ، وما يرفع خلقا عن آخر ، هو أن الخلق المتين يرى الخطأ الذى وقع فيه ، ويستقرىء من الحوادث الملازمة له لماذا وقع فيه ، ثم يحترس لنفسه لكى لا يقع فيه مرة أخرى ، أما اذا وقع فى نفس الهفوة مرة ثانية

فلا يجب أن ييأس . بل عليه أن يحلل العوامل النفسية المحيطة بهذه الهفوة . ثم يستمد من أخلاقه ومن ارادته ما يساعده على التغلب عليها . ولكى أجعل الامر واضحا . قلت لهم انى كثيراً ما اخطىء . وفلان منكم اخطأ . وفلان أيضاً . وهكذا الى أن ذكرت اسم بطل هذه القصة . فاجابنى صبى منهم وقال « لكن انا وانت قد اتفقنا على انك لا تحتسب غلطتى ضدى بعد ذلك . ألم تقل انك قد سامحتنى فى هذه الغلطة » فاجبته بالايجاب وقلت له انى اذكرها فقط على سبيل التمثيل

ولكن الصبى الذى نروى قصته الآن قال « يا يعقوب افندى انا لم اخطىء فى ذلك اليوم على الجبل »

ـــ كلا لقد اخطأت واعترفت بذلك وقلت انك آسف للروح التى ظهرت بها فى ذلك اليوم

ـــ لقد قلت لك هذا حقاً . ولكنى شعرت بعدها انى لم أكن مخطئاً وأنه لم يكن يجدر بى أن اقول انى اخطأت . وكنت أرغب فى أن اتحدث اليك ولكنى كنت اؤجل واسوف الى يومنا هذا

ـــ حسن انى مستعد لأن ابحث الموضوع معك من أوله فى جلسة خاصة فى مكتبى

وعند الانتهاء مما كنا فيه دعوته الى مكتبى وجلسنا نتحدث وهذا ما دار بيننا وكنت أنا البادىء بالحديث

ـــ عندما شعرت بانك لم تكن ملوما فى حادثة جبل المقطم كان يحسن بك أن تأتى فى الحال وتبحث الموضوع معى ، وعلى كل فقد ظننت أن الموضوع قد انتهى واننا قد فرغنا منه ، ولكن لا بأس من أن نعود له . هات ما عندك

ـــ حضرتك قلت انه يجب على الفرد أن يخضع للجماعة . وانك تتشدد فى هذا كثيراً . ولكنك أنت لا تخضع للجماعة

— وكيف كان ذلك ؟

— لاننا اجتمعنا مرة وطلبنا اليك أن تدخل الملاكمة فى القسم فرفضت . فلو كنت حقاً تقيم وزناً لرأى الجماعة لكنت اجبت لنا مطلبنا

وقبل ان اورد باقى الحديث يحسن بى تنويراً للقارىء ان اورد هذه الحادثة والظرف المحيط بها . انا من المنتصرين للملاكمة لدرجة معلومة لانى اشعر ان النعومة الانثوية منتشرة بين شبابنا بشكل مريع . وان الصبى يفضل ان يهان ويضطر لأن يتعرض للتحقير وسماع الشتائم على أن يضرب ولو ضربة واحدة، وهذا مظهر من مظاهر الضعف النفسى الذى ينتاب بيئتنا على العموم ، وسأعود الى فيه فى فصل خر

وأما الآن فيكفى ان اقول أن بعض اللكمات يتناولها الصبى من اللعب تفيده ولا تضره ، ويحسن بنا أن نشجع اطفالنا على ان يحتملوا الضرب وعلى أن يضربوا سواهم . لأن هذا مفيد لنفسياتهم كثيراً . ولهذا السبب ادخلنا هذا النوع من الرياضة الى قسم الصبيان . ولكن بعض الآباء ثاروا واحتجوا على الوحشية المزعومة ، وطلبوا الينا ان نبطلها ، ثم ان الصبيان انفسهم انسحبوا من هذا النوع من الرياضة من تلقاء انفسهم ، فقد كان من يأنس فى نفسه العجز عن مقاومة الآخر ينسحب من اللعبة كلية وكان كل يصر على انتقاء خصمه ، ويحرص على ان يكون اصغر منه . وهذا الخصم بدوره يرفض هذا المتحدى ، وينتقى آخر اصغر منه ، وهكذا الى ان صرنا عاجزين عن ان نستمر فى هذا المران المفيد لهم مع اننى كنت احرص على أن آتيهم بمدرب من خيرة الشبان ادباً وخلقاً . والطفهم معشر آبائهم بالصبيان . وعلى ذلك فقد تجمعت على العوامل كلها منها ماكان خاصا بالآباء وهو المهم فى نظرى . ومنها ما كان خاصاً بالصبيان انفسهم ، وكانت النتيجة انى اضطررت لأن امنعها من قسم الصبيان الى ان نرى ماذا يأتى به الغد

ولكن هذا الصبي حضر مرة ومعه زميل له وطلب الى ان اصرح لهما بالملاكمة . فرفضت لهذه الاسباب . وشرحت له بعضها . ثم قلت له انى سوف أنظر فى الموضوع . وقد نعود اليه مرة أخرى . ولكن لن يكون ذلك قبل الانتهاء من المدارس لأن المدرب الذى أثق به لايستطيع ان يحضر قبل ان يفرغ من الامتحانات فاقترح على أن أتركه مع صديقه يتلاكمان . فرفضت وانتهينا على ذلك ولكن يظهر أنه لم يكن راضياً بهذا الحل . ولذلك فقد انتهز هذه الفرصة التى نحن فيها ليعود له . والآن لنرجع الى الحديث . قلت

— لم تكونوا سوى اثنين ، فلا يصح ان تقول أننا كنا جمعاً . ومع ذلك ألست مسئولا عن هذا المعهد ؟ وألا يحق لى ان أمتنع عن أمر تريدونه ؟

— كلا . لايحق لك ذلك . لأن قوانين الجماعة تستدعى أنك تخضع لها

— اذن أنا واحد منكم لى مالكم وليس أكثر ، واذن فانا لست مسئولا عن هذا المعهد

— كلا ، أنك مسئول عنه . ولكن لنا حقوقا . ويجب ان تخضع للجماعة كما نخضع نحن

— وعندما نختلف فى أمر ؟ عندما أرى أنا رأياً وترون أنتم غيره فماذا يكون اذن ؟

— نحتكم الى أحد الناس . ويحسن ان يكون السكرتير العام للجمعية . فهو الذى يصح ان نحتكم اليه

الحق أقول أن الدم أخذ يغلى فى عروقى ، وشعرت ان كل أعصابى توترت ، وثارت نفسى على هذا الصبى الوقح لأنه ينكر سلطتى انكاراً باتاً . لابل يحاول هدمها من أساسها . فهو مغرور . ولا يحسن ان يترك لغروره فلا بد اذن ان أعلمه درساً لن ينساه ، ولكنى أمسكت بنفسى متلبسة بجريمة الغضب . فكظمت

غيظى علما منى بأن ثورة العاطفة لاتعود عليه بخير ما . لابل سوف تضره اذا خضعت لها فصبرت قليلا الى ان ملكت نفسى . وشعرت انى استطيع ان احتكم للعقل وليس للعاطفة ثم قلت له :

ـــ لنرجع الى حال مدرستك لنرى ماحكمها فى هـذا الأمر . دعنا نبحث فيما تفعل المدرسة فى هذه الحالة ، هل خطر لك ان تقول هذا الكلام لناظر مدرستك ؟ هل سمعت ان طالبا دعا الناظر الى ان يحتكم الى الطلبة فى أمر يخص سياسة المدرسة؟ كلا يابنى ، هذا كثير ، ولا يحسن بك ان تدعه يجول فى مخيلتك

ـــ هذا ناد وتلك مدرسة وشتان بين الاثنين ، هنا نلعب ونحن متساوون . وهناك ندرس ، ولسنا متساوين

ـــ اما من جهة المساواة فقد سمحت أنا بها ، وأعطيتكم من الحرية ماأظنه لايتنافى مع التربية ، ولكن فى استطاعتى أن أمنع هذه الحرية متى وجدت أنها مضرة ببعضكم ، فانا مدير هذا المكان ، أبقى فيه من أشاء وأطرد منه أشاء .

ـــ لاتستطيع أن تطردنى ، لانى سوف أشكوك لرئيسك

ـــ حسن جداً ، اذن لابد من طردك ، لاننا لانرغب فى ان نحتفظ بالصبيان الغير المؤدبين

ثم دعوت الخادم وأمرته أن يحضر ملابسه الرياضية ويعطيها له ، ثم نبهت عليـــه أن لايسمح له بالدخول مطلقا . فقال الصبى لاأريد أن آخذ ملابسى الليلة ، سآتى غداً لآخذها ، فأمرت الخادم ان يطرحها فى الشارع ان رفض أخذها

ويلاحظ القارىء حدة العاطفة فى هذا التصرف بالطبع ، لان كل هـــذه الاعمال لاتصدر إلا عن انسان تملكته العاطفة الحادة ، وإلا فماذا استفاد الصبى من طرده هذا ؟ هل ستتحسن أخلاقه ؟ اظن ان هـذا مشكوك فيه ، فلو كنت تمالكت نفسى ، واجلت الموضوع الى يوم آخر لما كان الصبى ليقول هذا

الكلام . ولما كنت وقعت تحت تأثير العاطفة الهوجاء ، ثم لو لم تكن العواطف متملكتنا كلينا لكان الصبي قد بقي تحت نفوذي فانغلب على هذا العناد وعلى هذه هذه الوقاحة . ولكنت قد ساعدته قليلا في بناء أخلاقه

قد يقول البعض ، لقد نال هذا الصبي جزاءه الذي يستحقه ، لقد كان وقحاً مغروراً ، وكان يجب ان يناله شيء مثل هذا ، كان يجب ان يعاقب بشكل من الأشكال لأن السكوت على هذه الاهانة ضعف ، ولا يصح ان يكون المربي ضعيفاً عاجزاً . ثم لا يصح ان يفهم الصبيان عنه ذلك ، لأن هذا مضر بأخلاقهم كل الضرر ، وقد يقودهم الى الغرور فالتمرد والعصيان . وما كل هذه الا نقائص اخلاقية على أي حال . فما معنى التلطف معهم في القول الى حد يمكنهم من الاغلاظ فيه ؟ كلا كلا ، ان السكوت بعد هذه الاهانة لا منشأ له إلا العجز والضعف ، قد يقول البعض هذا وقد يمكن ان يكون فيه شيء من الصواب لان ظواهر الامور تجعل ذلك ممكناً . وقد يكون ان شيئاً من هذا الشعور تسرب الى نفسي على غير علم مني . فلجأت الى القوة المادية لما أعوزتني الحيلة . قد يجوز ان ثورة العواطف عندي قد أرغمت العقل على ان يخلق لها المبررات خلقا كما هي عادة العواطف مع العقل ، فطردت الصبي لسبب ظاهره عقلي وباطنه شهوة وعاطفة

ولكني موقن الآن انى اخطأت في هذا التصرف . فتحدي ذلك الصبي لسلطتي لم يكن جديا بأي حال من الاحوال . وهو يعلم ذلك من نفسه كما يعلمه من باقي الصبيان اخوانه ، وإذن لو كنت تمالكت عواطفي أنا ، ولم أدفعه الى هذا المركز الخطر — لو كنت أرجأت المسألة إلى وقت آخر كما هي عادتي في معظم الأحيان — لو كنت فعلت هذا لما حدث شيء من هذا القبيل ، ولكان الصبي قد بقي تحت نفوذي أوجهه إلى بعض الوجهات النافعة له . أما هذا العقاب الذي أنزلته به فلم ينفعني أنا بشيء كما لم يعد عليه هو بفائدة

قلت انه لم ينفعنى بشىء والحقيقة انى افدت من هذا الدرس شيئاً مهما . وهو انى أيقنت ان آفة التربية هى فى أن المربين كثيراً مايخضعون لعواطفهم فتفسد عليهم جهودهم وتضيع أتعابهم . لقد زادتنى هذه الحادثة يقينا على يقينى بأنه على المربى ان يتمالك عواطفه واحساسه عند مايعالج الصبيان . فان لم يستطع أن يفعل ذلك ، عليه أن يقيل نفسه من هذا الواجب . فالاقرار بالعجز أفضل من التورط فى الخطأ

لقد بعدنا كثيراً عن الموضوع الذى كنا فيه وهو الفردية . ولكنى أظن أن استقصاء نفسية أحد الصبيان بهذا الشكل لايخلو من فائدة للمشتغلين بالتربية على الخصوص وللآباء على العموم . ومع ذلك فمنشأ كل هذا هو فردية ذلك الصبى فهى الأصل فى كل ماحدث

وعلى كل حال . وبعد كل هذا استطيع ان اقول ان جهادى ونضالى مع تلك الفردية لم يكن عبثا ، لانها أثمرت بعض الثمر . ولانى لم أجدها فى طريق بالكثرة التى كنت أجدها بها فى هذا الصبى بالذات وأما النواحى الاخرى من أخلاقه فقد نجد شبها لها فيما سنورده فى هذا الكتاب عن بعض الصبيان الآخرين

ولا يخطر ببال القارىء انى أعد كل خروج على الجماعة فردية والسلام ، كلا فان الفردية فى نظرى لها حدود ، وأحرص كل الحرص على ان لاأتعجل فى الحكم على أى صبى عند مايخالف الجماعة فى أمر من الامور . أنا أعلم ان امتناع الصبى عن مجاراة الجماعة قد يعود فى الواقع إلى عوامل كثيرة . فاما أنه يرجع إلى عامل نفسى لاغبار عليه عند الصبى ، أو قد يرجع الى الجماعة نفسها كأن تتخير ظرفا غير مناسب له ، وقد يستطيع الصبى أن يقدم هذه الاسباب وقد لايستطيع . والصبى أحيانا يشعر بأمر ولكنه يعجز عن شرحه لغيره . فانا أعمل حسابا لكل هذه العوامل وغيرها عند معالجة حالة من الحالات ، فالفصل بين العوامل وتحديد مفعول كل منها على حدته من مستلزمات الدراسات النفسية المنظمة ، والمؤلف يحرص على ان يكون عليما فيما يقدمه من هذه الدراسات

الفصل السادس

ليست فردية

من الحالات التى يكون فيها الخروج على الجماعات لاسباب قوية أو شبه قوية الحادثة الآتية :

كنا قد عزمنا فى احد الامسية ان نقيم حفلة ازياء مضحكة . وكنا قد شرحنا الغرض منها فى يوم سابق ، والغرض هو هذا بالاختصار ، ان الحفلة تكون بالجوائز ويربح الجائزة من لا يتكلف شيئاً بالمرة أو من يتكبد اقل المصاريف فى تحضير زيه . أى ان الجائزة لا تعطى لمن يكلف اهله أو يثقل كاهلهم بالمصاريف التى لا طائل تحتها ، فيستطيع الصبي مثلا ان يعمل زيه من الورق ، أو من بياضات الاسرة بشرط ان لا يعمل فيها المقص أو يفسدها بشكل من الاشكال ، وهكذا الى آخر هذه الشروط

وكان مساء الحفلة ، وحل ميعادها ، فطلبنا الى الصبيان ان يتركوا الملعب الرياضى . وقد كانوا جلوساً فيه ، ويدخلوا الى غرفة الاجتماعات . وذلك لأن الملعب الرياضى مفتوح ، لا يحجزه عن الفضاء حوله الا شبكة من سلك بسيطة ، ونحن نرغب فى ان تكون هذه الحفلة خاصة . قام كل الصبيان ودخلوا الى الحجرة ماعدا اثنين منهم ولما ارسلت ادعوهما ، سمعت احدهما يقول « كلا لا نريد ان ندخل ، تعالوا انتم هنا » قد يكون هذا التصرف ناجماً عن الفردية وقد لا يكون . فعولت على أن ابحث فى المسألة مع انها لاتستدعى التدقيق الكثير . ولكن يجب على الباحث أن يستقصى التصرفات ويردها الى عواملها ان كان يرغب فى أن تكون لبحوثه قيمة علمية بأى شكل من الاشكال وهذه الحالة وان كانت غير ذات خطر

يجب علاجها بشكل من الاشكال . والا قد تتطور وتكبر ، كالمرض فى اوله الم بسيط ولكنه يصير قاتلا فى آخر الامر

وقابلت الصبي صدفة بعد ذلك اليوم فسألته قائلا

ـــ لماذا يا فلان لم تنضم لرفقائك فى لهوهم وتسلياتهم ؟

ـــ لم يكن عندى سبب

ـــ اذن فانت ملوم ، لأنه كان يجب عليك ان تكون فى وسط جماعتك تشترك معها فى لهوها فتزيد كمية هذا اللهو ، أو تقوم بقسطك من تسليتها والترفيه عنها لأن للجماعة علينا حقوقا »

ـــ فقال ولكن الدنيا كانت حراً ، وكنت افضل ان ابقى فى الهواء الطلق

والمؤلف يميل الى قبول هذا على انه الدافع الحقيقى لامتناع هذا الصبي عن الانضمام للجماعة ـ وذلك لعدة اسباب ، منها أولا ان الصبي نفسه ليس من الفرديين المتطرفين الذين يشعرون ان الصلات بينهم وبين الجماعة منقطعة وان كانت فرديته تظهر بشكل ضعيف فى بعض الاحوال ، ومنها ان صبيا آخر كان لا يحب أن يشترك فى هذه الحفلة فهناك اذن انسان آخر يستطيع صبينا هذا أن يجلس اليه ويتحدث معه ، وهذه من العوامل التى قد تكون سبباً فى عدم انضمامه للجماعة . وهنا لك سبب ثالث وقد ذكره الصبي وهو ان الحر كان شديداً حقا ، وانه كان من الافضل ان تكون حفلتنا فى الهواء الطلق ، فلكل هـــذه الاسباب . ولأنه ذكر الحر اجبته قائلا

ـــ حقا ان الحر كان شديداً ، انك مصيب فيما تقول ، وكان الاجدر بنا أن تكون حفلتنا فى الهواء الطلق

وإذن لم يكن ثمة ما يؤاخذ عليه هذا الصبي فانتهت الحادثة عند هذا الحد . ولكنى افهمته انه لم يكن مخطئا فى هذه الحالة ، وان الذنب واقع على الظروف التى

اضطرتنا لأن نقيم حفلتنا فى داخل الحجرة

ومن هذا يرى القارىء انى لا اعد كل حالة من هذا القبيل فردية أو خروجا على الجماعة . كلا ، لا يذهب المؤلف الى هذا الحد . ولكن الحقيقة التى ذكرناها سالفاً والتى هى موضوع هذا الباب لاتزال قائمة . وهى اننا كأمة اميل الى الفردية منا الى الاجتماع ، واقصد بذلك كل اجتماع لا يسمح لفرديتنا بالظهور والوضوح فنحن نجتمع ونفعل وننشط ولكن كافراد وليس كجماعات . وهذا هو السبب فى أن التعاون عندنا ضئيل ضعيف . والتعاون هو اتجاه فى الميول وجوهر من جواهر الاخلاق قبل أن يكون امراً ماديا أو اقتصاديا . وقبل أن يوجد فى النفوس لا يمكن أن يوجد فى مظاهر الحياة المادية

الفصل السابع

التعاون والاخلاق

يتبين من الحادثة الآتية أن التعاون من عناصر الاخلاق ولن يكون ممكنا فى الحياة المادية قبل ان يوجد فى النفوس ويتبين منها ايضاً أن الفردية هى من اعدى عداة التعاون . وليس اقتل له من ان يكون المشتغلون به اناسا فرديين لايشعرون ان للحياة الاجتماعية شروطا يجب توافرها ومطالب قبل الافراد يجب أن يؤدوها. ومنها ايضاً أن فردية واحدة تكفى لأن تضر بروح الجماعة ضرراً بليغاً . فتفكك ربطها وتحللها الى وحدات كثيرة أو الى افراد مستقلين يشعر كل منهم انه فى حل من الربط الاجتماعية

ولكى يستطيع القارىء ان يلم بظروف هذه الحادثة التى سنوردها فيما يلى يحسن بنا ان نقول كلمة عن نظام جمعية الشبان المسيحية وعلاقة معهدنا بها .فهذا المعهد هو جزء من الجمعية كأحد اقسامها المختلفة ـــ كالقسم الرياضى والقسم التعليمى والقسم الاجتماعى مثلا ، ولكن لقسم الصبيان ـــ بخلاف ما عداه من الاقسام ـــ بناء خاصا وادارة خاصة وادوات خاصة وملعبا رياضيا خاصا ، ولكن ليس له ملاعب لكرة المضرب ـــ التينس ـــ وهذه اللعبة ليست داخلة فى برنامجه الرياضى ، ولذلك فقد حضر الى بعض الصبيان وقد كان الوقت وقت الاجازات الصيفية وطلبوا منى ان اسهل لهم السبل حتى يلعبوا التينس ، فاخذت المسألة الى اخوانى سكرتيرى قسم الرجال وطلبت منهم ان يصرحوا بذلك للصبيان . فاتفقنا على ان نحجز الملاعب لهم يومين فى الاسبوع على أن يكون ذلك فى الصباح فقط، ثم بلغت هذا القرار للصبيان

وعلى ذلك فقد اجتمع الصبيان وأخذوا يتداولون فيما يفعلون ، لأنى

بعد ان أخبرتهم بتكاليف اللعبة فهموا أنها ليست من الامور السهلة على الطلبة إلا من كان منهم فى حالة اقتصادية متوسطة أو فوق المتوسطة ، وهذا معقول لأنه ليس فى امكان كل العائلات أن تجهز أولادها بالمضارب والكرات والملابس الضرورية لهذه اللعبة . ثم أنا أكره جداً أن أكلف الوالدين فوق طاقتهم ، ولذلك فانى أحجم فى مثل هذه الحالات عن أن أستعمل نفوذى مع الصبيان

وبعد ان قتلوا الموضوع بحثاً حضر الى نفر منهم وقالوا أنهم اتفقوا على أن يتعاونوا جميعاً فى شراء المضارب والكرات وما أشبه ، وأنهم يزمعون شراء مضربين لكل عشرة منهم ، فسررت لهذا القرار كل السرور ، ليس لأنهم سيلعبون تلك اللعبة بل لأنهم بدأوا يشعرون بضرورة التعاون الاختيارى ، أى بدأوا يتعاونون من تلقاء أنفسهم ، وقلت لمن حمل الى هذا الخبر منهم أنه وان كان عندى كل أدوات التينس ومع انى أجيد لعبها الا انى مستعد لأن أتعاون معهم فيما هم شارعون فيه ورجوته ان يعدنى كفرد منهم لأنى مستعد لأن أقوم بكل مايطلب منى فى هذا الأمر ، وسألعب معهم بنفسى ولا أكل أمرهم للمدرب الذى يتقاضاهم الاجر ، فقط انتظر منهم ان يتعاونوا ليعملوا كجماعة وليس كافراد فذهب راضياً مرضياً

وفى ثانى يوم سألته ماذا تم فى مسألة كرة المضرب ، فقال لم يتم فيها شىء مطلقاً ، لابل قد أنفض عقد الجماعة وتفرقت وذهب كل منا الى حال سبيله

— وكيف كان ذلك ؟

— لأن فلان رفض ان يشترك ، وفضل ان يشترى لنفسه كل مطاليب اللعبة فما كان من البقية إلا أن قالوا أن المشروع فشل وقرر كل منهم ان يهتم لنفسه فى الموضوع

وكانت النتيجة من كل هذا أن واحدا منهم فقط هو الذى اشترى المضرب والكرات لان مالية عائلته تسمح بذلك وبأكثر من ذلك . وأما البقية فقد انصرفوا

عن لعبة التنس الى سواها . ولست فى الحق آسفا لأنهم انصرفوا عن تلك اللعبة لأنها والحق يقال تعد ضربا من الترف لمثل كثيرين من هؤلاء الصبيان . وانما ما آسف له حقا هو فشلهم فى التعاون فيما بينهم على غرض من الاغراض . فهذه الظاهرة تصدمنى فى كل خطوة اخطوها معهم وفى كل مشروع نزمع الاخذ به

وقد يسأل بعض القراء لماذا لم أتدخل فى الموضوع ؟ ولماذا لم أدفع به وأحملهم على تنفيذه أو استعمل نفوذى معهم حتى يتم المشروع . وكم كنت أحب أن أكون فى مركز استطيع معه ان أفعل شيئا من هذا . ولكننا نتحاشى أن نكلف الوالدين فوق مايستطيعون من الوجهة الاقتصادية . فعظم الوالدين لايدركون الغرض الذى نسعى اليه ، ولاينظرون الى أبعد من الوجهة المادية ومادمت تكلف العائلة ثلاثين قرشا مثلا . فقد كلفتها هذا المبلغ وكفى . وماعدا ذلك فهو من الاعذار التى لانجدى كثيرا ، ثم ان الصبيان أنفسهم يندفعون ، ولايقدرون العوامل الاقتصادية قدرها . ففى نظرهم ان عائلاتهم تستطيع كل شىء ، وكثيراً مايرهقونهم بالطلبات ، ولكل هذه الاسباب أتحاشى ان أشجعهم فى هذه الامور أو أستعمل نفوذى معهم

وعلى كل حال فنحن نحارب الفردية بكل الطرق المنظمة ، ثم نستعمل الطرق العملية فى مقاومتها ، بمعنى ان الفردى يوضع فى الظروف التى تتطلب منه عملا ايجابيا موجها الى خير الجماعة كلها ، ولم أجد فيما وجدت من اختباراتى ومشاهداتى ومطالعاتى عن طبائع الصبيان أن شيئا خير من الالعاب المنظمة التى تتطلب مجهودا مشتركا من الجماعات ومن الافراد ، ففى هذا النوع من النشاط يكون الفعل والحركة والحياة تلقائية — أى أن منشأها جميعا الدوافع الطبيعية البيولوجية ، فهى فى تكوين الصبيان أنفسهم وليست شيئا خارجا عنهم يحملون عليه قسرا ولست تستطيع ان تجد طفلا من غير أن تكون استعداداته وميوله للعب

طبيعية واضحة ظاهرة . فهذه الاستعدادات وتلك الميول موجودة فيه اصلا ومن تلقاء ذاتها . وما على المربى إلا أن يستثمرها الى أقصى حدود الاستثمار ، وعلى حسن استثمارها يتوقف كثير من الاسس التى تبنى عليها الاخلاق

ومن حسنت اخلاقه فى اللعب فقد حسنت أيضا فى الحياة اليومية وفى النشاط العادى . والحياة اليومية والنشاط العادى هما فى الواقع العمل الذى يقوم به الانسان فى الحياة ومن أجل الحياة . فلست أجد فى الحق تفسيرا للحياة إلا بأنها سعى وحركة ونشاط . أو بعبارة اخرى ليس للحياة من معنى سوى أنها عمل فيها ولها . فاذا كان هذا حقا وكانت الحياة فى جوهرها ليست سوى نشاط أو عمل ، فقد صار حتما أن الاخلاق الحسنة أو العالية تتوقف على نوع هذا العمل وذاك النشاط . ومتى حسن وكان مفيدا للجماعة البشرية ومساعدا لها فى نضالها فى سبيل التقدم والتطور ، فقد حسنت اخلاق الفرد وكانت درجتها من الفضائل سامية وعالية

بقى علينا ان نثبت ان الصلة بين العمل واللعب متينة بشكل يجعل عوامل أحدهما تنطبق على الآخر ، ولحسن الحظ فان هذه الصلة موجودة فعلا فاللعب هو فى الحقيقة عمل (شغل) ليس غير . ويرى البعض ان العمل أو الشغل يكون لغاية معينة وأما اللعب فلغير غاية معينة . وأما فى غير هذا الوجه فهما متفقان كل الاتفاق بحيث تستطيع ان تسمى الشغل لعباً واللعب شغلا . فالنجارة مثلا هى عمل النجار او شغله بينما هى فى نفس الوقت تسلية الاستاذ أو المدرس ولعبه. وأما فيما عدا ذلك فهما يستويان

ونحن ننكر هذا الفارق الذى يأخذ به البعض ولا نعده فارقا بأى وجه من الوجوه . والدليل على ذلك فى متناول كل انسان يفهم الحياة ويتفاءل لها ويواجهها بالعدل والقصد ، فالعمل أو الشغل هو فى نظر الكثيرين من الناس

لعب من نوع معلوم ، فلو كان النجار الذى يكسب رزقه من نجارته ومن الكدح فيها طول اليوم ممن يتعشقون مهنتهم ويحبونها لبادر إلى النجارة ليتسلى بها ويلهو فى أوقات فراغه ولكان لايجد التسلية واللهو واللعب فى غيرها من الهوايات

ولنأخذ مثالا غير هذا يستطيع أولو الشأن فيه أن يردونا إلى الصواب فيما لوكنا عدوناه . لنأخذ أناسا يستطيعون ان يخطئونا فى الحال لو ارادوا ذلك . خذ الاستاذ الدكتور طه حسين والاستاذ العقاد والاستاذ سلامه موسى مثلا . واسأل هؤلاء ماهو اللعب فى نظرهم ؟ ثم ماهو العمل أو الشغل ؟ فاغلب الظن انهم يجيبونك ان اللعب حسب ترتيب ورود أسمائهم هو بحث فى الادب الجاهلى أو بحث فى الأدب على العموم . أو بحث فى نظريات العلوم الانسانية الحديثة Human Sciences هذا هو اللعب فى نظرهم . ثم هذا أيضا هو الشغل أو العمل الذى يقومون به لكسب أرزاقهم وأقواتهم

وانا أيضا أقول مثل هذا القول وأشعر مثل هذا الشعور . لأن عملى أو شغلى هو فى نفس الوقت تسليتى ومراحى ولعبى ، فانا أقوم بهذا النوع من العمل أو أن شئت العب هذا النوع من الالعاب لسببين كلاهما مهم وكلاهما ضرورى ، وأما أيهما أهم وأيهما أكثر ضرورة فلست أدرى . والسببان هما أولا انى أقوم بهذا العمل لانه لعبى الذى افضله على سواه ، ثم انى العب هذا اللعب لان منه أكسب عيشى أيضا . ولوقدر لى ان أضمن عيشى من مورد آخر لقمت بهذا العمل نفسه على انه لعبى وتسليتى . وأظن أن هذا هو الحال مع من ذكرت فانهم ايضا يحبون ان يوغلوا فى مباحثهم ودروسهم حتى وان توافرت لديهم موارد للعيش غير هذه

وليس يعنى هذا ان الانسان منا يعد عمله او شغله الضرب الوحيد من اللعب الذى لايريدسواه ، كلا لان لى انا مثلا ضروبا شتى من الالعاب اميل اليها واقضلها

على سواها . وعملى هو اهم هذه الانواع او من اهمها على اقل تقدير ، ولو تركت وشأنى لاخترته من ضمن مااختار من ضروب اللعب واللهو والتسلية ، ويتضح من كل هذا ان اللعب والشغل اقرب الى بعضهما مما يقول به بعض المفكرين

وهؤلاء يذهبون الى ان للعمل غاية خارجة عنه ، وان تلك الغاية فى الواقع هى اقتصادية مادية . فالشغل يتميز عن اللعب بكونه يرمى الى الحصول على المال ، وهذا يختلف مع فلسفة المؤلف الذى لايقسم الافعال الى وسائل وغايات . فليس فيها مايصح ان يكون وسيلة لاغير او غاية فقط ، ولا داعى لان نبحث هذه المسألة هنا اكثر من ذلك لاننا قد تكلمنا عنها فى كتابنا « التربية والاخلاق »

ومتى كان ماقلناه معقولا مقبولا ومتفقا مع المنطق ينتج لنا ان العمل أو الشغل أو اللعب او كيف شئت ان تسميه ليس وسيلة لشىء آخر . بل هو غاية فى نفسه أيضاً وأننا نلعب ونعمل ليس لشىء سوى اللعب او العمل . وأما ماعدا ذلك من النتائج المعنوية او المادية فهى نتائج ثانوية لأعمالنا أو العابنا ، والنتائج الثانوية (By- products) هى لازمة من لازمات الحركة والسعى والنشاط

ومما تقدم نرى ان اللعب ليس يختلف فى جوهره عن العمل ، بل هو فى ذاته عمل ليس غير ، ومن ذلك نرى أيضاً ان اخلاق اللاعب فى لعبه هى فى الواقع اخلاق العامل فى عمله . ومتى استطاع المربى ان يجعل الصبى يلعب على مقتضى قواعد الاخلاق فاغلب الظن أنه ينجح فى تكوين اخلاق هذا الصبى جملة

ولكن الاخلاق شىء مجمل يحتاج الى التفصيل والايضاح ، وهذا ماعملناه فى موضع آخر ، وانما نحن هنا نعنى بنواح خاصة من الاخلاق أو ببعض عناصرها التى تتألف منها ، ونحن نعنى هنا على التخصيص بالفردية ، تلك الناحية من الاخلاق التى لها اتصال برأى الفرد فى الجماعة وتصرفه ازاءها ، وهذه الفردية

كما قلنا يمكن التغلب عليها بأمور كثيرة ومن ضمنها الالعاب المشتركة وأظن أن البحث فيها قد استوفى وان الشواهد التى أوردناها والحالات الخاصة التى بحثناها كافية . ولكن يحسن بنا ان نورد ثلاث حالات اخرى ، وان كانت لم تحدث فى قسم الصبيان إلا أنها وقعت تحت حس المؤلف ومشاهدته . وهى بعد تصلح لأن تزيد ماقلناه بياناً وشرحا . ولا اسمى هـــذه حالات بالمعنى العلمى الصحيح (Case Studies) فليس حكمها كحكم ماذكرته سابقا لان تلك كان فى استطاعتى ان استقصيها الى نتائجها . أو أدرسها عن كثب دراسة علمية منظمة ، وأما هذه الحالات الثلاث فيصح ان نسميها شواهد لاغير ، لأن المؤلف لم يستطع أن يستقصيها الى منتهى ماتصل اليه

obeikandl.com

الفصل الثامن

شواهد على الفردية

الحادثة الاولى

كنت نائماً فى غرفتى ، وكانت الساعة الواحدة والنصف صباحا . وكان يسير فى الشارع تحت نافذتى بعض الشبان (الافندية) وكانوا يتكلمون بصوت مزعج ينفذ من الحيطان والنوافذ ومن اذان النائمين الصماء الى دائرة وعيهم فيوقظهم من نومهم ، ولم يكتفوا بهذا بل اخذ واحد منهم يغنى بأعلى صوته فى الشارع . وقد يكونون من خيرة الشبان ادباً وفضيلة ، الا ان تقديرهم للجماعة ضئيل جدا وزرايتهم بها وبراحتها واضحة بينة لا تحتاج الى دليل أو برهان . فالناس حقاً نيام ، ولكن ماذا يهم ؟ فليناموا ان ارادوا وان استطاعوا ، واما هؤلاء فيغنون فى الشوارع فى الساعة الواحدة ونصف بعد منتصف الليل . فمراعاة راحة الجمهور ليس لها وزن عند الافراد عندنا الا فى القليل الشاذ

وقد يظن البعض أن هذه غلطة البوليس فقد كان يجب عليه أو على الحكومة ان تجبر اولئك على احترام الجمهور ، قد يكون هذا حقاً ، الا ان الاصل فى احترام الجماعة هو الجماعة نفسها ، فهى التى تحمل الافراد على احترامها وتأدية مايجب لها ، فلو كانت الجماعة قوية — واقصد بذلك لو كان لها شخصية قوية — لما تجرأ الافراد على معاملتها بمثل ما يعاملونها به الآن

ولست اذكر الآن من الذى لفت نظر هذا الانسان الى أن « الناس » نائمون وانه لا يحسن به أن يغنى بهذه الطريقة . لست اذكر من قال هذا الكلام ، هل هو عسكرى البوليس أم احد اصدقاء صاحبنا ، وانما اذكر انى سمعته يقول « وانا

مالى . ماذا يهمنى من الناس ، انا حر . اغنى متى اشاء وكيف اشاء » وليس هـذا سوى احدى مظاهر الفردية التى اطلعناك على امرها فيما تقدم

الحادثة الثانية

والحادثة الثانية شبيهة بالاولى الا انها تدل على عكس ما دلت عليه الحادثة الاولى . اى انها توضح لنا كيف ان الفرد فى البلاد الراقية يحرص كل الحرص على راحة « الناس » واحترام شعورهم وارادتهم . وان للجماعة حقوقا على الفرد ، وان الفرد مطالب باداء هذه الحقوق

كنا مسافرين على سيارة احد الاصدقاء مابين بلدة اسمها هارفارد وبين شيكاغو بالولايات المتحدة ، وكان صديقى صاحب السيارة موكلا بقيادتها . وكان منوطاً بى ان اسدد المصباح الكهربائى القوى الى الطريق ، ومن خصائص هذا المصباح انه متحرك فيمكن تسديده الى أى جهة تريدها . ولأنه قوى جداً كان ينير لنا الطريق على مسافة ميل ، وكانت الساعة الثانية صباحاً تقريباً ، ولما كنا متأخرين جـــداً وكانت المسافة طويلة وكان علينا أن نقطع مائة ميل قبل ان نصل شيكاغو ـــ كنا نسير بسرعة خمسين ميلا فى الساعة تقريباً ، وبسبب هذه السرعة كان تسديد المصباح يخرج عن طوقى فى بعض الحالات . وكان يقع على نوافذ بعض البيوت فى الطريق . فما كان من صديقى الا ان قال لى فى عجلة وفى توكيد كبير « احترس من ذلك » ولما استوضحته السبب اجاب أن النور قد يوقظ النائمين اذا ما نفذ الى حجراتهم ، قلت « وماذا علينا من ذلك ؟ ماذا يحدث لو نفذ الى حجراتهم وايقظهم » ؟ قال « يكون من ذلك ان يلومنا الناس . وليس ذلك فقط بل يقاضوننا اذا أرادوا ، ولهم الحق فى ذلك . لانه من حق الجمهور ان يستريح ومن واجبنا ان نسعى وراء راحة الجمهور ، وليس هذا فقط بل لا يحل لنا أن ننفخ فى نفير السيارة ليلا . واما اذا اعترضنا احد فى طريقنا فنوقف السيارة بدلا من ان نستعمل النفير »

ولا يظن القارىء ان القوانين هى التى تحمى الجمهور فى مثل هذا النظام ، كلا لأن من طبيعة القوانين انها توجد لتثبيت العرف والمتبع ، فليست توجد القوانين لايجاد شيء معدوم اصلا . كلا بل توضع لتكسب ما كان موجوداً صيغة التركيد ، واذن فليس تحرص الافراد على راحة الجمهور هنالك لأن القوانين تنص على ذلك فقط بل لأن الافراد هنالك ليسوا فرديين بالشكل الذى نجده عندنا او بشكل يقرب منه . فالناحية الاجتماعية من اخلاق الافراد قوية ومتمكنة منهم بشكل يجعلهم يحسبون للجماعات حسابا

والفرق بين فرديتنا واجتماعيتهم واضح من امور كثيرة متعددة نذكر منها واحداً وهو طريقة التحدث عند الكثيرين منا . فانك تجد الناس عندنا يتحدثون بشكل اقرب للخطابة منه للحديث ، بمعنى أن حديثهم يتعدى اذن السامع الواحد أو السامعين القلائل الى الكثيرين الذين قد لا يودون ان يسمعوا ثرثرة احد من الناس . فقد يكون بعض الناس ميالين الى الجلوس الهادىء والراحة والسكوت ولكنهم مرغمون على أن يستمعوا لهذا الذى يتكلم فى علاوات الموظفين أو تعديل الدرجات وما اشبه . بينما ليس لهؤلاء من علاوات الموظفين أو تعديل درجاتهم ناقة ولا جمل ، ولكن هكذا يريد ذاك ان يتحدث . وهكذا يصر على أن تسمع الدنيا حديثه بينما هذا لا يعنيها فى كثير أو قليل

كنا مرة جلوسا فى الترام فى نيوهافن من اعمال ولاية كونتكت بالولايات المتحدة ، وكان ولد صغير يتحدث الى امه بصوت مرتفع يصل الى آذان من لاشأن لهم فى الموضوع ، فقالت الام لابنها « يابنى اخفض من صوتك »

ـــ لماذا ياأمى ؟

ـــ لأن الناس موجودون حولنا بكثرة . ومن المستحسن ان لاتسمعهم ماتريد ان تقول

ـــ ولماذا ذلك ؟ انا لااتكلم فى اسرار

ـــ هذا حق ، ولكن من حق الناس ان لايسمعوا صوتك خصوصاً متى كان مزعجاً لعلوه ، من حق الناس ان يجلسوا هادئين اذا ارادوا ذلك ، وهم بالطبع يريدونه ، والا فقد كانوا يصيحون لو انهم لايفضلون الهدوء

فما كان من الطفل إلا أن أخذ يتكلم بصوت منخفض لم نعد نسمعه ، ولم يعد يعكر الهدوء والسكوت المحيطين بنا الا جعجعة مجلات الترام

واذن يدفعهم تقديرهم للجماعة لان يسعوا وراء راحتها ، ويدفعنا عدم تقديرنا لها إلى ان لانقيم وزنا لما ترغب فيه الجماعة ، وأظن ان الفرق بين الحالتين انما يرجع إلى التباين بين الجماعتين ، فهنا جماعة ضعيفة ضعفا كبيراً وهنالك جماعات قوية تجبر الافراد على احترامها وعمل حسابها ، ولكى نبين الفرق بين الجماعتين نذكر هذه الحادثةالثالثة ، وبها سنختم هذا الفصل ، ونترك ذلك الموضوع ـــ أى الفردية ـــ عند هذا الحد

الحادثة الثالثة

كنت فى احدى الخيام ، والخيام هذه تطلق على نظام فى أمريكا محصله ان مئات الالوف لا بل بعض ملايين الصبيان يقضون اجازاتهم الصيفية فى خيام فى الغابات والجبال على شواطىء البحيرات بعيدين عن عائلاتهم وبيوتهم وذويهم ، هنالك يعيشون مع صبيان من سنهم تحت ملاحظة قادة وزعماء من البالغين ، والغرض من الخيام هو انماء اخلاق الصبيان وتنمية ملكاتهم ، ثم تدريبهم على كثير من العادات التى تعود على حياتهم بالفائدة ، وبلغ من شأن الخيام فى نظر المربين ان اليوت رئيس جامعة هارفارد قال مرة ان خير ماعمل لصالح التربية بأنواعها فى الولايات المتحدة فى بحر الخمسين السنة الماضية هو هذا النظام ـــ نظام الخيام

كنا فى احدى هذه الخيام اذن . وحضر بعض الصبيان يشكون صبياً لمدير الخيام Camp Director ومحصل هذه الشكوى ان ذلك الصبى فردى لايعبأ كثيراً بالجماعة التى تضمه . فالطعام لايعجبه مع ان الجماعة كلها تأكل منه ، والالعاب التى يقومون بها لاتوافق مزاجه ، ثم هو يصر على ان تستمع الجماعة له ، وأما هو فلا يحب ان يستمع لها . فما دامت تعمل مايريد فهو معها ، ولكنها اذا عملت ماتريد هى فهو أول الشاذين

كانت هذه محصل الشكوى ، وحاول المدير ان يصلح من شأن هذا الصبى بالنصيحة فلم يفلح لأن فرديته متأصلة فيه . وأخيرا حضر الصبيان الى المدير مرة أمامى وقالوا له هذ الكلام بحرفيته أو بمعناه « نرجوك ان تترك أمر هذا الصبى لنا . ولا نطلب منك إلا ان تغمض عينك عما يجرى برهة » فقال: « افعلوا ما أنتم فاعلون بعقل وبقصد » فقالوا « لانعتزم أمراً يضر أحداً » وانصرفوا

وبعد قليل حضر اليه الصبى باكيا وقال « لقد ضربنى رفقائى » فقال المدير « حسناً . اذهب وافعل كما يفعل رفقاؤك سواء بسواء ، لاتشذ عنهم فى أمر من الامور ، افهمت ؟ » فقال الصبى « نعم فهمت وسأفعل »

وانتهت المسألة

obeikandl.com

الباب الثاني

الإطاحة

obeikandl.com

الفصل الأول

كبرياء يقود الى العصيان

شرعنا فى يوم من الايام ان نلعب كرة السلة . ولأن هذه اللعبة عنيفة نوعا نصر على ان يرتدى الصبيان ملابس اللعب حتى لاتتسخ ملابسهم العـــادية . وارتداء هذه الملابس غير مرغوب فيه كثيراً عند الصبيان لأنهم يفضلون ان يلعبوا من غير ان يكلفوا أنفسهم هذه المشقة . وماذا عليهم لو اتسخت ملابسهم العادية ؟ وهذا بالطبع لايروقنا كثيرا ولايعجبنا لأنه لايليق فى حد ذاته أولا ولأنه يضربهم ثانيا — ذلك لأنهم لايستحمون بعد اللعب ويخرجون الى الشارع والعرق يتصبب منهم فيأخذهم البرد . لهذه الاسباب جميعا قررت ان الصبيان لايلعبون هذه اللعبة من دون ان يرتدوا ملابس اللعب ، واصريت على تنفيذ هذا الامر مهما كلفنى ، اليس هذا لصالح الصبيان ولنظافتهم ووقايتهم من البرد ؟ هو كذلك واذن فلنفعله

يلاحظ القارىء ان هذا تعسف نوعا ما وان كان له مبرر من الاهتمام بصالح الصبيان ولكن الصبيان لايسعون وراء صوالحهم وانما يسعون وراء أهوائهم وشهواتهم ورغائبهم . والرغائب ملحة ملحفة تضغط نفوسهم فلايعودون يهتمون لشىء إلا لتحقيقها واشباعها ، ومتى تحكمت الرغبات والشهوات لايعود ينفع العقل أو المنطق وخصوصا مع الصبيان ، أما والامر كذلك فان من يقف فى سبيل هذه الرغبات والاهواء يعد متعسفا فى نظر هؤلاء الصبيان الذين لايستطيعون أن يروا الدوافع الحقيقية لتشدده فى الامر

وبالطبع أشعر بعد الاختبار ان هذا المسلك خطأ من جانبي ، بمعنى أنى

كشفت بصول الممارسه ومعاجة هؤلاء الصبيان انه يجب ان لا أقرر أمرا بطريقة تعسفية . حتى وان كان ما أقرره لفائدتهم المحضة . وهو فى الواقع كذلك . هو لفائدتهم من جميع الوجوه . ولكن هذا لايغير فى الامر شيئا . ولا يبرر أن ارتأى الرأى وانفذه من غيرأن يكون لهم رأى فيه . أستطيع ان أفعل هذا لأنى بحكم سنى ووظيفتى فى هذا المعهد أملك من الوسائل مايجعلهم يخضعون لهذا الرأى ويقبلون على تنفيذه فيسيرون على النظم المدرسية المعهودة فى بلادنا . أما ان فعلت هذا فانى أريح واستريح ولا يكون ثمة مجال للأخذ والعطاء . ويفهم الصبيان حدودهم ويقبلون أو يرفضون ثم يتحملون النتائج لهذا الرفض والقبول

ولكنى أقول ان هذا خطأ ليس لأن المربى يتعدى الحدود اذا أخذ بهذا المبدأ فقط بل لأن الصبى لايستفيد الفائدة الاخلاقية المرجوة من هذا التصرف . ويصبح خاضعاً لنظام مدرسى عسكرى يسلبه حق الاعتراض ويفرض ان لاحق له من هذا القبيل على الاطلاق . وما يفرض فيه إلا الخضوع والاستسلام

والحق ان هذا هو المبدأ السائد فى معاملتنا للصبيان وتجد ان كثيرين من الآباء والمربين عندنا لايرون له بديلا لا بل يظنون أن ماعداه فوضى لاتعدلها فوضى وان الاطفال لايعرفون الصالح من الطالح فيجب ان يحملوا حملا على مايزعم المربون والآباء أنه لفائدتهم

سرت اذن على هذا المبدأ فى بعض الحالات . ووجدت بالاختبار والممارسة ان هذا خطأ ، خطأ من هذه الوجهة وخطأ من وجهة النظريات الحديثة للتربية ، وعلى هذا يحسن بالمربين ان يعدلوا عن أمثال هذه الطرق التى لاتعود منها فائدة اخلاقية على أحد . والى القارىء بعض الحالات التى عرضت للمؤلف من هـــذا القبيل . والمؤلف عالجها بالطبع على الطريقه التى ربها . وافقة بغض النظر عما اذا كان الصبى مقتنعاً بصواب هذا العلاج أو غير مقتنع : وبمعنى آخر سرت على

الزعم انى ادرى فيجب ان انصح وارشد . وان الصبيان لايدرون فيجب أن ينتصحوا ويسترشدوا ويجب ان يعملوا بنصائحى وارشاداتى

نوينا ان نلعب كرة السلة اذن فطلبت الى الصبيان الراغبين فى اللعب ان يرتدوا الملابس الخاصة ، وكنت أسأل كل فرد بمفرده هل يريد ان يلعب فان أجاب بنعم طلبت اليه ان يرتدى ملابس اللعب وان أجاب بلا تركته لشأنه وسألت غيره وهكذا . دنوت اذن من صبي هو أكبر الأعضاء جسما وسنا ، وكان يبلغ السادسة عشرة من عمره سألته هل يحب ان يلعب أم لا . ولما أجاب بلا وأعتذر بأنه خارج لشأن من الشئون تركته لحاله

اجتمع لنا عدد من الصبيان فقسمناه الى فريقين وأخذوا يلعبون وأنا أحكم لهم ، وفى أثناء اللعب رجع الصبى الكبير وقال

— أنا أحب أن العب

— فقلت حسنا ، ارتد ملابسك وانضم للاعبين

— أحب أن العب بملابسى العادية لأنى سأخرج الى شأنى بعد حين

— كلا لا تلعب بملابسك العادية

— أرجو أن تصرح لى بذلك

— لا أصرح لك به

— أرجوك

— لا ترجونى فيما لايجدى ، أما أن تلبس ملابسك أو تبقى خارج الملعب لانى لا أسمح لك بأن تعطل هؤلاء الصبيان

— معلهش

تحرجت المسألة اذن ، وتوقف الصبيان عن اللعب ليروا كيف ينتهى هذا الفصل البارد ، ووقوف هؤلاء الصبيان وانتظارهم وتطلعهم للنتيجة عامل سيء فى هذه الظروف ، لأنه يقطع خط الرجعة على الصبى ويدفعه لأن يكابر ويندفع فى هذا السبيل الى آخر مداه ، أما من ناحيتى أنا فقد كنت أرحب بأى ظرف يشفع

لهذا الصبي ويقدم لى عذراً فى مسامحته وتركه لشأنه . ولكنه واقف فى الملعب لايريد الخروج منه . ويصرعلى ان يمعن فى هذا المسلك يفعل هذا وهويبتسم ويطل فى وجهى كأنه يرجونى ان لا أنظر الى هذا التصرف بشكل جدى . وبمعنى آخر كان لسان حاله يقول « لا تغضب لانى أمزح . ولكنى أرجوك أن تتسامح فلا تكسفنى أمام هؤلاء الصبيان لانى كبير ولأنهم يثقون بشجاعتى . ومركزى بينهم مركز الزعيم . فان فعلت شيئاً حازما . أو أصررت على رأيك فسوف لاينظرون الى بمثل ما كانوا يفعلون وأنزل فى أعينهم درجات »

هذا ما كان يوشك أن يقوله صراحة . وهذا ما كانت تترجم عنه نظراته الى فى وسط الملعب . ولكنى لم أعبأ لهذا ولم أرد ان أقيم له وزنا أو اعتبارا ، لانى لو فعلت لما كان ذلك الا على حساب ادارة المعهد وكنت أدفع من كرامة المعهد ثمنا لكبريائه ، فلا يستقيم فى عرف عاقل ان يعمل حسابا لكبرياء الصبي ويغفل كرامة العائلة أو المدرسة أو المعهد . خصوصاً وان الصبي ملوم ويستنكف ان يرجع عن غيه ومما زاد الحالة ضغثا على ابالة ان الصبيان جميعهم واقفون يشهدون وانهم مستعدون لأن يتعلموا الدرس الذى يلقى عليهم فى هذا الظرف

وما زادنى تشدداً فى هذا أنى كنت قد أطلعت عل جزء من تاريخ حياة هذا الصبي وعرفت بعض وسائله التى يستخدمها فى بيته لنيل مايريد ، فقد حضر الى أخوه الأكبر يشكو من تصرفه ويقول ان هذا الصبي عصبي المزاج جداً حاد الطبع الى درجة مروعة ، ومتى تشبث برأى واصر عليه فلن تستطيع قوة فى العائلة ان تنزله عنه لأنه يصرخ ويستجير ويركبه عفريت ويقلب المنزل رأساً على عقب ، وقد أوشك مرة أن يطعن نفسه بسكين لأننا لم نعطه سؤله للتو والساعة ، وكاد مرة أخرى أن يقذف بنفسه من النافذة ويدك عنقة لأننا ترددنا فى إجابته الى

ملتمسه . كل هذا يفعله . وأعظم من هذا يفعله . فلا يرده عما ينويه شيء . . . . انه عصبي جداً يا فلان افندي . . . . وقد ورث هذه العصبية عن جدته لأبيه لأم جدته . . . . لهذه الأسباب نصحت للعائلة أن لاتقف في سبيلة أو تعترضه بل تدعه لشأنه يفعل ما يروق في عينيه . . . . . والحمد لله لقد اتصحت العائلة وأخذت برأيي وسمعت مشورتي . . . . ثم تركناه لشأنه .

تذكرني هذه الظاهرة بظاهرة أخرى اجتماعية بليت بها بلادنا دون بلاد الله وهذه الظاهرة هي الزار . . . . الظاهر ان بعض نسائنا عصبيات جداً ، ثم عصبيات جداً ، وان الجن والشياطين لا (يخاوون) الا أمثال هؤلاء . وانه يحسن بالرجال أن يتركوا نساءهم وشأنهن يفعلن ما يحلو لهن لان العفريت متحكم ، والعفريت قوى لايغلب . وقد يقذف بالتي عليها الزار من النافذة ويدك عنقها . وبالطبع هذا يعز علينا جداً . ويجب ان نتجنبه مهما كان الثمن الذي ندفعه

والعصبية هي المذكر للزار — فالثانية تنصرف للاناث والاولى تنصرف للذكور ، فهذا الصبي الذي نحن بصدده عصبي جداً ولهذا فهو بزعم أن له عذرا في هذا

كنت أعلم هذا اذن عن هذا الصبي ، وشعرت انه في حاجة إلى درس يحفظه ولا ينساه ، والظاهر انه شعر بحروجة الموقف فاراد ان يحذرني فقال

— أرجو ان لاتغضبني لأني عصبي واظن ان اخي اطلعك على هذه الناحية من حياتي

— فقلت إذن اخرج في الحال

— فقال لايستطيع احد ان يخرجني لأني عضو هنا ولاني ادفع اشتراكا مثل باقي الأعضاء فلي الحق فيما لهم ، كيف تخرجني ؟ لا يمكن ذلك

ثم علا صوته كأنه يستدعي عفريته أو يستجلب زاره او يهوش حتى نسلم بما يريد

فدعوت الخادم وامرته ان يقذف به خارج ابواب المعهد ، بأسرع مايستطيع ، ففعل وعدنا للعب

ثم عاد الصبي بعد يومين او ثلاثة وهو لايتألم إلا لشيء واحـــد وهو انني استخدمت بربرياً قذراً لاخراجه عنوة من المعهد ، فافهمته ان البربري ليس حتماً قذراً أولا ، وانني قصدت ان يتعلم درسه مرة واحدة . ثانيا ، فقال

ـــ ويعني ماذا كان يجري لو صرحت لي بان ألعب ؟

ـــ وماذا كان يجري لو صدعت بالامر وخرجت من الملعب من غير أن تكابر

ـــ لكني طلبت أن العب فكان يجب أن يجاب طلبي ولا يرفض أمام كل هؤلاء الصبيان

ـــ وانا كنت قد رفضت فكان يجب أن لا تقاوم الامر امام هؤلاء الصبيان اذا كنت انت تستنكف أن ترجع عن خطأك امام الصبيان فكيف ارجع انا عن امر ما زلت موقنا انه صواب :

ـــ الحق اني اخطأت من الاول ولكن هل كان هذا يستدعي مثل هـــذه الاهانة تلحقني ؟

ـــ كان يستدعي اكثر من ذلك وما زلت اشعر انك كنت تستحق ما نالك

كان يتحادث معي والدموع تسيل من عينيه فمسحها وانصرف

قد يزعم البعض أن هذا ما كان يجب أن يعمل في مثل هذه الظروف لأن مثل هذه الروح الرديئة لا يجب أن تسود معهداً محترماً مثل قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية لانها تستطيع أن تقضي على كل حسن وجميل فيه ، وتوشك أن تنشر الفوضى بين جدرانه . والفوضى والاخلاق لا يجتمعان ، واقل ما كان يقدر من النتائج لها ان باقي الصبيان يدرجون على هذا ويستقر في افهامهم أن العصية هي عصا الساحر التي تذيل الفرد جميع ما يتمنى . واظن ان الكثيرين يزعمون أن هذا هو الذي يكون اذا

ترك الحبل لهذا الصبي واذا اطلق له العنان لينال ما يريد بهذه الوسائل السخيفة

ولكن هنالك امراً كان يجب ان احتاط له وان اتدبره حتى استطيع أن سبق الحوادث واتقي مثل هذه الحالات وهذا هو الرأى العام أو روح الجماعة (Group Spirit) وهذا ما سوف نتكلم عنه فى فصل تال عندما نبحث الوسائل الايجابية للتربية الاخلاقية . وانما يكفى هنا أن اقول انه لو كانت فرقة كرة السلة منظمة ، ولو كانت تشترك فى وضع القوانين وتنفيذها ، ولو كان لها رأى فى كل هذا لما استطاع هذا الصبي ان يتصرف بهذه الطريقة ولكانت الجماعة أول من يعترض ويثور ويهم بانزال العقاب

فى هذه الحالة كان ينقلب وضع الاشياء ، فعوضاً عن انهم جميعاً يقفون متفرجين ينتظرون تطور الحوادث ويتكهنون عن نتيجة هذا النزاع ليروا أى الطرفين هو المنتصر ، نقول عوضاً عن هذا يكون المتفرج هو انا ، ويكون انى اقف هناك انتظر فعل الرأى العام فى تأديب احد الشواذ الفرديين العاصين واتدخل فى الوقت الملائم لانقذ الصبي ، ويكون الصبي فى هذه الحالة قد تعلم الدرس الذى يجب أن يتعلمه فلا يعود يلعب بالنار

اما والامور قد سارت فى هذا السبيل فلم يتعلم الصبي على ما اظن الا امرين اثنين وهما اولا انه ليس كفؤاً لمدير المعهد وان لقوته حدوداً لا يجب ان تتعداها والا اصطدم بقوة اكبر وانخزل ، ولا اظنه تعلم هذا الدرس بشكل عام يستطيع ان يطبقه فى جميع الحالات . وانما غاية ما علم ان مدير هذا المعهد بالذات يستطيع ان ينفذ فيه ما يراه ، وعلى هذا فلا يحسن به ان يجرب نفسه فى موقف آخر معه ، وهذا كما لا يخفى درس بسيط ضئيل الشأن لا يستحق كل هذا العناء

وتعلم ثانيا انه قهر على امره ، وان قاهره فرد بذاته ، ولا يمكن ان تصفو نفسه من ناحية هذا الانسان ، قد تأخذ الظواهر شكلا طبيعيا ولكن نفسه مازالت تحمل حزنا دفينا واثراً بعيد الغور ، وما يخسر من هذه الحالة الا المربى لأن سبيله الى نفسية الصبي لم تعد سهلة معبدة

الفصل الثاني

بحث نظري في الطاعة

لقد مرت بالمؤلف حالات كثيرة كان فيها العصيان ظاهراً صريحاً ؛ ولكن قبل أن يذكر بعضاً من هذه : وقبل ان يذكر بعض الحالات الاخرى التي كانت في ظاهرها عصياناً وفي باطنها شيئاً آخر بخلاف العصيان : والتي كثيرا ماتلتبس على المربي فيحار وتدفعه حيرته الى الغضب والانفعال ؛ قبل ان نذكر شيئا من هذا يحسن بنا ان نقول شيئا عن الطاعة نفسها : حتى تستقيم الامور في افهامنا ، وحتى لانضل في مسالك النفس المتشعبة يجمل اذن بنا أن نبحث الطاعة من الوجهة النظرية حتى نستطيع ان نرى مواقع الاقدام فلا نضل في الاسباب والدوافع

الحق أني أشعر ان الطاعة أمر يختلط على الافهام . وتدخل عليه عوامل كثيرة تزيده تعقيداً وتجعله ابعد من أن يكون مفهوما أو معقولا ؛ يختلط الامر في افهام الآباء والمربين اختلاطاً كبيرا . وتتشوس عوامله في نفوسهم فلا يعودون قادرين على ان يحللوا تلك العوامل تحليلا قريباً للمنطق والعقل . فالطاعة من الآداب والفضائل حيناً والصبي الذي لايطيع شرير وخاطىء وتجوز عليه أنواع العقوبات . هذا من ناحية . وأما من الناحية الاخرى فان الصبي المطواع الذي لايخالف أمراً يكون قليل الحيلة عاجزاً ضعيف الشخصية والنزوع

لقد درجت الناس على الاعتقاد بأن الصبي يجب ان يطيع الأب والأم والاستاذ ثم يطيع الاخوة الكبار في بعض الحالات والبالغين على العموم في بعض الحالات الاخرى . ولماذا يجب ان يطيع هؤلاء وأولئك ؟ هل خطر في بال الأب والام والاستاذ وأمثالهم ان يسألوا أنفسهم هذا السؤال ؟ لا أظن : ولماذا يكلفون

انفسهم مشقة السؤال ؟ ان الصبي موجود . والاب كذلك موجود . وما على الاول إلا ان يكون رهن اشارة الثاني من دون ان يكلف انسان نفسه مشقة السؤال والجواب . وهل ينتظر ان يكون الامر بخلاف ذلك ؟ هل يدعو انسان الى عصيان الاولاد ؟ هذه مصيبة . والمربي الذي يدعو الى ذلك مجنون . وما على الآباء وباقي المربين إلا أن يدمغوه ويرسلوه للشيطان

وأما ماعدا ذلك فالامر لايختلف فيه اثنان لأن من طبيعة الانسان ان يطاع ومن طبيعة الطفل ان يطيع . فرغنا من الموضوع . انتهينا . لم يعد فيه قول يقال

هذا هو محصل السياسة التي نسير عليها من غير تردد أو تبصر فلا يقف أحد منا ليتساءل هل هذا صواب أم خطاء وهل يتفق مع التربية الحقة للصبيان أم لايتفق . كل هذا لا يدخل في نظام تفكيرنا . والحق أننا لانفكر أصلا في هذا الموضوع . وكل مانفعله هو أن ندرج على العادة والعرف والتقليد . وليس لهذه جميعا رأي بخلاف هذا

أنا لا أدعو الى العصيان والتمرد . ولا أشجع الصبيان على هذا . فكثيراً ماعاونت الآباء على تقريب المسافات بينهم وبين أولادهم ، وكثيراً ماعاونت وجهات النظر على أن تتقابل وتسير في اتجاه واحد : ولكن كل ماأدعو اليه هو ان يرجع الآباء والاساتذة الى نفوسهم ويسألوها هل للصبي حق في ان يعصى ؟ ومتى يكون له هذا الحق ؟ واذا لم يكن له مثل هذا الحق فلماذا لايكون له ؟ وهل تعود اضرار العصيان على أخلاق الصبيان فقط ؟ أم نبغضه فقط لأنه متعب للآباء والاساتذة ؟ كل هذه الاسئلة وأمثالها يجب ان تبحث باخلاص وبصراحة بين الآباء والاساتذة وبين أنفسهم ، فاذا اكتشفوا أن الطاعة في كل ما يأمرون به لازمة من لوازم الاخلاق في الصبيان فليفعلوا وليحملوهم على الطاعة حملا . وليذهبوا في هذا السبيل الى أقصى ماتصل

ولكننا نرى أن الطاعة قد انسحبت الى أمور كثيرة لم يكن يحسن أن تنسحب عليها . أو عبارة أخرى قد اتسعت دائرتها الى ان صارت تشمل أمورا كان يحسن أن تكون خارجة عن دائرتها : فالاصل فيها كما نرى أنها ضرورة قضت بها الظروف فقط . فالطفل جاهل بأحوال البيئة التي يتعامل معها لذلك صار حتما لزاماً عليه ان يرجع الى أبيه وأستاذه ليأخذ رأيهما فيما يعرض له . ثم لانه قد يتعرض لأخطار نفسية وبدنية كثيرة وجب عليه ان يأتمر اذ يؤمر بشيء . فالاصل فيها اذن فائدة الصبي ليس غير . أي أنه لا يجب ان يكون للوالدين والاساتذة مصلحة في ذلك لأن هذا النظام لم يوجد لخيرهم هم

كل هذا واضح ظاهر . ولكن الأمر اختلط اختلاطاً كبيراً . فصارت مصلحة الوالدين والاساتذة مقدمة في الاعتبار على ما عداها . وصارت الطاعة واجبة على الصبيان لان ذلك مما يسهل الامور لهم . يقول رختر « لاقيمة اخلاقية للطاعة في نفسها وبغض النظر عن الدافع لها . وكل ماتستطيع الطاعة ان تفعله هو ان تسهل الامور للوالدين »

فاذا كان كل مانسعى اليه هو تيسير الامور للوالدين فقط فقد عرفنا الطريق لذلك . وماعلى هؤلاء إلا ان يقسروا اطفالهم على الطاعة وكفى . يستطيع الوالدون ان يرغموا الاطفال على ان يستمعوا لهم وينفذوا أوامرهم — وكان الله يحب المحسنين

ولكن الوالدين على الاطلاق ينكرون ذلك ولا يسلمون بأن الدافع للطاعة راحتهم هم . قد تستطيع ان تبين للأب ان تصرفه مع الصبي لايقصد منه إلا تسهيل الأمور للأب نفسه . وقد يقبل ذلك منك اذا ماأحكمت المنطق وضيقت عليه الخناق . ولكن عند ماياتي دور العمل فعلى المنطق العفاء . لقد أمر الأب ويحسن بالصبي ان يطيع

فالأمر كما نقول لانه عنـد مايامر الاب او الاستاذ طفله تكون قد تنبهت فيهما الشخصية . وتكون هذه الشخصية (Individuality) قد تحركت لاثبات وجودها الفعلي بأى شكل من الأشكال . تكون قد شعرت ان الامر هو عبارة عن تنازع بين شخصيتين . وان هذا التنازع أخـذ يدور حول السيادة بينهما . فالأب يأمر . وهـذه حالة من حالات النفس حينما تحاول ان تسود . ثم يعصى الابن . وهذه أيضاً حالة من حالات النفس حينما تحاول ان تستقل وتتحرر ، أو تحاول ان تثبت لشخصيتها وجوداً . ثم يبدأ النزاع بأمر من الأب وبعصيان من الابن ، ومن ثبت منهما وأوغل فى خطته فهو الناجح

عنـــد هذه النقطة تستيقظ العواطف . لأننا لانستطيع ان نرى نزاعا بين شخصيتين من دون ان تلازمه العاطفة الهوجاء . وعنـد ماتدخل الاهواء فى الموضوع لابد ان يغفل خير الصبي كل الاغفال . فالأب موتور أو يشعر أنه كذلك . والابن مظلوم أو يظن ذلك

أنا لاأزعم ان كل هذه الخطوات يأتيها الوالد أو الاستاذ عن قصد وروية . كلا لست أزعم ذلك ، لانى كنت استاذاً وما زلت كذلك من بعض الوجوه . واعرف بالاختبار أيضاً ان مايجول فى نفس المربى فى حالة كهذه ليس شيئاً سوى شعور وعاطفة ، وانه عند مايفعل أمراً يفعله عن شعور وعاطفة أيضاً بغض النظر عن خير الصبي

ولكى أحل هذا المشكل أخذت على نفسى عهداً ان لاأفعل شيئا للتو والساعة متى كان ذلك مستطاعا ، وهو مستطاع فى نظرى فى معظم الحالات فعند ما تعرض لى حالة من هذا القبيل اترك الامر عند حد معلوم ، وأعطى فرصة للصبى ولنفسى حتى تنصرف العاطفة والشعور ويعود العقل متملكا لزمام النفس ، ثم افعل بعد ذلك ماأنا فاعل ، وفى معظم الحالات تنتهى المسألة بأحسن الطرق ، فيرى الصبي

وجهة نظرى وأرى وجهة نظره ، ثم نتعاون فيما يعود على اخلاقه . ويكون ذلك بالممارسة والبحث من غير تعنت أو ثوران فى النفس . يقول صورز أحد أساتذة التربية بجامعة شيكاغو « اذا لم ير الطفل الحكمة فى بعض أنواع السلوك الذى يطلب اليه ان يفعله فعلى الاباء ان يوضحوا له ان الحكمة فى بعض الامور قد تغيب عنه . وانه يجب عليه ان يفعل مايطلبون ليس على سبيل الطاعة بل لانه يثق بمحبتهم له وانه فى حاجة الى نصائحهم وارشادهم . أو بعبارة أخرى يجب أن تسعى التربية الاجتماعية لان تنتزع السلوك من دائرة الطاعة لتضعه فى باب الاستماع لنصائح المجربين »

فانا لاأدعو الصبيان إلى العصيان ، ولا أدعو الاباء الى التساهل مع أولادهم فى العناد والتمرد ، لان مثل هـذا خطر على أخلاق الصبيان ، وانما كل ماأدعو اليه هو انه لايضع الاباء كل طلباتهم فى صيغة الامر والنهى لان مثل هذه الحالة تنتج أحد أمرين . أما أنها تستلب النزوع والارادة والاستقلال من الصبيان وتحرمهم من قوة الشخصية التى هى من مستلزمات القيادة والزعامة — أو أنها تجعلهم يتمردون على والديهم ويعصون ، فيتولد الاحتكاك والتنازع بين الفريقين ، وقد ينقلب كل هذا الى حقد وكراهية من الجانبين

فاذا أردت من ابنك ان يفعل شيئاً اطلبه منه بلطف ولا تنس ان تقول « من فضلك » ، فاذا رفض الطلب ، يجب ان لايكون هذا سبباً لثوران العاطفة فيك فتحمله على ماتريد بالقوة ، بل حاول ان تفهم لماذا لايريد ان يفعل هذا ، وباحثه فى الأمر كما تباحث صديقاً لك ، واشرح له وجهة نظرك وبين له لماذا تريد منه هذا الأمر . فللطفل الحق أيضاً فى ان يفهم لماذا هو مطالب بفعل هذا أو ذاك ، يجب ان توضح ذلك له بلغة سهلة بسيطة حتى يفهم ، ومتى فهم فقد يقتنع ويفعل مايراد أن يفعله

ليس ذلك من حق الصبيان فقط بل هو لصالح الاباء ايضا . فقد يجوز أن الطفل يعصي لأن له من الاسباب ما يبرر هذا العصيان . وقد تكون هذه الاسباب مقنعة عند ما يعرفها الوالدون والمربون . ليس هذا ببعيد ، فلماذا اذن لا يتأنى الاباء ويصبرون حتى يعلموا الدوافع الحقيقية التي تدفع الصبيان الى العصيان ؟ فان الصبر والاناة هما من خير الامور للكشف عن تلك الدوافع وليس يضر الوالدين أن يعلموا بهذه الاسباب حتى وان كانت تافهة ، لانهم متى علموها وقدروها قدرها الذى تستحقه تيسرت الامور وهانت عليهم فيستطيعون ان يعالجوا صبيانهم على نيرة وبصيرة

أما اذا هاج الاباء وثارت عواطفهم وتنبهت فيهم غرائز حب السيادة والانتصار فسوف لا يسهل عليهم أن يرجعوا عن خطتهم بعد ان يكونوا قد قطعوا فيها شوطا كبيرا لأن العاطفة تعميهم عن أن يروا للصبيان حقا أو شبه حق والنتيجة لذلك أن الصبيان يظلمون لغير داع وعلى غير طائل والظلم قبيح ومضر على أى حال

ولست ادعو الى شيء نظرى أو خيالى لأنى قد اختبرته بنفسى فى معاملتى للصبيان ، ووجدت ان التريث والاناة من خير الطرق فى تقويم اخلاقهم على اهون سبيل . ووجدت بالاختبار ايضا انهم يستجيبون للعقل والمنطق ويقدرون للامور ظروفها واحكامها فى معظم الحالات وهم فى الاغلب مستعدون للاحتكام للمنطق والعقل

ولا ارى لهذه الطريقة الا عيبين الاول ان صبرى يكاد يفرغ فى بعض الحالات ولكنى اعتبر هذه من اغلاطى وليس من اخطاء الصبيان فاروض نفسى على الاناة والصبر . واسعى جهدى لكيلا اجعل الصبيان يتحملون نتائج تقصيرى انا فان فرغ صبرى كالحال مع معظم المربين والآباء يجب على ان اتحمل انا وحدى نتائج

تقتضي والاغلب انى انجح فى هذا الامر واما الامر الثانى فهو ان مثل هذه الطريقة تأخذ كثيرا من وقت الانسان . وهذه وان كانت من الامور المهمة حقاً فى نظر بعض الآباء والمربين . الا انها ليس مهمة عندى . وذلك لأن لى من الوقت ما استطيع ان اصرفه فى مثل هذا العمل . اشغالى كثيرة حقاً . ولكنى لا اسمح لها مطلقا بان تتدخل فى امر تربية الصبيان لان هذا فى نظرى اهم ما لدى من الاعمال

وبعد فمسألة الوقت يمكن تدبيرها لانه اذا لم يكن للاب او المربى متسع من الوقت يبحث المسألة مع الصبيان يحسن به ان يتركها معلقة الى وقت آخر وهذا فى الواقع افضل . لانه فى هذه الحالة يتسع المجال للاب والابن فيدرسان الموضوع بقلبانه على وجوهه الكثيرة . حتى عندما يعودان اليه يكونان فى حالة نفسية تسمح لكليهما ان يقدرا وجهة نظر الآخر . وعلى التفاهم المتبادل يتوقف كثير من التربية الاخلاقية

بعد هذا لايتبقى إلا حالات العناد الصريح المقصود لذاته . وهذا فى آخر الامر ضرب من الفردية المرذولة (Individualism) التى ليس لها منشأ فى رأيى إلا من محبة النفس بشكل مزر للجماعة ومحقر لحقوق الآخرين : وظاهرة هذه الفردية أو الزراية بالجماعة هو العصيان والتمرد . ولهذه الحالة حكم آخر . وهو التشدد من الوالدين والمربين . وليكن الحزم مظهر هذا التشدد بشرط ان لايكون هنالك غلظة أو شدة أو ضرب . لكم . فكل ماندعو الآباء اليه هو أن لايرجعوا على أعقابهم فى مثل هذه الحالة . وليكن هذا الحزم مقرونا بالصبر والاناة أيضاً . فليس يجدى ان يثور الآباء على أطفالهم

التراجع فى رأينا مفسدة للصبيان . لأنه يعلمهم أن يوغلوا فى عنادهم متى عندوا وذلك لأن الصبى عندما يرى ان الوالد تراجع يشعر أن صبره قد فرغ وأنه قد عجز عن أن يصل الى غايته . فيوقر فى ذهنه ان النزاع هو فى الواقع بين نوعين من

الصبر. ومن استطاع منهما أن يستمر الى آخر الشوط فذلك الذى يربح . ولا يحجم الصبي عن أن يبارى أياً كان فى هذا المضمار . وأغلب الظن أنه سيربح الرهان

ثم هنالك حالة أخرى نرجو أن يلتفت الآباء لها لأننا نشعر أنهم لم يقدروها قدرها فى كثير من الحالات مع أنها من أهم العوامل فى تمرد الصبيان وعصيانهم وذلك ان الآباء لا ينفكون يكررون على مسمع من الصبيان وعلى غير مسمع منهم ان هؤلاء شديدو المراس عنيدون لا يمكن لانسان أن يصدهم عما يشرعون فيه

يقول الواحد منهم « ابنى عنيد — رأسه ناشفة — يستحيل عليه ان يرجع فى رأيه » هذه الجمل وأمثالها كثيرة الشيوع فى عائلاتنا بشكل يجعل الانسان منا يثور فى قرارت نفسه

وليس لهذا الضرب من العقائد والآراء إلا نتيجة واحدة . وهى أنها تشجع الصبيان على العصيان والتمرد . لا بل تذهب الى أكثر من ذلك . فانها تحضهم على أن يعصوا ويتمردوا وتحبب اليهم ذلك وتفتح أمامهم الأبواب اليه . ومعناها الذى ليس لها معنى سواه هو هذا « يابنى أنا اؤمن وأعتقد ايمانا واعتقاداً لاشك فيه أنك صلب العود وعنيد . وأعلم أيضاً أن لاحيلة لى فى ذلك ولا استطيع أن أثنيك عن أمر تريده . فانا عاجز وأنت قوى . أنا متردد وأنت ثابت . وأعلم أنك سوف تفوز على فى كل أمر تتشبث به . وأنا مستعد لأن اسلم لك مقدما فى هذا المضمار . فدونك وما تريد »

حقا لا يقول الآباء كل هذا . وانما يقولون شيئا فى معناه ويقولونه مختصراً مقتضبا ، ولكنه يكفى على كل حال لأن يفهم منه الصبيان كل ماهم فى حاجة لفهمه وهنا لك شىء آخر وهو أن بعض الآباء يتغفلون أبناءهم ، فاذا جلست الى احدهم وتناول الحديث ابنه ترى أموراً مضحكة ، يغمز لك الاب بعينه ويهز راسه لناحية ابنه ويقول لك « عنيد جدا ؛ رأسه ناشفة » ويمضغ الالفاظ مضغاً كأنه

بهذا الضرب من الكلام والاشارات اغلق الامر على افهام ولده ، اما اذا كانت لك دالة عليه وتستطع ان تذكره بان مثل هذا الحديث لايصح فى حضرة الاولاد على الاقل فانه يجيبك قائلا « لا ماهو ما يفهمش » وهذا ضرب من تغفل الصبيان والاحتقار والزراية بافهامهم وهو لا يجوز ولايخلو من الخطر .

بعد كل هذا يتعجب الآباء لعناد أبنائهم فمنهم من يقول انها الطبيعة قد قضت بذلك وليس لقضاء الطبيعة الا التسليم والطاعة ومنهم من يقول ان الطفل قد ورث ذلك عن أمه أو أبيه أو أحد أجداده الاقربين فقد كانوا رحمهم الله عنيدين لايرجعون فى أمر من أمورهم وهكذا يسدرون فى هذه التكنهات الى غير حد ولو دروا لعلموا أنهم هم السبب فى ذلك وليس أحد سواهم

هم السبب فى ذلك أولا لانهم أوحوا لنفوسهم بالعجز ومتى شعر الانسان بأنه عاجز فى ناحية من النواحى ووقر فى ذهنه هذا العجز ولم يحاول له علاجا أو دواء أصبح حقاً عاجزاً ودرج على هذا ووطن نفسه عليه ولا يستهين الآباء بالايحاء الذاتى (Auto - suggestion) فان له قوة كبيرة فى توجيه الميول والنفس ذاتها الى الوجهات التى يريدها الانسان . ولقد غالى بعضهم فى هذا كل المغالاة حتى قالوا ان الايحاء الذاتى يشفى من الامراض البدنية الكثيرة ومن أمثال هؤلاء كويه العالم الفرنسى . ولست أنوى بحث هذه النظرية الآن ولكن يكفى ان اقول ان رأى كويه لم يعد له قيمة فى الدوائر العلمية ، ولكن بقى شىء واحد من كل هذا وهو ان الآباء يصيرون عاجزين حقاً عندما يستقر فى أذهانهم خطأ انهم عاجزون ومتى وقر ذلك فى أذهانهم لايعودون قادرين على ان يسوسوا صبيانهم

وهم السبب فى ذلك ثانياً لانهم يطلعون اطفالهم على هذا العجز يفعلون ذلك وهم لايدرون فى معظم الحالات ولكنهم يفعلونه على أى حال وبعد ذلك ماذا بقى من سياسة الاطفال ؟ لقد فرغ من الامر وصار الاطفال أحراراً يفعلون

مايريدون من غير رقيب أو حسيب

ومحصل رأيي فى الطاعة هو هذا — أولا انها من أحط درجات الفضائل ، وتوشك أن تكون خارجة عن دائرتها وثانيا يجب ان تستبدل بالممارسة والتفاهم من الطرفين . وثالثا من حق الصبي ولخيره ان يفهم لماذا هو مطالب بأن يطيع أباه فى كل حالة على حدتها . فليس يجدى ان يلقى الاب على ابنه عظة طويلة فى ضرورة الطاعة المطلقة المجملة بل يحسن ان يفهم الصبي لماذا يجب ان يطيع فى كل حالة بذاتها . رابعاً يجب ان لا يوقر فى أذهان الآباء انهم عاجزون عن حمل صبيانهم على الطاعة . خامساً يجب ان لا يشعر هؤلاء بعجز آبائهم لان شعورهم بهذا العجز يجعلهم يوغلون فى التمرد والعصيان سادساً لايجب ان نطلب الى الصبي ان يكون مطواعا يفعل كل مايؤمر به لان هذا يحرمه من النزوع وقوة الشخصية وهو أيضاً يقتل فيه روح القيادة والزعامة وعلى هذا يجب على الآباء أن يقللوا من الاوامر والنواهى مااستطاعوا الى ذلك سبيلا

من المفروض المسلم به ان الاعتراض على أمر لايأتى الا من انسان قوى النفس جرى على التعبير عما فى نفسه وفى الدفاع عنه ، حقاقد يكون هذا الاعتراض من الامور الغير مرغوب فيها فى بعض الظروف وقد يتسبب أيضا عن نقص اخلاقى عند مايكون الاعتراض لمجرد الاعتراض أو حبا فى الشذوذ عن الجماعة كما بينا فى الفصل السابق . قد يكون هذا حقا ، ولكنه حق من الجهة الاخرى أن المقاومة لاتأتى الا ممن كان قوى الشخصية حراً فى شعوره وفى التعبير عن هذا الشعور . هذا الصنف من الناس يملكون العوامل النفسية التى تشجعهم على البروز فى مجال الصراحة وفى مجال التمسك بالحقوق العامة والخاصة التى قد يشعرون ان خطأ وان صوابا انها قد مست فى ناحية من نواحيها ، هذا الصنف من الناس أحب اليه أن يفنى من ان يعيش مستعبدا فى الارادة والشعور والنزوع

والنفوس القوية هذه في حاجة الى التعهد والرعاية وليست في حاجة الى الضغط والكبح والاذلال . ومظهر قوة النفس هو الاعتراض بصراحة على ما لا يروق ، وأما مظهر الشخصيات الضعيفة فهو الطاعة العمياء التي ليس لها ارادة مستقلة

تدور هذه النقطة حول مذهبين متباينين في التربية . وهما المذهب القديم والمذهب الحديث . وليس المقصود من هذه التسمية تفضيل أحدهما على الآخر ، ولو استطعنا أن نسميهما بخلاف ذلك لفعلنا من غير تردد . لان الظرف الذي نعيش فيه والحياة الفكرية التي نحياها في هذا العصر قد أكسبت « الحديث » مزية الفضل والايثار على « القديم » فصار يكفي في مثل حالتنا هذه ان نسمي المذهب قديماً فينكر الناس له ، او أن هذا جديد حديث فيقبلون عليه اقبالا شديداً ، ولكن شيئاً من هذا لانقصد بهذه التسمية التي قدمناها ، وكل مانعنيه هو ان أحد المذهبين تقدم الآخر في الترتيب الزمني فصار أحدهما قديما والآخر حديثا ، وان كنا في حالتنا نفضل المذهب الحديث على القديم فليس ذلك ناتجاً عن شيء سوى متانة الاسس التي بني عليها كما سنبين في الصفحات التالية

يصعب جدا في مجال كهذا ان نستقصي المذهبين الى اصولهما التي خرجا منها أو إلى نتائجهما المحتمة التي سوف يقودانا اليها . يصعب ذلك لان بحثاً كهذا يستغرق كتابا قائماً بنفسه . وهذا بالذات ما لا ننوي أن نفعله في الوقت الحاضر لأسباب كثيرة اهمها ان الغرض من كتابنا الحالي يتنافى مع هذا الامر

وثمة نقطة اخرى يحسن التنبيه اليها قبل أن نذكر شيئاً عن هذين المذهبين ، وهي هذه : من أي وجهة اقتربت من هذا الموضوع يتحتم أن تبدأ فيه من نقطة معينة وقد تكون هذه النقطة نتيجة يقود اليها المذهب أو غاية يسعى اليها . ولما كان يتعذر علينا كما قلنا ان نستقصيه بالتفصيل فسوف يظهر للبعض أننا متعسفون في البدء بهذه النقطة ، فلماذا لم ننته اليها بدلا من ان نبدأ بها . أو كيف جاز لنا أن

نزعم ان هذا أو ذاك هو أساس هذه النظرية وليس الغرض الذى تقودنا اليه ؟ وهكذا من هذه الاسئلة التى نشعر فى أعماق نفوسنا أنها معقولة من وجوه كثيرة ، ولكننا كما قلنا نجد أنفسنا مضطرين لان نبدأ بشىء ما على أى حال . أما لماذا أخذنا بهذا ولم نأخذ بذاك — أو ماذا حدا بنا لان نبدأ به فلسنا ننوى ان نشرحه فى هذا المجال

يظهر ان السبب الذى حدا بالمدرسه القديمة لان تذهب هذا المذهب هو الزعم الخطأ بأن طبيعة الانسان شريرة من الاصل . لقد ولد الانسان بالخطية والخطية جزء لايتجزأ من طبيعته وكيانه ، فالشر ليس أمراً طارئاً على بنى الانسان لانه كما هو من عهد الخليقة الى الآن وسيظل كما هو الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، لم يطرأ على الانسان الا ما كان من المظاهر الخارجية كاللباس والمدنية بتوابعها من سيارات وقطارات وطيارات ونظم اجتماعية ، وكل هذة مظاهر خارجية لاتقدم ولا تؤخر فى الموضوع . وأما الانسان ذاته فى جوهره وفى تكوينه وفى طبيعته وميوله ونزوعه فهو هو بنفسه من يوم ان خلق وسيظل كذلك الى الابد

لانستطيع اذن ان نغير طبيعة الانسان من الميل إلى الشر ميلا متأصلا فى تكوينه الى الأخذ بأسباب الخير أخذاً منشأه طبيعته أيضاً . لانستطيع تغيير الطبيعة أصلا . ومن العبث محاولة هذا الأمر ، لابل من الغباوة ان نظن بأنه ممكن بأى وجه من الوجوه . فالسارق مثلا سارق بطبيعته والقاتل يقتل لأن تلك الطبيعة عينها تدفعه إلى هذا الفعل . وهكذا الحال مع جميع الشرور التى نجدها فى المجتمع ، فقد توارثناها جميعا كما توارثنا تلافيف مخنا سواء بسواء ، والى أن نستطيع تغيير تلافيف المخ وقلب المعدة والامعاء الى غير المعدة والامعاء لانستطيع ان نغير من ميول الانسان الشريرة ، لقد حق علينا قضاء الله وسوف يكون مستقرنا الجحيم وليس لنا منه مهرب

اذن ماذا يجب ان نفعل ؟ هل نظل مكتوفى الأيدى مغلولى السواعد لنشهد الانسانية وهى سائرة الى غايتها القاتمة المظلمة ؟ ماالخلاص من كل ذلك ؟ وأين منه المفر ؟ يقول أصحاب هذه النظرية يوجد مفر من ذلك والسبيل اليه الحديد والنار — أو العصا تعمل فى ظهور الصبيان . فما على الانسانية الا ان تحطم الصبيان وتذل نفوسهم وتأخذهم أخذ جبار عزيز . فاذا سرق الطفل الهب ظهره وأشوه شيأ . حذار من التهاون أو الشفقة ، لاتبق على طفلك ولا تذر أياك وأن تأخذك به الرأفة . اقص هذه العواطف عنك ، واعمل يدك ورجلك وعصاك حتى تنقذ الصبى مما هو صائر اليه بحكم طبيعته الشريرة الفاسدة

اعمل جهدك لان تنقذه من نار جهنم التى هو صائر اليها بحكم طبيعته الدنسة النجسة ، والعصيان هو أحد مظاهر تلك الطبيعة القذرة . لاتفكر . ولا تثرو فى الأمر . لا بل أفعل وأفعل سريعاً وفى حزم وقوة حالما تتبين ان للصبى ارادة من أى نوع . فارادة الصبى بدعة خطرة يجب القضاء عليها قضاء حازما وسريعاً ، لاتباحث الصبى فى أمر يتعلق بارادتك أو ارادته . لاتحاول اقناعه فى مثل هذا الأمر . فان مثل هذا العمل يقوده حتما الى الهلاك المحتوم . يقول جون ويسلى « حطم ارادة طفلك حتى لايهلك . حطم ارادته حالما يستطيع ان يلثغ بالكلام أو قبل ان يستطيع ذلك أصلا . يجب ان تكره الطفل على ان يفعل كما يؤمر حتى ولو اضطررت لان تلهب ظهره بالسياط عشرة مرات متتاليات . حطم ارادته حتى تستطيع روحه ان تدخل الخلود »

ولا يقتصر الامر على انكار ارادة الاطفال والتنكر لها . بل يتعدى الى الرغبات والميول . وهذا هو الاثم الذى ليس وراءه اثم . وذلك لسبب واضح وهو ان الطبيعة الآثمة لاتميل ولا ترغب الا فى الاثم والشر . والحل لذلك أيضا بسيط وهو التحكم فى تلك الطبيعة وليس تغييرها . كبل تلك الطبيعة وضع اللجم

فى فمها وأقبض على العنان بيدين قويتين ثم قدها الى الخير وانفها راغم. حرام ان يرغب الصبي فى شيء أو يميل الى شيء ، اعترضه فى كل رغباته وميوله وأفسد عليـــه الأمر وقف عقبة فى كل سبيل له حتى لاتتحقق ميوله أو رغباته ، هذا اذا كنت لاترغب فى ان يذهب ابنك الى الشيطان . يقول الاسقف ويلز فى سنة ١٨٠٢ ، حاول بأسرع مايمكن لان تقمع شهوات أطفالك ورغباتهم ، تحكم فيهم وارغمهم على ان يخضعوا ارادتهم لارادتك . . . . . فمعظم خطايانا ومتاعبنا التى نواجهها فى حياتنا هذه مرجعها الى عدم قمع رغباتنا فى عهد الطفولة »

ذلك هو لب المذهب القديم فى التربية . وهو مؤسس كما قلنا سابقاً على الزعم بأن الطبيعة شريرة فاسدة لايمكن اصلاحها ، وكل مايستطيع أن يفعله المربون معها هو أن يتحكموا فيها كما يتحكم الفارس فى فرسه ويأخذ بزمامها ويقودها الى المزود . وعلى هذا القياس يجب أن نأخذ بزمام الاطفال والرجال ونقودهم صاغرين الى الفضيلة والى الجنة والى الخلود

وأما نظرية التربية الحديثة فتختلف عن هذه فى كل النقط الاساسية ، فليست الطبيعة فى نظرها فاسدة ولكنها ليست صالحة ايضاً . وكل مانستطيع أن نقوله عنها انها الطبيعة ليس غير ، فهى المادة الخام التى نصطنع منها الرجال بأى شكل من الاشكال ثم تتساءل هذه النظرية قائلة . « من ادرانا أن الطبيعة صالحة أو طالحة ؟ ليس مايحملنا على الأخذ بأحد هذين الفرضين الاجهلنا بعوامل البيئة أولا وبمفعولها ثانياً »

نحن لا نعرف فى الواقع عوامل البيئة ولا نستطيع أن نحددها أو نحصرها . فليست هى ما يحيط بالطفل أو بالانسان فقط ، بل هى ايضاً تلبيته لما يحيط به أو ستجابته لمؤثراتها . فالنار مثلا جزء من بيئة الطفل ولكن لا اثر لها فيه الا عندما تنتزعه أمه بغتة وهو يقترب منها فليست النار فى هـذه الحالة عاملا من عوامل البيئة ما دامت منفصلة عن احساسه . وهكذا الحال مع كثير من عوامل البيئة

والوسط . ومتى ثبت هذا فقد عجزنا فى الواقع عن التفريق بين عوامل البيئة وعوامل الطبيعة

فعندما نجد نقصاً فى اخلاق الطفل من الخطأ أن ننسبه الى الطبيعة بشكل قاطع لانه علاوة على أن هذا الزعم هو رجم بالغيب لا تدعمه الحقائق فانه يغل ايدى الوالدين والمربين عن أن يساعدوا اطفالهم بوجه من الوجوه . وفى الواقع نحن لانستطيع أن نفعل شيئاً مطلقاً ما لم نسلم بأن للبيئة الاثر الفعال فى تكوين الناس . وبغير هذا فنحن عاجزون . لأنه من العبث أن نفترض انه فى استطاعة المربين أو الوالدين أن يغيروا طبائع الاطفال . ولكنه من المعقول أن نزعم انهم يستطيعون أن يتحكموا فى عوامل البيئة الى درجة محدودة

فالتربية الحديثة تغفل الطبيعة من الحساب . تغفلها من وجهة واحدة فقط وهى انها تفترض أن الطبيعة غير شريرة وغير فاسدة فى الاصل . ومتى سلمنا بذلك فقد وجب علينا أن نعالج ما يحيط بالطفل حتى تستقيم اموره وتتفتح طبيعته فيصير الى ما هو صائر اليه ، ومتى تساوت جميع العوامل الاخرى فالانسان صائر الى الخير والى الكمال والتمام — أو على الاقل ليس من المفروض حتما أن طبيعته تدفعه الى الهلاك

وعلى هذا فالنظرية الحديثة فى التربية تتعارض مع النظرية القديمة فى الصميم فحيث تدعو الثانية الى الشدة والصرامة . والى الارغام والقهر . تعارض الاولى فى ذلك معارضة شديدة وتزعم أن القهر ليس مما يساعد على تقويم اخلاق الاطفال لابل تذهب الى أكثر من ذلك . فهى تزعم أن الشدة والصرامة محققة الضرر من وجوه كثيرة

فالشدة أو القهر تؤلب عواطف الصبى وميوله ومشاعره ضد ما نريد أن نعلمه اياه مهما كان نوعه ، فاذا ما اضطر صبى لأن يسلك نوعاً معيناً من السلوك — واذا

ما ارغمه المربون على فعل ذلك فلابد وأن يأتى اليوم الذى يكتشف فيه المربى أن جهوده كانت عبثاً لا طائل تحته . حقاً لقد فعل الصبي ما يراد منه أن يفعله ولكن نفسيته لم تهضم هذا النوع من السلوك ولم تقبله على أنه فى دائرة رغباتها وميولها وعند أول فرصة تسنح لها سوف تركز هذا الضرب من السلوك بالقدم وتنفض يديها منه ، يقول دولى « لا يهم ما تعلم الطفل مادام لا يحبه ولا يرغب فيه »

ومن مستلزمات القهر التى لا يوجد من دونها فى أى ظرف من الظروف انه يخلق الرياء فى نفوس المقهورين . فهؤلاء يتظاهرون بالرضى والقبول . وترى الى وجوههم فلا تكاد تتبين فيها الا كل علائم الرضا والاغتباط ، ولكن الحقيقة بخلاف ذلك على خط مستقيم ، لأن النفس فى قرارتها ثائرة غاضبة وسوف تثور ثورتها العلنية فى أول فرصة تتاح لها ، وأما اذا لم تثر ولم تقاوم فهذا دليل مادى لا يدحض على انها فقدت حيويتها من طول الضغط عليها ومن توالى الاضطهاد والقهر الذى لازمها الى أن ارداها عاجزة لاحيلة لها ولا قوة . يقول سبنسر فى هذا الصدد « أن اقصى ما تستطيعه الشدة هو أن تخلق مرائين ومداورين ، ولن يستطيع القهر أن يوجد الراضين القانعين »

وليس ذلك فقط ولكن الشدة تذهب بكثير من النزوع او الارادة ومتى انتفى استقلال الارادة فقد ذهب الاساس الذى تقوم عليه الفضائل دينية كانت أم اخلاقية ، لأنه من المسلم به عقلا ان الفضيلة ليست كذلك إلا لأن للانسان مطلق الحرية والارادة لأن يتقبلها ويسير بموجبها ، وهذا مايذهب اليه كانت (Kant) الفيلسوف الالمانى كما بينا فى كتابنا السابق « التربية والاخلاق » وذلك لأنه يزعم ان الارادة هى الاساس الوحيد للفضيلة وهو يؤيد ماذهب اليه فى هذا المجال من لزوم الارادة الحرة للفضائل والآداب عامة

وأما القهر والضغط والارغام فهذه كلها تستلب الارادة من الانسان وتتركه

عاطلا منها ، وتجعله يسلم قياد نفسه الى الغير ليفعل بها كيف يشاء . وانسان هذه حاله لايجب ان يكون مسئولا عما يفعل أو يفكر أو يؤمن ، أى أنه لايكون مسئولا عن فضائله او رذائله ، بل المسئول عن كل هذه هو المراجع والسلطات الدينية او الاجتماعية التى ترسم له خطط السلوك والتصرف والايمان ، ففى باب الدين مثلا لو قررت جماعة من الجماعات ان تلهب ظهر كل من لايؤمن بوجود الله وملائكة وشياطين وجنة وجحيم فقدلايتبقى انسان واحد يتشكك فى هذه الامور ولـكن ماقيمة هذا الايمان فى نظر الفضيلة وفى نظر الله الذى يرى مافى النفوس وما تنطوى عليه الضمائر ؟ هل يتقبل الله مثل هذا الايمان ؟

وهـكذا الحال مع جميع الفضائل التى يقهر الانسان على أن يتظاهر بقبولها خوفا من عقاب أو تجنباً لايلام ، وأغلب الظن ان الناس فى عهدالبداوة والهمجية كانوا أكثر منا استمساكا بما كانوا يظنونه من الفضائل ومن الدين ، وذلك لسبب واضح وهو أن ارادة الانسان فى ذلك العهد لم تـكن تجد الحرية الكافية لتختـار لنفسها مايحلو ، وعلى هذا فقد كانت درجات الفضائل منحطة ولا شك ، وكان الدين خرافات أو مايشبه الخرافات وكانت السلطات الخارجية هى التى تتحكم فى ضمائر الناس وفى ظواهرهم . وكان ما تقول به السلطة — مهما كان مذهبها ونوعها هو الحق والصواب ، وماترفضه هو الباطل الذى يجب أن يرفض . يقول هكسلى « من المبادىء الاخلاقية التى يستمسك بها الهمج وانصاف الهمج أن السلطة هى آمن الاساسات التى يرتكز عليها الايمان والفضيلة . فالفضل لمن يكون مستعداً لأن يتقبل ويؤمن من غير بحث ، وأما الميل الى التشكك فهو رذيلة ، والتنكر للسلطة خطيئة . لانه عندما تقدم بعض المراجع مذهباً من المذاهب . وعندماتحمل الفرد على الايمان به بطل عمل العقل »

هذه هى بعض الاعتراضات على النظرية القديمة فى التربية : وهى كافية —

بغض النظر عن الوجوه الايجابية للموضوع — لأن تجعلنا نتجنب هذه النظرية للاضرار المحققة التى تعود منها على حياة الصبيان لانها علاوة على انها تستلب الارادة من الفرد وتجعله قليل النزوع عاجز الحيلة كليل الفكر — فهى أيضاً وحشية لا يصح معالجة الصبيان بوسائلها

ويحسن بنا فى هذا المجال ان نعود قليلا الى ما سبق ان ذكرناه فى مفتتح هذا الفصل لنرى اولا وقبل كل شىء الى الغرض الذى نسعى اليه فى معالجتنا للصبيان . فاذا كان هذا الغرض اراحة الاباء والمربين من الصبيان ومن مهامهم ومسائلهم فبالاولى يجب على الاباء والمربين ان ياخذوهم بالشدة المتناهية ويعاملوهم كما نعامل الافاعى والضوارى فليلجأ الآباء الى القهر والارغام . وبذا يريحون انفسهم من عصيان الصبيان ومن تمردهم ومخالفاتهم للاوامر

ولكن اذا كان الغرض من التربية أمرا بخلاف هذا كأن يكون مثلا الاخذ بيد الصبيان ليصيروا رجالا نافعين اقوياء فى العزيمة احرارا فى النزوع وفى الفكر — اذا كان هذا هو الغرض من التربية — فالمذهب القديم ابعد المذاهب عن ان يصلح لمثل هذا الغرض . ونحن نفترض بالطبع ان هذا هو الغرض بذاته وعلى هذا فالمذهب الحديث اولى بالاتباع

وعلى اى حال يجب ان لا يعزب عن بالنا ان الفضيلة أمر ايجابى . بمعنى أنها ليست الامتناع عن بعض الامور التى تعتبر من الرذائل . بل هى فى الواقع أفعال ايجابية فاضلة ، فليس يحسن أن يوجه المربون كل جهودهم الى منع الناشئة عن أتيان مايشين ، بل هى أخذهم بالمران والاختبار ليفعلوا مايحسن فعله ، فليس من يمتنع عن السرقة مثلا فاضلا ، بل الفاضل هو ذلك الذى يرد مايجده لاربابه وليس من يمتنع عن تناول المخدرات فى مستوى من يقاومها . وهكذا الى آخر هذه الامور الظاهرة

فلا يحسن اذن ان نوجه جهودنا الى منع الرذيلة من الصبيان بل الى غرس الفضائل الايجابية فيهم . وذلك لسبب بسيط وهو ان المنع يستلزم الالم ولكن الفعل من مستلزماته اللذة ومعنى ذلك بعبارة أخرى ان العمل — العمل على الاطلاق أو الحركة والسعى والنشاط — هو ماينتج اللذة للكائن . فانت لاتلتذ ولا تسر الا متى عملت شيئاً أو استجبت لمؤثرات البيئة بوجه من الوجوه . عند هذا تشعر بلذة . وليس معنى ذلك ان أى عمل يستتبعه اللذة حتما . كلا ليس هذا ماارمى اليه . وانما نقصد ان نقول ان اللذة هى نتيجة لنشاط الكائن الحى بشكل من الاشكال . فان اردت ان تجعل الصبى يلتذ الفضيلة فدعه يفعلها ويعملها بطريقة ايجابية . ولا تدعه يمتنع عن الرذيلة فحسب ، والخير للطفل أن يتبع الفضيلة لانها تنتج له لذة من ان يمتنع عن الرذيلة لانها تنتج له ألما . ولتوضيح ذلك نضرب مثلا : عندنا طفلان . أحدهما يتجنب الكذب لان الكذب يعود عليه بالآلام . والآخر يتجنبه لان الصدق ينتج له لذة . أو يقول الصدق اللذة التى تعود عليه من قول الصدق . فقوانين علم النفس تؤكد لنا ان الثانى منهما يكون الصق بالفضيلة وأكثر استمساكا بها وحبا لها من الاول . يقول الاستاذ ثورندايك « ان تثبيت التلبيات الحسنة بربطها باللذة التى تنجم عنها لخير من الامتناع عن عمل التلبيات الرديئة لانها تنتج الما . فليس من ينكر ان الحيوان قد يتعلم عن طريق الالم . ولكنه من الممكن أيضا ان الحيوان الذى نؤلمه ليتجنب أمراً مكروها — من الممكن ان مثل هذا الحيوان يتجنب كل أنواع السلوك المكروه والمحبوب جميعا . وكلما زدناه آلاما كان أقرب لان لايفعل شيئا مطلقا من هذه أو من تلك » ومعنى ذلك ان الحيوان أو الانسان الذى نأخذه بالشدة والعنف عند مايخطىء قد يأتى عليه وقت فيه يلتبس عليه الامر فلا يعود مستطيعا أن يعمل شيئا مطلقا وعلى أى حال فان أخذ الكائن بالهوادة واللين أعود عليـــه كثيراً من

أخذه بالشدة والقهر ، لانه فى الحالة الاولى يستطيع ان يرتأى ويفكر ويريد ، ويكون فى ارادته وفى فكره بمأمن من الارهاب والازعاج . وفى هذا قدر كاف من الحرية يسمح له بالنماء والاضطراد

والحرية التى نذكرها هنا ليست مرتكزة على العواطف أو الشعور . لسنا ندعو الى الحرية لان عواطفنا قد ثارت لها ، او لاننا اندفعنا اليها على مثال المتطرفين المتهورين الشغوفين بالحرية يلوكون لفظها ولكنهم لايكادون يرون أبعد من أنوفهم فى هذا المجال . كلا لسنا ندعو الى الحرية لان « الموضة » أن يدعو الناس اليها . ولكننا نذكر الحرية لانها السبيل الوحيد لنماء الشخصيات وتقدمها ، ولانها السبيل الوحيد لاستكمال ملكات الطفل وتفتحها حتى يصير من طراز الرجال الذين تحتاج اليهم البيئة المصرية وغير البيئة المصرية ، فمن المحال ان ينتج الضغط هذا الضرب من الافراد الاحرار . يقول روسل فى الاتلانتيك ما نثلى (Atlantic Monthly) « عوضا عن ان نرمى فى تعليمنا الى الطاعة والخضوع يجب ان نرمى الى المحافظة على استقلال الشخصية والنزوع ، ونستعيض عن الشدة والقهر بالقصد والعدل . . . . . فقد صارت التربية الآن تعالج على أنها وسيلة للتسلط على التلاميذ وليست لمعاونتهم على النمو والاضطراد »

وثمة أيضا التعاون ، وهو يقوم على تضامن الناس مع بعضهم وقيامهم بعمل مشترك . وهذا لايتسنى الا لجماعة مكونة من أفراد أقوياء أحرار مستقلين فى ارادتهم وفى أفكارهم . وهذا بالطبع لايعنى ان كل الناس متساوون فى المشروعات التعاونية ، لأن لكل منهم بطبيعة الأشياء ملكات يبزون فيها الآخرين ، وهؤلاء بالطبع أقدر من غيرهم فى بعض الميادين ، ويجب ان تسلم لهم الجماعة بالكفاية والتبريز فى تلك الميادين ، ومع كل ذلك فان من مبادىء التعاون الاساسية حرية الرأى والفكر والشعور لجميع الافراد على السواء . والا انقلب

التعاون الى بيروقراطية . وهى الحفرة التى كثيراً ماتتردى فيها الروح التعاونية

ومن خصائص التعاون التى تلازمه فى كل الادوار شعور الافراد بالمسئوليات الملقاة على عواتقهم ومحاولتهم الاضطلاع بتلك المسئوليات من غير تردد او خور فى العزيمة ، والاضطلاع بالمسئوليات هو فى الواقع قبول للنتائج المترتبة على النشاط المشترك فى الجماعة ، وبالطبع يلزم لكل هذه الشرائط أناس أقوياء النفوس جريئون كبار الشخصيات ، وهؤلاء بالطبع أصلح للتعاون من الضعاف المترددين . يقول برايس « ان الشعب الجرىء الذى تتميز اخـــلاقه بالجراءة والاعتماد على النفس أصلح للقيام على المعاهد والمنشآت الحرة من شعب اعتاد الخضوع والخنوع المستكين والطاعة العمياء »

يذهب الاجتماعيون والسياسيون أيضاً الى أن هذا الزمن هو عصر الديموقراطيات وحكم الشعب ، وسواء أبقى هكذا الى أمد طويل أم قصير فالواقع أنه كذلك ، فمن الصين الى أمريكا الجنوبيـــة ومن روسيا الى جنوب افريقا تجيش صدور الناس بالأمل فى الديموقراطية وفى حكم الشعوب نفسها بنفسها ، ومن أخص خواص هذا النوع من الحكم استقلال الشخصيات والافراد وتعاونهم المستنير للاغراض العامة التى تسعى اليها الشعوب والجماعات ، لانه من المفروض المسلم به فى الحكم الديموقراطى أن الافراد أحرار فى أرائهم وفيما يظنون أنه الخير لهم وللجماعات التى ينتمون اليها ، وبعبارة أخرى أنه مبنى فى الاصل على الثقة فى الناس عامة وفى الطبيعة البشرية على الاخص

لايستتبع حتما أن يكون مايظنه الافراد والجماعات خيراً حقاً ، فالعصمة ليست من مستلزمات الديموقراطية بأى وجه من الوجوه ، فقد يخطىء الافراد ، وقد تخطىء الجماعات ، لابل من حق الافراد والجماعات أن يخطئوا ، ومن حقهم أيضاً أن يتحملوا نتائج أخطائهم ، ولكن من المبادى الاساسية ان الناس حربون بأن

تكون لهم اراء ونظريات فى نوع الحكم الذى له يخضعون وفى المشاريع التى بها يضطلعون . ثم أنهم حريون أيضاً بأن يعبروا عن هذه الآراء ويدافعوا عنها ويحاولوا حمل الآخرين على اعتناقها وقبولها

ولسنا بالطبع فى مقام الدفاع عن وجهة معينة فى الحكم وفى طريقته . وانما نقول فى هذا المجال أن الاغلبية العظمى من المفكرين والعلماء الاجتماعيين يدعون الى الحكم الديموقراطى . فاذا كان هذا هو الحال حقاً . واذا كان الغرض الاساسى من التربية هو اعداد النشء لحكم شعبى بأى وجه من الوجوه فقد صار حتما لزاماً علينا أن لانلجأ للقهر فى تربية الصبيان لأن أخذهم باللين وبالممارسة والسماح لهم بالاعتراض فى بعض الاحوال — كل هذه أدعى لغرس الروح الديموقراطية . ففى مثل هذه الحالة يشعر الفرد أنه حر لأن يفعل مايظن أنه الحق . وعليه أيضاً ان يتحمل نتيجة عمله . يقول الاستاذ دبوى فى هذا الامر « ان الحياة فى عصرنا هذا معناها الديموقراطية . والديمقراطية معناها تحرير العقول لتنتج آثارها المستقلة . أو بمعنى آخر اطلاق الحرية للناس فى الفكر والقول . . . . لأن اخضاع العقل للعوامل الخارجية المستقلة عن الشخصية معناه انكار لمبادىء الديمقراطية ، وهذه تقوم فى الاصل على استقلال الشخصيات وعلى مكانتها من الفضائل »

لقد ذهب العرف وذهبت العادة الى ان الصبيان الذين لايطيعون هم فى الواقع غير مؤدبين ، فكأن الأدب اصبح مرادفا للمذلة والخضوع وتجرد الفرد من الحرية والاستقلال ، ولا يذهب الناس هذا المذهب مع الكبار البالغين . لأنه من الحمق ان يظن انسان أن الادب هو فى خضوع الناس لرأيه . هذا مع العلم أن بعضهم مايزال يتخيل ان الاختلاف فى الراى حتى عند البالغين أمر شائن للشخصية والاخلاق ، أو على الاقل داعية للكراهية والبغضاء بين الناس

ولكن الامر مع الصبيان يختلف عنه مع البالغين على أى حال ، فالناس مستعدون

فى معظم الحالات لأن يرموا الصبيان الذين يخالفون مربيهم أو والديهم بالتجرد من فضيلة الادب والحياء . وذلك راجع بالطبع الى الزعم الخطأ ان الطاعة من الفضائل . ونقصد بذلك الطاعة فى جوهرها وفى اصلها بغض النظر عن الاغراض التى ترمى اليها وبغض النظر ايضاً عما يطلب اليهم ان يفعلوه . فما دام الذى يطلب منهم ان يفعلوه هو فى حدود العادة والعرف فليس لهم ان يخالفوا او يعترضوا

ونحن بالطبع نخالف العرف والعادة فيما يذهبان اليه فى هذا الصدد . فالادب فى نظرنا هو أن يأتى الفرد الفعل عن قصد وروية وأن يكون مستعداً لأن يتحمل نتيجة اعماله بشرف ورزانة . وما دام الفرد يقصد ما يفعل ويفعله بعد أن يتغلب الامر على وجوهه الكثيرة . ثم بعد ذلك يقدر له نتائجه المترتبة عليه ، ومادام يتقبل تلك النتائج أمام ضميره وأمام الناس فهذا الانسان مؤدب . وبعبارة أخرى أن الأدب هو فى الواقع نوع من الاستقلال فى الاخلاق وفى الفضائل ، فهو رياضة النفس على أن تفعل ما تظنه واجبها من غير أن تلتفت بالا الى المتاعب التى تحيق بها من جراء تلك الافعال ، فالانسان مؤدب عندما يختلف مع من هم أكبر منه واعظم شأناً ، وهو مؤدب عندما يعصاهم فى لطف وفى دعة وتواضع وهو مؤدب — بغض النظر عن سنه — اذا ما أراد أن يفهم لماذا هو مطالب بالطاعة . وهو مؤدب ايضاً عندما يظن ويشعر انه غير ملزم بالطاعة فى بعض الاحوال ، أو عندما يعبر عن هذا الرأى وذياك الشعور . يقول ديوى « أن من نشأ على أن يمحص افعاله ويأتيها عن قصد وعمد فهو مؤدب (disciplined) اضف الى هذا الخلق مقدرة الفرد على أن يحتمل فى سبيل العمل الذى اضطلع به عن عقل وروية كل أنواع التشويش والاضطراب والصعوبات التى تعترض سبيله . وهذا هو محصل التأديب « essence of discipline »

ومتى اعترف الوالدون والمربون بهذا الحق للصبيان — حق الاعتراض وحق

المطالبة بتوضيح الاسباب والدوافع — فقدوطنوا نفوسهم حقاً على خدمة صبيانهم وانقاذ استقلالهم وحرياتهم وشخصياتهم بجملتها من ضرر العسف والقهر والارغام انهم ان فعلوا هذا يسلمون معنا بأن الطاعة ليست امراً مرغوباً فيه لذاته ، وليست غاية يجب السعي اليها . ولكنها وسيلة لحماية الصبي من البيئة ومما يحيط به من العوامل المضرة بنفسيته وبكيانه المادى والادبى على السواء .

بعد هذا نرجع الى الامور العملية ، أو بعبارة أخرى لنطبق ماقلناه على بعض الحالات الخاصة التى عرضت للمؤلف لنرى هل حقاً يمكن تطبيق هذه النظريات على الواقع ؟ وهل تنفع حقاً أم هى مجرد الفاظ وخيالات نظريين لايدرون من الوقائع شيئاً على الاطلاق ؟

والمؤلف يأخذ الى حد كبير بمبدأ الفلسفة العملية — فلسفة ديوى ووليام جمس (pragmatism) ، ففى رأيه كما فى رأى الاستاذين أن النظريات الصائبة هى تلك التى تؤدى الى الغرض المقصود والتى تنفع فى الواقع وفى الحياة العادية ، حقا أن للمنطق روعته وللعقل حكمه ، انما الواقع ابلغ واروع ، فالمحك لهذه النظريات فى عرفه هو اثرها فى الحالات التى تعرض لنا فى حياتنا اليومية

الفصل الثالث

النشاط الحر

يحسن بنا عند ماتتكلم فى باب الطاعة ان ننبه القارىء إلى بعض الأمور الأولية الخاصة بحالتنا نحن أو بحالة ذلك المعهد الذى نسميه قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية . هذا المعهد له حكم خاص وقاعدة مستقلة يقوم عليها . فهو لا يشبه المدرسة إلا من بعض الوجوه الثانوية . ولكنه أيضاً لايشبه النادى الرياضى إلا من بعض النواحى السطحية التى لاأهمية كبيرة لها ، وبعبارة أخرى نستطيع ان نقول ان له حكما خاصاً قائماً بذاته

صحيح أننا نسعى لتقوية عقول الصبيان وتنمية أجسامهم ومن هذه الوجهة اذن نستطيع ان نزعم أننا نشبه المدرسة والنادى الرياضى ، ولكن الشبه بينه وبين هذين المعهدين لايعدو هذه النقطة ، وفى هذا الصدد نستطيع ان نقول بحق ان هذا المعهد يشبه الحياة العادية اليومية ، فهو يشبه الاسرة ويشبه العمل والنشاط والسعى ، ويشبه غير ذلك كثيراً . إلا أن أوجه الشبه هذه بعيدة ومصطنعة

الحق أنه معهد قائم بنفسه ، لايشبهه معهد آخر من المعاهد التى نبتت فى التربة المصرية من منتديات ومجتمعات وجمعيات ومعاهد

وأخص مايتميز به هذا المعهد ، وبجعله متفرداً بعوامله هو محاولته تربية النشء تربية اخلاقية وعقلية وبدنية عن طريق النشاط الحر (Free activity) وسبيله الى ذلك أو فرصته التى يستعملها لهذا الضرب من النشاط هو ساعات الفراغ تلك الساعات التى اصطلحت البيئة والعرف والمدرسة على انها ملك للصبى يتصرف فيها كيف يشاء ويقضيها فى اللعب واللهو والمراح ، والمؤلف يعتقد ان هـــذه

الساعات قليلة وضئيلة ولا تكفي لحاجات الصبي النفسية والاجتماعية والعقلية بحال من الأحوال . ولكنه لابد من الدخول في مثل هذا الآن ، وقد يعود اليه في مجال آخر

وعلى أي حال يسعى قسم الصبيان إلى استثمار هذا الوقت بشكل يعود على الصبي نفسه خاصة وعلى الجماعة البشرية عامة بأحسن النتائج . وسبيله الى ذلك هو ما قلنا فيما سبق النشاط الحر ، أو الميل الفطري الى الحركة والنشاط

وهذا الضرب من النشاط له قيمته في التربية وله أثره الذي لم يعد يجدينا انكاره أو التنكر له . فلا تكاد نفتح كتابا من كتب التربية الحديثة إلا ونرى فيه الفصول الضافية التي تعالج هذا الموضوع . ونستطيع ان نقول من غير تردد أن علماء التربية قد أجمعوا فعلا على ان السبيل الى الاخلاق هي في ذلك الضرب من النشاط ، وأنه على حسن توجيهه سواء أكان هذا التوجيه بفعل الانسان أو بفعل الظروف يتوقف مصير الصبي

ولكن شيئاً من هذا لايعنينا هنا في الواقع لاننا سبقنا وفصلناه في كتاب آخر (التربية والاخلاق) وبينا اثره في تكوين الاخلاق على العموم ، وانما كل ما يعنينا هنا هو ماهية النشاط الحر وليس اثره في الاخلاق

والنشاط الحر (free acitvity) هو نوع من الحركة والسعي يقوم بهما الكائن بدافع نفساني من غير أن يكون للغير دخل فيه من طريق مباشر . فالكائن يوجد في حالة تحبب اليه بعض أنواع الحركة والفعل فيفعل وينشط بشرط ان لايكون مضطراً للحركة والفعل بعامل قهري سواء أكان ذلك العامل بارادة انسان أو بحكم الظروف . فالصبي الذي يدخل حجرة الدرس لأن الميعاد أزف قد يجوز أن يكون مرغماً وقد يجوز أن يكون حر الارادة ، أي أنه قد يكون حراً في هذا النشاط وقد يكون مضطراً . وجلوسه في حجرة الدرس هو بعض انواع النشاط ايضاً وقد يكون حراً وقد لا يكون ، أما الصبي الذي يخرج من الفرقة في حالته

الاعتيادية بعد أن يكون قد استوفى ساعات الدراسة فنشاطه هذا حر . ونشاطه يكون حراً أيضاً عندما ينظر الى الدمى والصور والملابس والظواهر الاخرى التى تعترضه وتقع تحت حسه اثناء سيره فى الطرقات والرجل الذى يجلس باحدى المقاهى يوم الجمعة وأمامه فنجان القهوة يكرع منه وبيده لفافة تبغ ينهل منها يتلفت فى الغادين والرائحين فنشاط هذا الرجل حر بشرط أن يكون فى حالته الطبيعية

وليس للنشاط الحر اذن غرض خارج عنه يرمى اليه . أى أنه فعل بغير غاية مستقلة عنه يسعى اليها ، نقصد من هذا أن نخرج العمل الذى يتكسب منه الانسان من دائرة هذا النوع من النشاط . لأن عمل الانسان يخرج عن هذه الدائرة بشرط أن لا يكون مما يلذ له ويستهويه

وقد يدخل الفعل فى دائرة النشاط الحر طوراً ويخرج عنه طوراً آخر . فبحث الاستاذ الدكتور طه حسين فى الادب الجاهلى وتنقيبه فى الكتب عنه واستقصاؤه له هو بعض أنواع النشاط الحر . ولكن هذا الامر بذاته قد يكون نشاطا اجبارياً لطالب فى كلية الآداب

فاللعب نشاط حر ولكن العمل ليس كذلك ، وهذا فى الواقع هو الفرق فى نظرنا بين اللعب والعمل ، فالاول منهما نوع من النشاط يقوم به الكائن بدافع نفسانى بينما الاخير يقوم به بدافع خارج عنه ، فكل مايفعله الكائن من تلقاء نفسه لعب أو نشاط حر وكل ما فضل أن لا يفعله فيما لو ترك لنفسه فذاك هو العمل أو الشغل . وعلى هذا فقد يكون الامر الواحد لعبا أو نشاطاً حراً لانسان بينما يكون شغلا وضرورة لانسان آخر . وذلك كالنجارة مثلا يمارسها النجار كضرورة من ضرورات العيش أو كعمل يقوم به لاغراض خارجة عن العمل ذاته . وهى أيضاً نشاط حر ولعب وغرض فى نفسها لعضو مجلس النواب الذى يمارسها فى وقات فراغه حبا فيها

وهذا فى الواقع بحث فى الغايات والوسائل لا نريد أن نطيل فيه هنا ، خصوصاً وقد سبق أن شرحناه بالتطويل فى كتاب آخر

وانما كل ما يهمنا هنا هو أن نقرر أن سبيل قسم الصبيان الى تقويم الاخلاق هو النشاط الحر لابل نستطيع أن نقول أن اللعب بأنواعه — اللعب المنظم المسدد الى بعض غايات التربية هو سبيلنا الى الاخلاق

فنحن نريد أن يكون الصبي حراً فى تصرفاته فى معهدنا — حراً لينشط ويسعى ويعمل — ونحن على افعاله واعماله ونشاطه رقباء . نريد أن يلعب ويختار لنفسه نوع النشاط الذى يلائم ميوله ومؤهلاته واستعداداته ثم نشترك معه فيم هو آخذ به من ذلك النشاط

أظن أن القارىء قد ادرك الآن أن اساس التربية الاخلاقية عندنا هو الحرية وليس القهر أو الغصب ، الاستقلال وليس الطاعة ، واظنه اكتشف لنفسه الآن بعض الصعوبات الكثيرة التى تكتنف مثل هذه السبيل ، وأما أن لم يكن قد اكتشفها بعد فما عليه الا أن يتخيل مدرسة بها عدد كبير من التلاميذ يقضون يومهم بتمامه خارج حجرات الدراسة أحراراً يروحون ويغدون ويختارون لانفسهم ما يحلو من أنواع النشاط ، وليلاحظ القارىء أيضاً أنه يسهل على استاذ واحد أن يتملك ناصية الحال فى حجرة بها مائة تلميذ جلوساً بينما يعجز نفس هذا المدرس عن أن يضبط عشرة تلاميذ أحرار يلعبون كيفما يشاءون

فى الحالة الاولى — أى فى الفرقة — يعالج الاستاذ الفرقة على انها كائن واحد أو مجموعة واحدة ، ولكنه يضطر فى أوقات الفراغ على أن ينظر الى كل تلميذ على أنه حالة خاصة قائمة بنفسها ، وهذا بالضبط ما يفعله قسم الصبيان ، فلكل صبي فيه حالة خاصة بنفسها والقسم مضطر لمعالجة مائة حالة عندما يكون فيه مائة صبي فانظر كيف تكون مسألة الطاعة من المعضلات التى تقابلنا على رأس كل طريق

أنظر كيف نحن فى حاجة أشد من حاجة المدارس لأن نحمل الصبيان على أن يطيعوا أولياءهم فى هذا القسم . لو تأملت فى هذا لوجدت أننا أقمن بأن نتطلب طاعة الصبيان التى نحن فى حاجة أمس اليها من حاجة المدرسين والاساتذة

تعرض لنا أمور كثيرة ومشاكل يهون حلها اذا ما كنا نفرض الطاعة على الصبيان فرضاً . وكم كانت تهون مأموريتنا لو سلكنا هذا السبيل ، فليس آمن منها لراحة بالنا واراحتنا مما يعترض سبيلنا من المصاعب

مع أن هذه حالنا ، ومع ان كثيرا مما يعرض لنا نستطيع حله فيما لو فرضنا الطاعة على الصبيان فرضاً وهو أمر سهل ميسور . إلا أننا نتحرز من هذا كثيرا ونتريث ونتردد قبل أن نقدم على هذا . وذلك لسبب بسيط جدا وهو أننا لم نقبل الصبيان فى المعهد لنحل معضلاتنا نحن . وما معضلاتنا إلا أن نطاع وتقبل نصائحنا من غير مقاومة — لم نقبل الصبيان لنحل مشاكلنا نحن — بل قبلناهم لنحل مشاكلهم ومعضلاتهم هم وما مشاكلهم ومعضلاتهم إلا كيف يكونوا أخلاقهم وعلى أى أساس يبنون نماذج تصرفاتهم ، هذا بالذات ما نريد أن نجد له حلا موافقا

وعلى هذا فنحن نفضل أن نتعب ونختار ان يعصانا الصبيان على أن لا نمهد لهم الظروف ونوجد لهم البيئة الصالحة لنموهم الاخلاقى الاكيد . فنحن نقبل أن نتعرض للعصيان والمقاومة لكى نعبد لهم السبل حتى تتقوى أخلاقهم وتتقدم ، وبعبارة اخرى نحن نسلك الطريق الشائك مختارين حتى نقدم فرص النمو والتقدم الخلقى والاجتماعى

بهذه الروح نسير معهم وعلى هذا الاسلوب نعالج حالاتهم التى تتطلب العلاج وليس معنى هذا أننا معصومون من الخطأ ، أو أننا لم نعاقب ونحرم ونطرد بعض الصبيان ولكن هذه الحالات شاذة نادرة وليست داخلة فى برنامجنا الاخلاقى ، وانما نلجأ اليها — عند الضرورة — وقاية للصبيان الآخرين وليس علاجاً لبعض

الحالات ، ولحسن الحظ لم نلجأ لمثل هذه الوسائل بشكل جدى بأى وجه من الوجوه . وذلك لأن كل من لهم يد فى ادارة هذا القسم هم ممن يلمون على نوع مايطبائع الصبيان فلم نجد انفسنا مضطربين لأن نسلك هذا السبيل الا فى القليل النادر

وبالاختصار نستطيع ان نؤكد — كما اسلفنا — ان الطاعة شيء فى مصلحة المربين اكثرمما هولخيرالصبيان فى معظم الحالات . وان المربى ، عندمايضيق ذرعا بالصبي ويعجز عن ان يجعله ينشط راضياً مختاراً ، يلجأ الى وسائل الغصب يفض بها النزاع ويريح باله من عناء الاقناع والممارسة

والآن نعود الى الوقائع المادية التى هى الاصل فى هذا الكتاب ، لنحاول ان نرى متى تستطيع وسائل الاقناع ان تأتى بالغرض المقصوده ومتى تفشل عن ان تقوم بذلك

الفصل الرابع

حالة بغير علاج

هنالك حادث أظننى فشلت فيه فشلا ذريعاً ، وليس يعود اللوم فى هذا على أحد سواى ، وأنا مستعد لان اتقبل نصيبي من اللوم فيه فلا أرغب فى ان اهرب من المسئولية بوجه من الوجوه أو انتقص من هذه المسئولية بأى حال من الأحوال ، وأرجو من المربين والمشتغلين بالتربية على العموم أن يحللوا هذه الحالة تحليلا دقيقاً ويعينونى على تفهم كل تلك العوامل التى تكون قد غابت عنى

إنى أهتم الاهتمام كله بأوقات الصبيان واشعر انه من واجبي أن أساعدهم على الاستفادة من أوقاتهم معنا الى أقصى حد ممكن ، ثم انى اشعر أيضا شعوراً متغلغلا فى الأعماق بأن المدرسة المصرية على حالتها الراهنة لاتستغل ساعات الطلبة كل الاستغلال الذى يعود على حياتهم كلها بأحسن النتائج ، أشعر أن المدرسة مقصرة جداً فيما يتعلق بصحة أبنائنا وحالتهم الاجتماعية والاخلاقية فكل جهودها موجهة فقط الى حشو أدمغتهم الصغيرة ببعض الحقائق التى لاتمت لحياتهم العادية الواقعة بسبب

ولست أعلم فى الواقع الصلة الكائنة بين صبى فى الحول العاشر من عمره يقطن الدر من أقاصى الصعيد وبين نهر الجانج فى الهند والامازون فى أمريكا وبكين فى الصين ، لاعلاقة البتة تجمع بين حياة هذا الصبى فى بيئته الخاصة وبين هذه الجهات البعيدة التى قلما يذكر اسمها فى حياته كلها ، ومع ان فى حمل الصبي على استظهار مثل هذه الحقائق ارهاقا له الان المدرسة لاتبالى بهذا الارهاق وبهذا الاعتساف ، بل هى تشعر ان هذا من عملها الذى وجدت لاجله وهى فى نفس الوقت لاتهتم

لحيانه فى بيئته ولا بصحته العامة ونشاطه وحيويته

هذا شعورى الذى أحمله بين جنبى وأسير به وأتعامل مع الناس على مقتضاه. ولست أرغب الآن وفى هذا الظرف ان أقدم بحثاً فى أحوال المدرسة فى بلادنا، لانه وان كان مثل هذا البحث من الامور الحيوية وقد نعود اليه فى فرصة أخرى — الا أننا نبحث فى أمر آخر فى هذا الفصل، ولكن مثل هذه المقدمة ضرورية على ما أظن حتى يستطيع القارىء أن يرى حالتى النفسية فى معالجتى لهذه الحالة التى سأوردها الآن

للسبب المتقدم أريد من كل صبى يحضر الى القسم ان يأخذ نفسه ببعض الالعاب الرياضية المختلفة. وذلك أولا لفائدته الجسمية وثانياً لتقويم أخلاقه. فالصبى الذى يمكث ثمانى ساعات فى اليوم أو ما يقرب من ذلك يستمع للدروس هو حاجة ماسة الى الحركة والنشاط لان هذه الحركة وذياك النشاط من مستلزمات حياة الصبى وتقدمه فى الصحة العامة

ولسنا نكون مغالين — على ما اظن — إذا ما صرحنا بأن الألعاب الرياضية هى من الأمور الجوهرية فى بناء الأخلاق. ففيها يقوم الصبى بنصيب من المجهودات المشتركة لخير الجماعة. وفرق بين ان يدرس الصبى ليظهر على أقرانه وبين أن يلعب لينصر جماعته أو فرقته فالمجهود فى الحالة الاولى ليس له غرض إلا الصبى نفسه فهو ذاتى فردى وأما فى الحالة الثانية فهو اجتماعى وغيرى

ولا أظن أحداً من الذين يقرأون هذا الكتاب يختلف معى فى ان اللعب ضرورة قصوى لتقدم صحة الصبيان ونموهم. لا أظن ان انساناً ينازعنى فى هذا لان هذه مسألة مفروغ منها على ما أعتقد

وأما الاخلاق فهذه قضية أخرى نظن ان مجال الخلاف فيها يتسع للتضارب عند القراء، ولكنى أصرح أنى لم أجد من علماء النفس والتربية من يخالفونى فى هذا

الزعم على تعدد المراجع التى رجعت اليها . فكل العلماء مجمعون على ان مجال الاخلاق فى المدرسة لا يوجد فى مواد التدريس — ولكنه يوجد فى مجال المواد الخارجة عن المنهج مثل فرق الالعاب الرياضية والنوادى المدرسية وجمعيات التعاون وكل المجهودات المشتركة التى يقوم بها الطلبة مجتمعين على العموم

فلهذين السببين مجتمعين — لصحة الصبيان وأخلاقهم — أشجعهم على ان يلعبوا معا عندما يحضرون الى قسم الصبيان . وأبغض الاشياء الى ان أرى أحدهم جالسا على مقعد يشاهد حركات الغير ونشاطهم . أشعر ان الوقت الذى يقضيه الصبى على هذه الحالة ضائع وان الصبى الذى يفعل هذا بغير داع من المرض أو الحالات النفسية المختلفة يحتاج الى كثير من العلاج والانتباه

بعد هذه المقدمة الضرورية أروى الحادثة الآتية التى أظن أنى فشلت فيها فشلا عظيما ذريعاً والتى أظن ان مجهوداتى فيها كانت ضائعة وأنى لم أخرج منها الا بدرس واحد وهو انى فشلت وانى مطالب باستقصاء أسباب فشلى فيها

تعود أحد أعضاء القسم لايتجاوز سنه الثالثة عشرة ان يحضر كل يوم لمدة ساعة أو ساعة ونصف ، وهو صبى ظريف تعلو شفتيه ابتسامة تلازمه دائما . بشوش وخفيف الظل يحبه كل الصبيان . ولكنه ضعيف الجسم هزيل الجسم محدودب الظهر بشكل يدل على حاجته القصوى الى الرياضة البدنية والنشاط الجسمانى بانواعه المختلفة . وقد علمت من والده أنه معرض للامراض الكثيرة ليس لعيب أو مرض ولكن لرقته وضعفه الجسمانى العام ولانه يملؤه الحركة والنشاط ويتهرب منهما فليس أحب اليه من الجلوس ومشاهدة الصبيان الآخرين يلعبون . استشرت فيه طبيب الجمعية فاخبرنى انه فى حاجة الى الحركة والنشاط حتى يستقيم جسمه ويقوى

أخذت اعالج هذا الصبى بكل الطرق الممكنة حتى يلعب وينشط ويأخذ قسطه وافراً من الالعاب الرياضية فلم أوفق . تحدثت اليه كثيراً فى هذا ولكن انعانى

ذهبت أدراج الرياح ولم استطع أن أدفع به الى ميدان الجهاد والنشاط . ضربت له على كل النغمات فلم أجد فيه وتراً حساساً . أخذت أوقظ فيه كبرياء النفس وابين له أن صبياً يوجد بين الصبيان يجب أن يعمل ما يعملون ، يجب أن يكون مثلهم وليس أقل اقداماً منهم ، يجب أن يحشر نفسه بينهم ويناضل معهم وعنهم ، يدافع عن فرقة ويهاجم أخرى ، يتعلم العابهم ويلعب معهم

وعدت فى يوم آخر أتحدث عن صحته ورقة جسمه وضعفه الظاهر الواضح واحد يدب ظهره وبينت له أن لا شيء ينقذه من كل هذه الا أن يشترك مع باقى الصبيان فى العابهم ، كلمته فى هذا وأخبرته انى أحب أن أراه ملىء الجسم متوثباً يفيض منه النشاط وانى لافخر به إذ تنتصب قامته ويستقيم ظهره ويغزر دمه

كل هذا وغيره فعلته معه ولكنى لم افلح فحزنت وتألمت إذ وجدتنى عاجزاً عن أن أساعد هذا الصبي الذى أحبه كثيراً لذكائه ونباهته . وعلى كل حال لقد استقر فى نفسى بأنى عجزت وفشلت ، ثم تواضعت مع نفسى على أن اقر بهذا الفشل فى الوقت الراهن وأترك المسألة للزمن عسانى استطيع أن اعرف الدوافع الحقيقية لتصرف هذا الصبي وأتمكن من معالجة حالته علاجا ناجعاً

كنا إذن نلعب جميع أنواع اللعب من عنيف وسهل بينما هذا الصبي يحضر الى قسم الصبيان فى الميعاد الذى يروقه ثم يأخذ مقعده فى مكان عال ويقعد يراقبنا ساعة أو بعض الساعة ثم يشهد حفلات الايناس التى نقيمها من آن لآخر من غير أن يقوم بقسطه فى خدمة الجماعة ، كان يساهم بالنظر والتطلع الى هذه جميعا ثم يقفل راجعا الى منزله من غير أن يكون قد نال ما يلزمه من أنواع النشاط الجسمانى والاجتماعى ، كل هذا ولم يكن كلامى معه ليجدى نفعا فلم يبق امامى سوى طريق القهر والارغام ، وهذا الطريق بالذات هو ما يجدر بى ان لا اسلكه والا فسدت الاغراض التى اسعى اليها ، كنت انأى بجانبى عن هذا السبيل لأن اثره فى

تكوين الاخلاق مشكوك فيه . ولأن علماء التربية ينصحون بعدم استخدام القهر والاجبار متى كان ثمة مندوحة عن ذلك

قلنا ان هذا الصبي تعود ان يجلس ويترك جميع انواع النشاط لغيره من الصبيان ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد ، لانني لا اشعر ذات يوم الا وصبي آخر يجلس بجانبه وينتحل المعاذير لهذا التصرف . فهو يجلس ايضاً لأنه تعبان ولأن رجليه لاتستطيعان حمله في هذا اليوم وهو لا يحب أن يتحرك . وفي يوم ثان انضم لهما آخر وفي ثالث رابع وفي رابع خامس — خمسة صبيان في أيام قلائل خرجوا من دائرة النشاط بأنواعه الى دائرة الخمول والجمود

شعرت عندئذ أنني لو تركت الامور تسير في مجراها لانقلب قسم الصبيان الى مكان يجتمع فيـــه الصبيان ليجلسوا ويفعلوا مايروق لهم أو يتحدثون في كل المواضيع فيقتلون أوقاتهم من غير فائدة تعود عليهم ، وهذه حال لانروق لأن الفلسفة التي بني عليها قسم الصبيان هي هذه . النشاط أبو الاخلاق . فمتى كان النشاط منصرفا بأحسن الطرق تكون الاخلاق الناتجة من أمتن الاخلاق وأقواها أما الجلوس والتحدث الى غير غايه فليسا من دواعي الاخلاق

ثم مازاد المسألة تعقيدا شعوري ان هذا الصبي ورفاقه سلكوا هذا السبيل مدينا لنا . بمعنى أنه قد وقر في نفوسهم أننا نعجز عن أن نفعل شيئاً معهم . وأنهم أحرار فيما يفعلون وان ادارة قسم الصبيان لاتستطيع أن ترغمهم على امر هم لا يرغبون فيه ، شعرت بكل هذا لأن الصبي الأول كان يسير بيننا شامخا بأنفه رافعا رأسه يبتسم بشكل يمكن تفسيره على ألف وجه ووجه . شعرت بكل هـذا وسكت وكظمت ماينفسي فلم أفاتحه الى ان طلب الى مساعدي ان افعل شيئا فقلت

— ماذا تريد ان افعل ؟

— لاأعلم

ـــ انا لاأقصد بهذا انى عجزت وانما أريد ان اعلم منك اسباب شكايتك

ـــ فقال أنا لست راضيا عن تصرف هذه الشلة

ـــ فقلت ولا أنا أيضاً ، وانما أريد أن أعلم لماذا انا وانت غير راضين . قد يكون اننا نحن المخطئان وليس هؤلاء الخمسة صبيانا

ـــ فقال ان بى شعوراً خفيا انهم يقصدون الى التحدى فهل تقف مكتوف اليدين بينما خمسة صبيان يتحدون انظمتنا ؟ هل تريد أن يوقر فى نفوسهم ان معهدنا عاجز لدرجة ان يتحداه صبي واحد ؟

ـــ فقلت ، قد يكون هذا نفس شعورى . قد يجوز ان شعورى يتفق معك فى ان هؤلاء الصبيان يتحدون المعهد والقائمين به ، ولكنى لاأريد ان اعاقب انسانا فاجعله مسئولا عن شعورى انا . الست ترى معى ان شعورنا قد يكون خاطئا ؟ الا يجوز ان نكون ظالمين لهؤلاء الصبيان اذا ما آخذناهم بما نشعر به نحن نحوهم ؟ وخصوصا لان شعورنا فى هذا الظرف بالذات ليس لصالحهم ؟ الحق اننى لاأستطيع أن اظن السوء بالناس ثم اؤاخذهم على زعم ان هذا الظن حقيقة واقعة

ـــ فقال الحق معك ، ولكن ماذا تريد ان تفعل ؟

ـــ فقلت لن افعل شيئاً الا اننى ارجو ان يثوب هؤلاء الصبيان الى رشادهم ويشعروا أننا فيما نفعل لانقصد الا الى خيرهم

ثم تركنا هذه المسألة عند هذا الحد بعد أن اتفقت مع مساعدى وهو شاب ذكى يستطيع ان يفهم الأمور على حقيقتها ، تركت المسألة اذن ، وكنت قد أتركها من غير حل الى حين استطيع ان انفذ الى قلب هذا الصبي فاحرك أوتاره لينشط فى السبيل الذى يؤدى به الى الخير ، كنت أستطيع ان افعل هذا لولا انه قد دخل فى الموضوع عامل جديد . واليك التفصيل

أردنا أن نلعب كرة السلة ، فاخذنا نكون فرقتين وأخذ قائدا الفرقتين

يختاران اللاعبين فاختار أحدهما صبياً . ولكنه رفض ان يلعب فقلت له لماذا هذا الامتناع . وقبل ان يجيبني هم الصبي الذى هو أصل كل هذه المشاكل وقال « هو حر ، أليس كذلك ؟ لايريد ان يفعل وكفى . لايجب ان يسأل العضو لماذا يفعل هذا أو لايفعله . نحن أحرار ولا يستطيع كائن من كان ان يرغمنا على شيء لانريده . والله عجايب »

وقفت أستمع لكل هذا بصبر وأناة الى ان فرغ مما يريد ان يقول فلم أغضب ولم أثر . والحق انني لو طاوعت عواطفي لغضبت وثرت ولكان هذا الصبي يدفع ثمن هذه الغضبة وتلك الثورة لانني شعرت ان التحدى ظاهر أولا وانى انا المقصود منه ثانيا . ولكني تمالكت نفسي وأخذت أقلب المسألة فى رأسي عساني أستطيع ان اهتدى الى حل عادل وسريع لأن الموقف يتطلبه . وأكثر ماأريد ان احرص عليه فى هذه المواقف هو ان لاأفعل شيئا وأنا متأثر بعاطفة أوشهوة ، وبينما انا اقلب المسألة لاحت منى التفاتة فرأيت مساعدى يرقبني ويبتسم كأنه يقول « لقد أتاك بالاخبار من لم تزود » أرأيت كيف انه يتحدانا جميعا وكيف انه غير بريء فى تصرفه ؟ ها قد تكشفت لك الحقيقة التى كنت تنتظرها فماذا أنت فاعل الآن ؟ » فرددت تحيته بمثلها وتبسمت ثم التفت الى الصبي وقلت « هل لك ان تأتي الى مكتبي للتحدث قليلا ؟ »

— ثم سألته ماذا دفعك على ان تقول ماقلت ؟

— قال لاشيء سوى انى استغربت كيف تريد ان تشرك عضواً فيما لايريدان يشترك فيه

— وهل يهمك ان لايشترك معنا فى برنامجنا ؟

— كلا لايهمني ذلك . فليشترك معكم من يريد ان يشترك لكني لاأحب أن أرى عضواً يرغم

ـــ ومن أرغمه ؟

ـــ حضرتك

ـــ وهل اشترك معنا أصلا حتى يجوز لك ان تقول انى أرغمته ؟

ـــ كلا لم يشترك

ـــ اذن لم يكن هنالك ارغام

ـــ لم يكن بعد

ـــ اذن لقد تسرعت

ـــ كلا لم أتسرع لانى رأيتك توشك أن ترغمه

ـــ وهل تقاوم شيئاً لم يوجد بعد ؟ ألم يكن الاجدر بك تنتظر لترى ماذا سيكون ؟

ـــ على كل حال أنا شعرت أنه قد يرغم على ان يشترك مع الرفاق فى اللعب فسارعت الى نجدته

وما هو مركزك حتى تسارع الى الاعتراض على نظم المعهد أولا وتعترض من غير داع الى الاعتراض ثانيا ؟

مركزى انى عضو هنا واعترض على مالا يروقنى

ـــ الحق أنك تغاليت فى تصرفك وعلى هذ فسوف أعاقبك على تصرفك هذا بأن أحرمك من امتيازاتك فى قسم الصبيان ان لم تخضع لنظاماته . ونظاماته هى ان يكون لك ما لجميع الاعضاء وعليك ماعليهم يجب ان تشترك معهم فيما هم آخذون فيه

وان لم أرد ان اشترك معهم ؟

ـــ اذن تكون لا تصلح لمعهدنا الا اذا بدلت من تصرفك وسوف ترى

ثم انصرف

وفى يوم آخر رفض هو وأصدقاؤه الاربعة ان يشترك مع باقى الاعضاء فى نشاطهم ، فامرتهم جميعا ان يغادروا المعهد ويبقوا بعيدين عنه أسبوعا كاملا وبعد الاسبوع نرى كيف يكون تصرفهم ، فهموا جميعا بالانصراف من غير ان يعترضوا الا واحداً منهم وقر فى ذهنه انه يستطيع ان يقاوم الى النهاية ويفوز لاننا سنعجز عن ان ننفذ أوامرنا . وكان ماقال بالحرف « كلا ان أخرج ولن يستطيع أحد ان يخرجنى من هنا . أنا عضو وان يمكن لانسان ان يحرمنى من امتيازاتى ، ولكنه خرج على أى حال

هذه هى احدى الحالات الثلاث التى استعملت فيها العنف فى بحر الثلاث السنين التى قضيتها مع هؤلاء الصبيان لم استعمل العنف ان ثلاث مرات وذلك مع سبعين صبيا يحضرون الى قسم الصبيان بمعدل ٦٠٠ مرة فى الشهر

والآن أنا أشعر انى أخطأت فى استعمال العنف على أى حال ذلك لسببين اولا لان فلسفتى فى التربية تسقط العنف من حسابها وتقودنى الى الاعتقاد بأنه من المستطاع ان نربى الصبيان والاطفال على العموم من غير ان نلجأ اليه ، وليس قناعتى بهذا المبدأ مبنياً على الامور النظرية فقط أو المنطق المجرد عن الواقع الملموس . بل هو مبنى على المشاهدة والممارسة والاختبار . ودليلى على ذلك هو ما مر بى من معالجة لعدد كبير من الصبيان لمدة كبيرة كهذه

وأما السبب الثانى فى انى لاأؤمن بالعنف فهو هذا : الالتجاء الى العنف فى الواقع انما هو اقرار من المربى بعجزه عن ان يصل الى اغراضه من طريق آخر ، ومتى عجز المربى لايحق له ان يتحكم فى الصبيان بهذا الشكل ويحملهم قهراً على ان يخضعوا لما يريد منهم فالقوة فى نفسها ليست برهانا على ان المربى يصيب فيما يريد ان يفعل . ثم انها سلاح خطر ليست فيه الضمانة الكافية لأن لايستعمل فى غير محله ، ولأن الطريق الآخر — طريق الاقناع والممارسة صعب شاق غير معبد نجد ان المربى ميال

بطبعه وبدوافعه النفسية الى ان يتجنبه ويلجأ الى اسهل السبل . وليس هذا بمستغرب لأن طبيعتنا تدفعنا الى تجنب المسالك الشاقة والطرق الوعرة . نفعل هذا وقد لا ندرى اننا نفعله . ومتى كان الامر كذلك فيحسن بنا ان نحترس كل الاحتراس من طبيعتنا عند ما نعالج الاطفال

وثمة سبب ثالث وهو متعلق بالظروف الخاصة لهذه الحالة . ذلك اننى شعرت ان التحدى موجه الى والى معهدنا . ثم ان هذا الشعور قد وقر فى نفسى وان كنت قد حاولت ان اتخلص منه . فمن ادرانى اننى عند ما استعملت العنف مع ذلك الصبى اننى لم اكن واقعا تحت هذا النفوذ ؟ هل استطيع ان ازعم اننى لم أكن البتة مسوقا بأى عاطفة ؟ هل فى مقدور انسان من ائمة التربية ان يزعم اننى لم أكن مدفوعا بعامل العواطف الدفينة على ان اخلط بين تقويم أخلاق ذلك الصبى وبين عقابه على هذا التحدى ؟ وبصفتنا مربين لا يجب ان نهتم سواء أكان الصبى يعاقب على اخطائه أم لا يعاقب . يجب ان لا نهتم لشىء سوى تعهد اخلاقه لتستقيم

لهذه الاسباب جميعا ولغيرها يدعو مؤلف هذا الكتاب الى الاحتراس من استعمال القهر كوسيلة من وسائل التربية كما بينا فى كتاب سابق (التربية والاخلاق) ولهذا السبب يدعو أيضا الى انه يجب على المربين ان يحللوا نفسياتهم هم قبل ان يحللوا تصرفات الاطفال ونفسياتهم . يجب ان يحللوا الاجراءات التى يتخذونها مع الاطفال لئلا تكون احداها منبعثة عن دوافع أخرى غير تقويم سلوكهم

وعلى كل حال لقد انتهت مسألتنا عند هذا الحد ولم يعد هؤلاء الصبيان الى مثل ذلك التصرف لابل فهموا ان لحرياتهم حدوداً . وانه يحسن بهم ان يقيموا تلك الحدود لانفسهم والا اقامتها لهم السلطات المختصة

الفصل الخامس

ما يرفضه الصبي يقوم به المربي

الحالة الآتية تكاد تكون تافهة . ولم نكن لنوردها هنا لولا أنها تخدم قضيتنا التي أوردناها عن الطاعة عامة . يذكر القارىء ان نظريتنا التي أخذنا على انفسنا الدفاع عنها هي هذه : ان الطاعة ليست دائماً من الفضائل وأنها ليست حتما وسيلة من وسائل التربية ، لابل نستطيع ان نستغني عنها اذا تحرزنا من أن نوجد لها مجالا للظهور واذا لم نفرضها فرضاً على الصغار ، وبمعنى آخر يجدر بالمربي الملم بفنه ان يتحاشى بقدر استطاعته ان يدفع الامور الى درجة العصيان ثم يأمر ثم ينتظر من الصغير ان يطيع . لأنه اذا وصلت الامور الى هذه الدرجة لابد أن يضطر المربي في آخر الامر لأن يحمل الصبي بالقوة على أتيان ما يريده منه ، وهـــذا في ذاته مفسد للعلاقات الحسنة بينهما

ثم يلاحظ أيضاً أنه عند هذه النقطة يتغير وضع الامور فبعد أن يكون المربي مهتما للفعل الذي سوف يفعله الصبي ويشعر أن هذا الفعل في ذاته مفيد . تنتقل المسألة من هذا الوضع الى وضع آخر وتصير نزاعا على مسائل شخصية بين الصبي ومربيه . وبالطبع ان وضعها كهذا مضر بقضية التربية كل الضرر ولا يعود منه شيء مطلقاً على الصبي ولا على المربي ، ولا يمكن لانسان عاقل أن يرى أقل فائدة تعود من مثل هذا النزاع الشخصي ، لهذه الاسباب ولغيرها ننصح ان لا توضع النصائح للصبي في صيغة الاوامر بل في صيغة الارشاد حتى اذا خطر للصبي ان يرفض لا تعود الامور الشخصية تربك العلاقات

دخلت مرة فوجدت صبياً يأكل بعض الفاكهة ويرمي بقشورها الى أرض

المعهد كأنه فى الشارع سواء بسواء . فاول ماخطر لى أن هذا التصرف قبيح وقذر فى نفس الوقت وهو لايدل مطلقاً على أبسط قواعد اللياقة والذوق فقلت له ما جال فى نفسى ثم طلبت اليه بطريقة لطيفة ان يجمع مانثر من هذه القشور فقال « حاضر بعدين أجمعها »

شعرت فى الحال ان هذا الصبى لم يكن يقصد الى مخالفتى لأنى لم آمره بشىء ، وأغلب الظن ان الصبيان لم يشعروا ان فى هذا مخالفة لأوامرى لأنى فى الواقع لم أصدر أوامر ، وانما « بعدين » هذه لا تغنى فتيلا ولا تترك المعهد نظيفاً . فامام هذا الجواب لم يكن أمامى سوى ان أصدر له الامر صريحاً . ولكن فى هذا خطرا على علاقتى بهذا الصبى لانه ان فعل فسيشعر أنه مضطر لذلك عن طريق الالزام وأما اذا لم يفعل فسيزيد المسألة حروجة ويخرجها من موضعها الاصلى — أى باب النظافة واللياقة — الى نزاع شخصى بينى وبينه وينتج من كل هذا أننا ننسى الغرض الاصلى . أقول أن كلا الامرين — الالزام أو العصيان — غير مرغوب فيه . ولذلك أعملت الفكرة لحظة لأرى مخرجا لى وله لانه لا داعى لاحراجه أو احراجى أنا

فكرت فى الحل لحظة قليلة فوصلت اليه وشرعت فى التنفيذ فى الحال وبأسرع من شروعى فى التنفيذ أخذ الصبى يجمع بقايا الفاكهة التى نثرها على أرض القاعة ولم يكن الحل الذى اهتديت اليه شيئا غير ان أجمعها أنا بنفسى وفعلا انحنيت لالتقطها واحدة فواحدة . فما كان من الصبى إلا أن سارع الى التقاطها على مشهد من اخوانه ، وليس هذا فقط ولكنه أخذ يعتذر لى ويرجونى ان لا أتعب نفسى فى جمعها لانه سيجمعها فى الحال . وأما من جهتى أنا فانى قلت له ان لا داعى للاعتذار وأنه لامانع عندى من جمعها بنفسى . وفى الحق أننى لم أفرغ من جمعها قبل أن كان كل الصبيان الموجودين يعاونوننا فى هذا الامر

كنت أستطيع ن احل المشكلة بأن أطلب الى خادم المعهد ان يجمعها وقد كان على قيد أشبار منا . ولكنى لم ارد ذلك لأنى اردت ان اعلم هذا الصبى درساً فى النظافة لاينساه . فوجدت انى كنت موفقاً فى هذا الدرس لدرجة أن باقى الاعضاء حفظوه فلم نعد نجد صعوبة من هذه الناحية بعد ذلك

لقد قلت ان هذه الحادثة تافهة ، وانها لكذلك حقاً من حيث مادتها وموضوعها ولكنها ليست تافهة من حيث دلالتها ونتائجها فهى تدلنا فى الواقع على أن جزءاً كبيراً من الصعوبات التى تعترضنا فى معالجتنا للصبيان راجع الى أمزجة المربين وقصور تصرفاتهم واتجاهاتهم الفكرية الملتوية . أنا لا أزعم أن كل المربين أو معظمهم على هذا الحال ، ولست أزعم أيضاً أنى براء من هذه النقائص لأن حكمى فى الواقع هو حكم معظمهم ، وانما أريد أن أقول أنه يجب ان نرجع الى نفوسنا قبل ان نرجع الى تصرفات الصغار عندما تعترض الصعوبات أغراضنا من التربية، يجب أن ننقب وراء تصرفاتنا وأمزجتنا وشعورنا عندما نقف وجها لوجه أمام الصبيان ، فليس يعقل ان ننتظر هذا منهم هم ونعفى أنفسنا مؤنة البحث والتحليل وأما ان لم نفعل هذا نكون قد قلبنا وضع الأشياء وحملنا الصغار مالا يحسن أن يتحملوا

ولكى نزيد هذه المسألة شرحا وبيانا وحتى نبين بمالا يدع مجالا للشك فى النتائج التى تترتب على تصرفات المربى الذى لا يدقق فى بحث أمثال هذه الحالات بحثاً دقيقاً بعيدا عن الأهواء والشهوات — أقول لكى نصل الى هذا الغرض دعنا نفترض بعض الفروض لنرى ماقد ينجم عن أمثال هذه الحالات. لنفرض أنى كنت ناظراً لمدرسة وليس سكرتيراً لهذا المعهد ، ولنفرض أيضا ان هذا الصبى طالب فى هذه المدرسة وأنه فعل نفس الشىء الذى نحن بصدده . فماذا كانت تكون النتيجة ؟

كانت تكون النتيجة على هذا الوجه : أنى أعتبر جملته التى قالها تحديا لسلطتى

أو على أقل تقدير أستخفافا بهذه السلطة . وشعورى هذا كان ينقل المسألة من أمر يتعلق بتصرف الطالب ذاته الى شيء متعلق بشخصى أنا كناظر مدرسة . وكنا ننسى الموضوع الأصلى المتعلق بنظافة المدرسة وبذوق الصبى، ننسى هذا لأننا قد أثرنا بتصرفاتنا بعض الشهوات الحادة والاهواء الشخصية البحتة . ثم نأخذ فى معالجة هذه ونترك الاولى من غير علاج ،ذلك لان الاهواء والشهوات تطغى فى جميع الحالات على المسائل العادية

عندما رجعت من أمريكا فى سنة ١٩٢٨ وجدت مذكرة من زميلى المستر هولكم الذى كان سكرتيراً لقسم الصبيان قبلى موجهة الى المساعد يقول له فيها مامعناه « يجب ان تتحرز من الشعور بأن تصرفات الصبيان موجهة الى شخصك . يجب ان تحترس من هذا بكل ماتملك من جهد لان تصرفاتهم فى معظم الحالات تكون موجهة الى الفعل فى ذاته وليست الى شخص المربى . فهم عندما يعصون أو يثورون يكون عصيانهم أو ثورتهم متجها الى العمل الذى ترغب اليهم ان يعملوه وليس الى شخصك أنت »

وفى الحق لست أجد اجمالا للموضوع أبلغ من هذا . ولست أطمع فى أن أترك للقارىء نصيحة غير هذه « انما ثورة الاطفال تكون فى معظم الحالات موجهة الى الفعل ذاته وليست الى شخص المربى » ومتى سار المربى على هذه القاعدة استطاع ان يخدم قضية التربية خدمة لها صداها فى حياة الاجيال المقبلة

الفصل السادس

تعجل الغايات

هنالك حالة أريد أن اشرك أرباب التربية فى درسها معى وارحب كثيراً بأى شعاع من نور يستطيعون ان يلقوه على هذه الحالة — أرحب كثيراً برأيهم عنها وأود لو يستطيع بعضهم أن يتصلوا بالمؤلف عن أى طريق لبحثها لانها شغلتنى كثيراً واستنفدت من وقتى الشيء الكثير ومع كل هـــذا لم نحلها وان كانت قد اندثرت معالمها مع الصبي الذى اثارها

ثم لست أرى فى الواقع تحت أى باب من أبواب هذا الكتاب كان يحسن بى ان ادمجها ، ذلك لأنها تدخل تحت ابواب متباينة ، وكنت أستطيع ان اتناولها بالبحث فى أى مكان من هذا الكتاب لا تناولتها هنا ، فهى حالة مشاعة بين الابواب لأن العواطف المتباينة تضاربت فيها من عصيان الى عناد الى كبرياء الى سوء تفاهم بين ذلك الصبي وبينى مع فارق واحد بينى وبينه — ذلك انه اساء فهمى أما انا فلم افهمه احياناً واكتشفت فى نواحى نفسه بعض العناصر التى تحتاج الى عـــلاج أحياناً اخرى

أما وقد مر على هذه الحالة ما يقرب من السنة والنصف فانى استطيع أن ارى الآن فى ضوء العقل المجرد عن الشهوات المناحى التى اؤاخذ نفسى عليها وبجمل تقصيرى كربى كان فى كونى تشددت حيث كان يجب أن لا اتشدد وعلى أى حال أظن انه من المستحسن الآن أن لا احاول لوم نفسى أو تبرئتها . وانما أورد الحالة كما حدثت واترك البحث والتنقيب للمشتغلين بأمور التربية من القراء

ولأن لهذه الناحية جانباً اقتصادياً يحسن أن نطلع القارىء على سياستنا فى هذا

الباب نوعا ما حتى يستبين فى تقديره ظروف تلك الحالة التى نحن بصددها . فراعاة لاحوال الاباء الاقتصادية جعلنا قيمة اشتراك الصبى فى معهدنا خمسين قرشاً فى السنة فقط . وبعد ذلك نفكر كثيراً ونتروى مراعاة لظروف الآباء عندما نضع انظمة تزيد فى الاعباء المالية الملقاة على عاتقهم . فتى عرض لنا مشروع ندرس ناحيته الاقتصادية بامعان وروية لنرى هل يستطيع الصبيان أن يساهموا فيه من مصروفهم الخاص من دون أن يرهقوا اباءهم بالمطالب . ثم نراعى ايضاً أن لاتجور هذه المشروعات على مصروف الصبيان الخاص فلا تشجعهم على الاقبال عليها بشكل يستنفد نقودهم الخاصة . والمشروعات التى نضطلع بها فى الواقع لا تعدو عن أن تكلف الصبى قروشاً قليلة لاتبلغ فى مجموعها العشرين فى السنة . وهذه بالطبع يتحملها الصبيان ويساهمون فيها من مالهم من غير رجوع الى عائلاتهم . والآن والقارىء يعلم بعض الشىء عن سياستنا هذه نروى له الحادثة الآتية

فى ذات يوم طلب صبى أن يحادثنى فى مكتبى فرحبت بهذه الفرصة بالطبع لأن الاخذ والعطاء مع الصبى والحديث فى مختلف الشؤون يزيد المربى علماً بنفسية الصبى — دعوته إذن الى مكتبى وجلسنا نتحدث فقال :

— نريد أن نلعب التنس يا يعقوب افندى ؟

— ماذا تعنى بقولك « نريد » وكم انتم ؟

— نحن خمسة . ش . ر . م . ل . وأنا

— انتم الخمسة إذن . ولماذا تريدون أن تلعبوا التنس وامامكم أنواع الالعاب الاخرى التى تفوقها من جميع الوجوه ؟

— نريد ذلك لأن اللعبة لذيذة

— اذن ادع اخوانك كلهم لنتحدث فى هذا الامر

ففعل وحضروا جميعاً . فقلت :

— بلغنى انكم تحبون أن تلعبوا التنس

— نعم

— ولكنى لارى هذا الرأى

— لماذا ؟

— لانى العب هذه اللعبة واعلم مبلغ ماتتكلف من النقود . انها تحتاج الى مضارب وكرات وأحذية وسراويل ولان طاقتكم المالية محدودة جداً لاتعدو بضعة قروش تأخذونها من ذويكم لتصرفوها فيما يتعلق بالمدرسة ، أنصحكم ان لاتفكروا فى هـــذا الأمر . أنا أرفض كل شىء يزيد فى اعباء اهليكم المالية . يجب أن تشعروا ببعض شعورهم فلا ترهقونهم بمطاليبكم التى تكاد لاتقف عند حد معلوم، رفقاً بآبائكم . وكفاهم ماهم فيه من مصروفات مدرسية وكتب وطعام ولباس وغير هذه مما تضغط طاقتهم الاقتصادية ضغطاً . الحق انى اعد التنس رياضة ترف وسعة وأود لو استطيع ان استعيض عنها بشىء ينفع بدنى ولا يكلفنى مثلما تتكلف هذه الرياضة

فقال واحد منهم ان عمه سيعطيه مضربا وهو سيتكفل بالباقى من مصروفه الخاص . وقال الآخرون أنهم يستطيعون ان يصرفوا على هذه اللعبة من نقودهم الخاصة . فشعرت انى عاجز عن ان افعل أكثر مما فعلت وان على الآباء ماتتق مما لم استطع ان أفعله ، فهم ان شاءوا منحوا صبيانهم مايطلبون وان ارادوا امتنعوا، وعلى ذلك لم أر لى وجها فى المعارضة الى النهاية . فقلت لهم

— انتم وما تريدون ، ولكن يجب ان تعلموا هذا : ان ملعب التنس خارج عن دائرة اختصاص قسم الصبيان وانه ملك لقسم الرجال ، ونحن مستقلون بشئوننا الداخلية عن هؤلاء . فاذا سعيت لانال لكم اذنا من مدير الجمعية الرياضى فسوف نضطر لأن نقبل شروطه التى سوف يفرضها علينا من تعيين للمواعيد والانظمة

الاخرى . وما يعطينا القسم الرياضى نأخذ ويجب ان لانطمع فى أكثر منه وهو بالطبع سيكون كريما معنا عاطفا علينا وفى نفس الوقت سيرعى مصالح قسمه الرياضى . فهل انتم قابلون ؟ فقالوا نعم نقبل وسوف نلزم الحدود التى يضعها لنا

ـــ اذن الى الملتقى . سأتحدث اليه وأفيدكم

ثم قابلته . وأطلعته على رغباتنا . ورجوته ان ينظر بعين التسامح إلى هذه الرغبات وان يعطينا أقصى مايستطيع ان يعطى ففعل على طيبة خاطر . ثم عدت اليهم وقلت :

ـــ قد صرح لكم المدير الرياضى ان تحتلوا ملعب التنس من الساعة كذا الى الساعة كذا يومى الاثنين والاربعاء من كل اسبوع . وأنظمة التنس التى تسرى فى قسم الرجال تسرى عليكم سواء بسواء من حيث محافظتكم على المواعيد وطريقة حجز الملعب وخلافه . فهل انتم راضون بهذا ؟ فقالوا نعم

اذن اتفقنا وأنامسرور لانكم نلتم مارغبتم فيه . وانما انصحكم ان لاتستخدموا الاولاد هنالك ليجمعوا لكم الكرات لأن قانون الجمعية يتطلب ان يدفع الواحد منكم قرشاً أو نصف قرش على أقل تقدير للصبى الذى يجمع لكم الكرات وانتم تلعبون . وأنا أشعر ان هذا كثير على جيوبكم . لابل هو ترف لايحسن بكم . فانصحكم ان تتعاونوا فيما بينكم حتى يخدم من لايلعب منكم اخوانه اللاعبين . تعاونوا على هذا وانقذوا قروشكم عن ان تضيع فى ترف انتم فى غنى عنه . فهل انتم فاعلون ؟ فقالوا نعم سوف نفعل

ثم انصرفوا

وفى ذات يوم نقر على باب مكتبى صبى منهم . وكان أكثرهم اعتناء بملبسه وخدمة لشعر رأسه وأوفرهم اهتماما بمظهره بالاجمال . وقد كان أيضاً أضعفهم جسما وأحوجهم للحركة والنشاط . استأذن هذا الصبى ثم قال

ـــ يايعقوب افندى . الحق اننا غير راضين عن نظام جمع الكرات هذا لأنه نظام سيء ، فلماذا لاتصرح لنا بأن نؤجر صبيان التينس ليجمعوها لنا كما يفعل أعضاء قسم الرجال ؟

ـــ قلت ولماذا لاتجمعونها انتم لانفسكم ؟

ـــ لان هذا متعب

ـــ أليس اللعب ذاته متعباً ؟ فعلى منطقك هذا يترتب ان لاتلعب التنس ابداً لأنه يتطلب منك مجهوداً بدنياً بينما انت تنشد الراحة

ـــ لا ـــ المجهود الذى ابذله فى التينس يعود على جسمى بالفائدة

ـــ وكذلك المجهود الذى تبذله فى التقاط الكرات

ـــ لكن المجهود الاول لذيذ

ـــ صدقت ، ان الامر لكذلك ولكن ماالداعى لان تؤجر صبيان التينس بينما انتم تستطيعون ان توفروا الأجر لنفوسكم

ـــ نحن لايهمنا الأجر لاننا نستطيع ان ندفعه ونحب ان نفعل ذلك

ـــ أما أبوك وأنا فانه يهمنا ان لاتصرف فى هذا الباب

ـــ ولكن هذه نقودنا الخاصة ونحن احرار فيها

ـــ ولكن خصلة الاقتصاد خصله ضرورية ونحب أن تعتادوها

ـــ لا نريد أن نقتصد فى هذا ؟ لأن هذا الضرب من الاقتصاد مزر بالانسان

ـــ كيف ذلك ؟

ـــ ذلك لأن جمع الكرات من عمل الخدم ونحن لسنا خدما فقد هبطنا من بيوتات طيبة

ـــ انا لا يعجبنى هذا المنحى من التفكير لانك لا تخدم فى هذا سوى نفسك واخوانك وسوف يخدمك اخوانك بدورهم ، ومع ذلك فقد مكثت ثلاث سنين

فى امريكا العب فيها التنس مع اللاعبين ولم ار فيما رأيت ان الصبيان يؤجرون ليلتقطوا الكرات ويقدموها للاعبين . وانما اللاعبون انفسهم هم الذين يفعلون هذا كيف تكون خدمة الانسان لنفسه مزرية بكبريائه ومنتقصة قدره ؟ أوصلت بك الدرجة لان تستنكف من أن تخدم نفسك بنفسك ؟

— نحن جميعا لا نحب هذا العمل على أى حال ونرى أن ارغامنا على أن نجمع الكرات بانفسنا تعسف لامبرر له

— ليس هو تعسفا يابنى وانما هو لفائدتكم الخاصة من كل الوجوه وقد ذكرت لكم بعضها . فيحسن بكم أن تقدروا نصيحتى وتعملوا بها

وهنا يحسن بى أن انوه عن سبب مهم جعلنى اسلك هذا المسلك . وبالطبع لم اذكر هذا السبب فيما ذكرت من الاسباب للصبيان . ولم اذكره لعلمى أنه لايمكن أن يكون سببا مهما فى نظرهم والحال انه من أهم ما حفزنى الى اتخاذ هذا الطريق وسلوكى معهم هذا المسلك . واليك التفصيل :

الالعاب الرياضية من أهم العوامل فى انماء الخصائص الاجتماعية فى الصبى لاننا فى الواقع لا نرى شيئا يعدلها أو يقرب منها فى هذه الظاهرة . فالصبى الذى تعلم أن يلعب مع رفقائه ويتحمل جزءاً من الهزيمة التى تلحق بجماعته بروح رياضية ويفخر بانتصار فريقه بقدر معقول من الفخر ويستميت فى الدفاع عنه فى اثناء اللعب ويتعاون مع رفقائه بجسمه وعقله وقلبه من غير اضطرار خارجى بل بدافع نفسانى محض . هذا الصبى لا يبنى جسمه بهذا العمل فحسب ولكنه ايضا يبنى اخلاقه ويكونها ويضع لها الاسس الثابتة المتينة . وليس هذا فقط ولكنه يظل يجمع لنفسه العناصر المكونة للشخصية من نزوع الى القيادة والزعامة ومن توفير البيئة اللازمة لهذه الشخصية ايضا . فالالعاب فى مجموعها من العوامل التى تبنى الجسم المادى والتى توفر العناصر اللازمة لتكوين الشخصيات

وبالطبع نحن ندخل فى باب الالعاب جميع أنواع النشاط الحر free activities الذى يقبل عليه الصبى بدافع الرغبة واللذة ويساهم فيه إذا ما ترك لنفسه من غير ضغط خارج عن نفسه. وعلى هذا فاى مشروع يضطلع به الصبيان من انفسهم وبدافع ذاتى مهما كان لون هذا المشروع فهو نشاط حر أو لعب، فالمدرسة التى ينشئها الاطفال ويقيمون عليها ناظراً ومعلمين ويضمون اليها طلبة وينشئون لها مناهج ويحفظون لهـــا دروساً — كل هذه الامور إذا تمت على أى شكل من الاشكال تدخل فى باب اللعب إذا كان الاطفال هم القائمون بها بدافع من انفسهم ومن غير أن يكونوا مدفوعين اليها بارادة خارجة عنهم، وعلى هذا القياس نقول أن أى شىء يحمل عليه الصبيان حملا لا يعد من باب اللعب فى شىء حتى وأن كان هذا الشىء مثل كرة القدم متى فكرت فيها المدرسة واضطرت الصبيان لأن يساهموا فيها على انها شىء الزامى أو جزء من المنهج المدرسى

أنا لا أدعو الى ترك كرة القدم أو حذفها من المدارس لانها ليست لعبا بالمعنى الذى نقصده من هذه اللفظة. وانما كل ما أرمى اليه هو ان أحدد المعنى المقصود من هذا الاصطلاح وأميز بين اللعب الصحيح والعمل. ومن هذا أيضاً يتبين ان الشىء الواحد قد يكون لعبا عند بعض الناس وعملا عند بعض الناس الآخرين، لا بل نستطيع ان نقول ان الشىء الواحد قد يمكن ان يكون لعبا فى بعض الظروف وعملا فى بعض الظروف الاخرى عند الشخص الواحد. ومن هنا نرى ان الانسان السعيد حقاً هو من تهيأت له الظروف بحيث يستطيع أن يجمع بين مهنته وهواياته أو لعبه أو على الاقل أن يقارب بينهما

نقول ان اللعب من أهم العوامل فى بناء الاخلاق فى حياة الصغار ذلك لانه يستدعى منهم ان يستعملوا غرائزهم الاجتماعية وهم يلعبون. يتطلب منهم بعض عناصر النفس الاجتماعية التى لا تجد لها مجالا للظهور فى غير اللعب. ولسنا

متعسفين أو ميالين للاطلاق والتعميم عندما نزعم ان الاخلاق هي ظاهرة اجتماعية لا غير . أو هي تقوم على العلاقة بين الافراد وبعضهم أولا وبينهم وبين الجماعة ثانيا كما فصلنا في كتابنا السابق (التربية والاخلاق) من هذا نرى ان أثر اللعب في تكوين الاخلاق والشخصيات اثر لا ينكر ولا ينتقص من شأنه

والالعاب نوعان — نوع شخصي كالسباحة وجمع طوابع البريد وأنواع التجارة والتمارين الرياضية الفردية ، ونوع آخر اجتماعي (Group games) يتطلب ان تتعاون جماعة من الجماعات على القيام به . والاول منهما مفيد للجسم فائدة مؤكدة وهو رياضة للعقل أيضاً في بعض الحالات وقد يكون له أثر في تربية الفرد الاخلاقية في بعض الاحيان الاخرى . فليس يستطيع انسان ان ينكر أثر الهواة Hobby في أخلاق الافراد

اما الالعاب الاجتماعية فهي خير الالعاب على الاطلاق وخصوصاً للصغار اليافعين ، لان هؤلاء الصغار لا يزالون في دور التكوين حيث تكون الغرائز الفردية — غرائز حب النفس على اختلاف مظاهرها وتعدد أشكالها — محتلة المكان الارفع من حياة الصبي ، ففي هذا الدور يهتم الطفل أول ما يهتم وقبل كل شيء بما له علاقة مباشرة بشخصه وذاته ، يهتم لان يتعهد ميوله ومزاجه واهوائه ونزعاته ويحاول ان يشبع هذه جميعا ويعينها للوصول الى ماتبغي وتشتهي

في هذا الدور اذن يجدر بالمربي أن يعين النواحي الاجتماعية من الطفل لتجد لها مجالا تنشط فيه أيضاً ، يجب ان يحرص حتى يقدم له الفرص ويوجده في البيئات الخاصة التي تستفز من نفسه النواحي الاجتماعية ايضاً . وكل مرب لا يحرص على ان يعين هذه النواحي النفسية لا يمكن ان يكون قد ادى مهمته خير اداء ، يجب توكيد هذه النواحي الاجتماعية من نفسية الصبي لانها هي التي تحتاج الى التوكيد والالحاح عليها بالمعاونة والمساعدة ، ذلك لأن النواحي النفسية الذاتية اقرب الى

شعور الصبي وعواطفه من غيرها . وعلى هذا فهي تستطيع ان تطغى من تلقاء نفسها إذا ماتركت وشأنها . فيصير الصبي ممعنا فى الفردية البغيضة الممقوتة ويعجز عن ان يحتل مكانا ملائما فى حياة جماعته ونظامها لهذا دون غيره

ومتى استطاع المربى ان يجعل الصبي يقبل برغبة وشوق على خدمة الجماعة التى ينتمى اليها حبا فى الخدمة نفسها وفى الجماعة ذاتها فقد نجح الى حد بعيد فى تكوين شخصية تتوافر لها عناصر النجاح المادى والاجتماعى والاخلاقى ايضاً — ذلك لأن القائد بجيشه والزعيم باتباعه والحاكم بمن يحكم : ولن يمكن ان يكون قائدا او زعيما او حاكما من لايتصل بالجماعة التى ينتمى اليها ويرتبط معها بأوثق الربط ويؤسس علاقته بها على امتن الأسس

فاذا سلمنا بما تقدم فنحن إذن وجها لوجه امام السبب المهم الذى حدا بى لأن أتشدد مع هذا الصبي الذى أوردت قصته فيما سبق . نحن اذن امام السبب الذى لم أذكره له لعلمى انه لاوزن له فى نظام تقديره للاشياء . قد يجوز انى أخطأت فى عدم ذكره له . قد يجوز ذلك ولكنى لم أذكره على أى حال

ذلك السبب هو أنى كنت أطمع فى أن أدفع بهؤلاء الخمسة الصبيان على أن يتناوبوا خدمة بعضهم البعض بجمع كرات التنس . ولذلك تشددت جداً فى هذا الامر ولم اصرح لهم بأن يؤجروا صبى التنس ليخدمهم . والآن بعد مرور هذا الزمن الطويل على هذه الحادثة أشعر أنى اخطأت فى تشددى وتمسكى بوجهة نظرى الى النهاية . أخطأت فى هذا لأنى كنت أستطيع ان ألين امام تشبثهم واغض الطرف عن هذه الفرصة انتظاراً لفرصة اخرى وهى لابد سانحة اعلمهم فيها هذا الدرس الذى كنت أحرص على أن اعلمهم أياه فى ذاك الظرف . حقا أنهم نزلوا على رأيى وخضعوا فى آخر الامر لما اردت منهم ولكنهم خضعوا خضوع المضطر الذى عجز عن ان يفعل امرا آخر . جمعوا الكرات وخدموا بعضهم البعض لأنى

كنت املك الوسائل المادية التى استطيع ان احملهم على ان يفعلوا ماطلبت

انتهت حكايتنا عند هذا الحد وان كان لها ذيل لذيذ احب ان اورده تفكهة للقراء . وهو عبارة عن حوار يستبين منه منطق الصبيان وعقليتهم التى تحتاج الى التمرس والاطلاع حتى تنمو وتصل الى مداها المقدر لها فى سجل الزمان : هو حوار منطق يستقيم فى نظر الصبي لانه يوافق هواه ليس لانه يتجرد عن الاهواء ككل منطق سليم

قال — الصبي وما العمل الآن ؟

قلت — ليس شيء سوى ان توطنوا نفوسكم على ان تتبادلوا المعاونة

— لكن الصبيان جميعهم غير مرتاحين لهذا الحل ولا يحبون ان يقبلوه

— أنتم وشأنكم

— لكن يايعقوب افندى الم تصرح امامنا مراراً وتكراراً ان الحكم فى هذا القسم للديموقراطية وان الرأى للكثرة ؟ نحن الآن كثرة وانت فرد فيجب ان تخضع لحكم الأغلبية

قلت — هذا منطق لايستقيم لأن للديموقراطية حدوداً فى جميع الحالات ، وحدودها هنا هى أغراضنا من ايجاد هـــذا القسم . فكل مايتعارض مع هذه الأغراض لايؤبه له ولا يقام له وزن بغض النظر عن رأى الأغلبية والاقلية ، وبمعنى آخر سياسة هذا القسم فى يد لجنة ادارته وما تسمح لكم به لجنة الادارة فمن حقكم انتم ان تسيروا فيه بالنظم الديموقراطية لانها أفضل النظم حسب مانرى

قال — لست أرى هذا الرأى وانما أرى اننا اختلفنا — انا واخواني فى جانب وانت وحدك فى جانب آخر . والنظم الديموقراطية تتطلب التحكيم فيحسن بنا جميعاً نحن وانت ان نحكم بيننا فلان افندى

قلت — هذا منطق معكوس ليس له معنى إلا انك تطلب تغيير سكرتير القسم فهل تقصد إلى هذا ؟

— كلا لاأقصد هذا أو شيئاً يقرب منه ، ولكن كيف يفهم هذا من كلامى ؟

— قلت إذا كنتم تسيرون على هذا الزعم فكأنكم تضعونى موضع الخصم وتبحثون عن حكم يفصل فى الخصومة . وليست هذه أول مرة نختلف فيها ولن تكون آخر مرة . فكانك تطلب مديراً آخر غيرى قريباً منا ليسوى لنا خصوماتنا ، لأن هذا الحكم الذى ارتضيه يصير فى آخر الأمر المسئول الوحيد عن سياسة قسم الصبيان ، هذا اذا حكمناه هو فى كل مرة ، وأما اذا جعلنا لكل حادثة حكما خاصاً فقد ارتضيت ان اتنازل عن الاضطلاع بمسئولية هذا المعهد وجعلت هذه المسئولية نهبا مشاعا لكل عابر سبيل

— اذن ماالعمل الآن ؟

— لاشىء سوى ان تخضع أو تترك لعبة التنس لشأنها

— خرج هذا الصبى من مكتبى غير مقتنع وشعرت انا انه كان يحسن بى ان لاأتشدد فى هذا الظرف . كل هذه مشاعر قد تكون مخطئة وقد تكون مصيبة تبع وجهات النظر المختلفة ولكنى موقن من شىء واحد وهو انى عصرت دماغى وبذلت أقصى ماستطيع من همة حتى نعود المياه الى مجاريها بينى وبين هذا الصبى وحتى أجعله يشعر انى لم اتعسف أولا وانى لم اتشدد الاحبا فى خيرهم ثانيا. لست أقصد من هذا انى عدت الى محادثته فى هذا الأمر مرة أخرى . كلا فان شيئاً من هذا لم يكن . لابل لاأذكر ان حديثاً من هذا القبيل دار فى هذا الموضوع بالمرة ، وانما قصدت ان اقول انى أظهرت له كل شعور حسن وأوليته كل عطفى وقدمت له كل المساعدات الممكنة فى ظروف كثيرة

ومع انى استطعت ان انال ثقته المطلقة فى اغراضى ونياتى نحوه فانى لازلت اعتقد بأنه لم يكن يحسن بى التشدد فى هذا الظرف بعينه ليس لأن ايمانى بالاغراض التى وضعتها أمامى قد تزعزع قيد شعرة . كلا . فانى مازلت اعتقد بأن تلك الاغراض لاغبار عليها . وانما كل ماأؤاخذ نفسى عليه هو السبيل التى سلكتها الى تلك الاغراض

الفصل السابع

عصيان مجهول السبب الأصلى

لقد سبق ونوهت بان قسم الصبيان يحاول ان يستغل أوقات الفراغ لصالح الصبيان . ووسائله لذلك لذيذة ومقبولة من الصبيان أنفسهم . الحق أنها لذيذة ومقبولة بدرجة أنها قد تغريهم بالوقت فيضيعوه من غير حساب ، ولكننا لا نجهل مثل هذه التجربة فلا نمكنهم من ذلك . لاننا نعتقد ان من متممات الاخلاق أن يؤدى الصبيان ماعليهم من الواجبات للمدرسة وللبيت حق أدائها . ولهذا نتصل بولى أمر الصبي عند التحاقه بالقسم ونستشيره فى مقدار الوقت الذى يظن أن ابنه يستطيع تمضيته تحت ارشادنا . وكثير من الاباء الذين يعرفوننا ويثقون بنياتنا ووسائلنا وأغراضنا يتركون هذا التقدير لنا لنرى رأينا فيه

واتفق ان أنضم للقسم صبي وأخوه واتفق أبوهما معى على ان أصرح لهما بأن يقضيا ساعة كل يوم فى معهدنا بعدها يذهبان الى البيت ليذاكرا دروسهما ، وقد كان ودرجنا على هذا الاتفاق حينا من الدهر

وفى أحد الايام بعد ان قضيا ساعتهما أراد الاكبر أن يذهب الى البيت ليدرس واعترض الاصغر على ذلك العزم . واختلفا فى ذلك وجد بهما الخلاف فلما لم يستطيعا الى تسويته سبيلا تقدما الى به لأحله . فاستغربت لهذا الخلاف يجد بينهما وهما لم يشجر بينهما خلاف من وقت ان انضما الينا . فطلبت الى الاصغر — وكان لم يتجاوز الحادية عشرة — ان يذهب الى البيت مع أخيه الاكبر كعادته فرفض . عجبت لهذا التصرف الذى لم أكن أدرى الدافع له واليك مادار بينى وبينه من الحوار

— اذهب يابنى الى البيت مع أخيك الاكبر

— كلا ، لا أريد ان أذهب الآن

— ولماذا ؟

— لانى أريد أن العب قليلا وما زال عندى متسع من الوقت لذلك فلماذا لا أفعل ؟

— ووالدك ، الا يعترض على ذلك ؟ الا يغضب منك إذ يرى أخاك عائداً وأنت باقياً ؟

— كلا والدى لا يغضب منى مادام يعلم انى هنا وفى هذا المكان

— والدروس ؟ الا يحسن أن ترجع لتستعد لدروسك غداً ؟

— كلا ليس لدى دروس استعد فيها (واغلب الظن أن الصبي صادق فى ذلك لأنه كان فى السنة الاولى الابتدائية)

— ولكنى اظن أن والدك يرغب فى ان ترجع الآن الى البيت

— كلا ، سيان عند ابى أن ارجع الآن أو بعد الآن

— ومن ادرانى بذلك ؟

— أنا عارف

— اذهب يا بنى الى بيتك

— كلا . لا اذهب الآن

وجدت نفسى فى هذه الحالة فى مركز حرج ، الصبي يعصانى عصيانا صريحاً ، وليس امامى الا سبيلان لا مندوحة عن سلوك احداهما . فاما انى اتركه ليبقى الى أن تغلق أبواب القسم حوالى الساعة السابعة مساء ، وفى هذا غضاضة على نفس المربى كما لا يخفى . فليس أصعب على نفس الاستاذ من أن يقبل امراً كهذا ، إذ له نتائج سيئة تترتب عليه خصوصاً متى علم القارىء أن بقسم الصبيان ما يقرب من الثمانين صبياً فلو ترك أحدهم وشأنه أو لو وقر فى ذهن الصبيان أن لهم أن يفعلوا

ما يشاءون لما تبقى لنا سبيل الى تقويم أخلاقهم . فالتمرد والعصيان أقرب اليهم وأسهل عليهم من أى شيء آخر خصوصاً متى شعروا بضعف المربى

أما من جهة الغضاضة التى يشعربها المربى وأما من جهة كرامته المزعومة فليس يجب أن يجعل لهما المكان الاول من حسابه . فكرامته وعزة نفسه هراء بجانب اخلاق الصبيان . وكثيراً ما تكون كرامته وعزة نفسه على حساب كرامتهم وعزة نفوسهم . وعلى هذا فليس للكرامة دخل فى هذه الحالة بالذات . ومن هذه الوجهة يستطيع الصبى أن يبقى إذا لم يكن ثمة عوامل أخرى فى الموضوع

والعوامل الاخرى هى هذه — أولا ليس من الامور المأمونة العواقب أن يذهب هذا الصبى الى البيت بمفرده يحسن أن يكون بصحبة اخيه الاكبر . وثانيا يجب أن يرجع الى البيت مبكراً متى كان أبوه يريد ذلك ومتى كانت دروسه تتطلب هذه العوده

وبما اننى لم اكن ادرى رغبة والده بهذا الخصوص فقد صار من اللازم أن اسلك السبيل الثانية ولكن قبل ان افعل ذلك يجب ان أفهم الدافع الحقيقى الذى حدا بهذا الصبى لأن يعصانى وذلك كما قلت سابقا لخير الصبى نفسه ليس غير فليس من خيره ان اجعله كالآلة آمر فيطيع من غير تردد . بل يجب ان تكون اعماله صادرة عن اقتناع ورضى ، واذن يجب ان افهم الدوافع الحقيقية لتصرفه

ولاتظن ان كل هذه الافكار خطرت ببالى فى لحظة كلا ، فلست من الملهمين والواقع انى لما أشكل على الامر اعطيت نفسى فرصة للتفكير وذلك بأن طلبت الى الصبى ان يفكر فى الموضوع وقلت له انى سافكر فيه أيضا وسوف ادعوه للحديث بعد ربع ساعة

ولما انقضت ربع الساعة دعوته الى مكتبى ، وبدأت الحديث معه ، وما كان اشد اندهاشى اذ وجدته يكرر نفس اقواله السابقة . ففهمت ان وراء هذا التصرف دافعاً

خفى على الصبى نفسه ، او قد يكون ان هذا الدافع قد اختفى وراء رغبة او شىء غير الرغبة ، وأن تلك الرغبة او ذلك الشىء قد تملك الصبى بشكل لم يعد معه يميز أهو باق لأنه يرغب فى ذلك أم لأنه يقاوم فكرة معينة او انسانا معلوماً

واختلاط الدوافع هذا أمر مقرر فى علم النفس وقد كتب عنـــه شىء كثير . فليس هو إذن أوهاما او شبه اوهام بل هو حقيقة واقعة ويسميه علماء النفس فى لغتهم (Rationalization) كما يسميه الأمريكان أو Racionation كما يدعو برتراند رسل (Bertrand Russell) والانجليز غالبا

ومحصل هذه النظرية ان العقل يفقد قوة نفاذه الى خفايا الامور واسرارها متى كان ثمة فى زاوية من زوايا النفس رغبة او شهوة او عاطفة كامنة بشكل من الاشكال ، فالناس يكرهون اليهود أولا لسبب من الاسباب ثم يبررون هذا الكره بالعقل والمنطق او بغير العقل والمنطق . فالكراهية تأتى اولا والسبب الظاهر لهذه الكراهية يأتى أخيرا ، فليكن أننا نكره اليهود اولا ، ثم ليكن السبب الظاهرى لذلك قتلهم للمسيح عند المسيحيين ، او ممارستهم للربى عند غير المسيحين ، فالاصل فيهم اذن الكراهية ، وبعد ذلك يسعى العقل لتبرير الكراهية

وعملية التبرير هذه (Rationalization) عملية غير واعية أى أنها تحدث فى اللاوعى (Uconscious) وعلى هذا فنى معظم الاحوال يخفى السبب الحقيقى عن الانسان ولا يبقى إلا السبب الظاهرى الذى لا يصح ان يكون سببا فى الحق والواقع وهكذا تسرب الى الشك فى الدافع الحقيقى الذى حدا بهذا الصبى لان يعصى ويقاوم ويتذمر للذهاب الى منزله فى مثل هذه الساعة ، ومتى كان ثمة سبب حقيقى لهذا العصيان فمن خير الصبى المحقق ان أكشف عنه لارى اذا كان حقا يبرر عصيانه فاسمح له ان يعصى ، يجب ان اعرف الدافع الحقيقى وازيله قبل ان استطيع ازالة ماترتب عليـــه من النتائج

والوسائل لمعرفة مثل هذه الحالات النفسية معروفة . فيمكن الكشف عنها بطريقة التحليل النفسانى Psychoanalysis وهى عملية صعبة شاقة تستنفد جهوداً كثيرة وتستغرق وقتاً طويلا . ولكن كثرة الجهود لاتروعنى وطول الوقت لايدخل فى حسابى متى كان تقويم اخلاق صبى واحد يتطلب مثل هذه الجهود وذلك الزمن

وأول شرط للتحليل النفسانى هو ان يثق الانسان (The Subject) بمن يعالجه : واذن يتحتم على ان أهدىء ثورة العواطف فى نفس الصبى الى ان يعود الى حالته الطبيعية وبعد ذلك أسير معه على طريقة التحليل النفسانى — وهى ان ادعه يتكلم واغريه بالتكلم وأمهد له السبيل اليه وافتح له أبوابه ومسالكه فيقول مايعن له

وبعد حديث طويل لاداعى لايراده هنا القى الصبى جملة لم يكن يدرى بأهميتها فى الموضوع . والحقيقة انها هى علة العلل وبيت الداء وأصل جميع مانحن فيه من تلك الحالة المعينة . قال الصبى (طيب وهو ماله — عاوزنى أروح دلوقت ليه)

(طيب وهو ماله — عاوزنى أروح دلوقت ليه) — هذه هى الجملة التى كشفت لى عن أصل العلة وبيت الداء . لقد صارت المسألة كلها واضحة أمامى وانحلت عقدتها واستطيع اذن أن أعالج الصبى بما يساعده على معضلاته التى قد تضر باخلاقه كثيراً ، وان كانت عوامل هذه الحالة تغيب عن فطنته

أظنه قد وضح الآن للقارىء ان المسألة على وضعها الصحيح يجب ان تكون هكذا . لقد طلب الأكبر الى الأصغر — أو أمره ان شئت — ان يصحبه الى البيت لأن الأول منهما يريد ان يذاكر دروسه . ولهذا السبب ثارت ثورة الاخ الاصغر ، ووقر فى نفسه — ان خطأ وان صواباً أنه يريد أن يتحكم فيه . وعلى هذا ثارت عاطفته ، وتملكته وتحكمت فى كل مشاعره فاعمته عن كل شىء آخر عدا أنه يريد ان يثبت لنفسه وجوداً بجانب اخيه الاكبر ، والسبيل لاثبات وجوده هو أن يبقى حيث يريد اخوه على ان يذهب . والبقاء فى نفسه — علاوة على ذلك — مرغوب فيه عنده فهو إذن يريد ان يبقى

ليلعب ويلهو . وتملكته هذه الرغبة القوية فى ذاتها بشكل انساه الموضوع الاصلى أى اعتداء اخيه المزعوم . تداخلت عواطفه فى بعضها البعض وتعقدت وارتبكت حتى صار يعجز عن تمييزها ، وصار لا يدرى لماذا يريد ان يبقى على أى حال ، وعند هذه النقطة وصلتنى حالته . فكان من واجبى أن احلل الحالة الى عواملها الاولية حتى اساعده فى حل معضلاته

وإذن فقد اكتشفت ان الصبى يعصى حقاً وأنه فى سبيل ذلك قد عصانى أنا ايضاً . ولكنه فى الواقع معذور فى ذلك فقد تجمعت عليه عوامل كثيرة ليس له بها قبل ، ولو عوقب فى هذه الحالة بأى عقاب مما أملك لما افاده ذلك شيئاً فى حل معضلاته ثم يكون فى ذلك ظلم بغيض يحيق به . وليس للظلم الا أن يفعل أحد امرين . فاما أنه يدفع المظلوم الى الثورة والتمرد والعصيان ، أو انه يقتل فيه عزة النفس ويميت فيه المروءة والشجاعة . وهذا ما يتعرض له الصبيان كثيراً بسبب عدم تبصر الآباء والمربين وهذه فى الواقع احدى العلل التى تعمل فى هدم الاخلاق فى الصبيان

والآن نعود الى تتمة الحديث بعد أن كشفت عن البواعث النفسية لهذا العصيان — تلك البواعث التى خفيت فى الواقع عن مدارك الصبى ذاته

— قلت — هو إذن يتحكم فيك ؟

— دائماً يا افندى

— وكيف ذلك ؟ أتستطيع ان تسرد لى بعض احواله معك ؟

— نعم . هو يريدنى على ان ارجع للبيت حين اريد ان ابقى ، ويبقى عندما اريد أن اذهب

— لم اعرف شيئاً عن هذا . ولكن إذا كان يفعل ذلك حقاً فهو ملوم

— نعم يفعله

— أتريدنى ان انقذك من هذه الحالة وارد لك استقلالك ؟

— اشكرك أن فعلت

— هل أنت متأكد ان اباك لا يمانع فى بقائك هنا الى الساعة السابعة مساء ؟

— نعم متأكد

— هل تستطيع أن تأتينى بالبرهان على ذلك غداً ؟

— كيف ؟

— بأن تأتينى بخطاب من والدك يقول لى فيه بأن لا مانع عنده من بقائك الى أن نغلق أبواب قسم الصبيان فى الساعة السابعة

— استطيع ذلك وسأفعله

— وانا استطيع أن احميك من أخيك وارد عنك اعتدائه وتحكمه فيك

فضحك وسر من ذلك وقال « يبقى كتر خيرك »

فقلت — والآن ماذا أنت فاعل ؟

— كما تريد

— اذهب الى البيت مبكراً الليلة وأتنى بالورقة غداً وعندئذ تنتهى مأموريتك

— حاضر — ليلتك سعيدة

وذهب الى البيت فى الحال وانتهى الاشكال . وفى اليوم التالى احضر التصريح من والده بأن له أن يبقى كيف يشاء . وقمت انا بتعهدى من ناحيتى فلم يتعرض له اخوه مطلقا ، واغرب ما يكون أنه بعد أن استمتع بحريته اسبوعا أو ما يقرب من الاسبوع صار يذهب الى البيت من تلقاء نفسه عندما يرى أن اخاه هم بذلك

الفصل الثامن

ضبط النفس وسيلة فعالة فى التربية

الحق ان الطاعة من الأمور التى يلذ للانسان دراستها واستخراج العبر الكثيرة منها . فهى منشأ كثير من العقبات فى سبيل حسن التفاهم بين الآباء والابناء وبين المربين ومن هم فى عهدتهم من النشء الصغير ، يلذ للانسان دراسة هذه الظاهرة ويسهل عليه ذلك لأن المادة فيها كثيرة لاتفرغ

فنى كثير من الاحيان وجدت ان العصيان ينشأ فى الواقع من سوء التفاهم بين المربى وتلميذه قبل ان ينشأ من أى شىء آخر ، لسنا ننكر ان هناك عوامل كثيرة تتسبب فى العصيان ولكن نريد ان نقول ان عدم التفاهم التام بين الصبى وأبيه ينتج عصيانا فى كثير من الحالات

لقد اعترضت قسم الصبيان فى مفتتح حياته صعوبة كاد فهمنا لعواملها يقضى عليها ، ولكن هذه الصعوبة اقضت من مضاجعنا فى طور معهدنا الاول ، نعم ان لها بقايا وان لها اثاراً وخصوصا مع الصبيان الحديثى العهد بهذا القسم ، وحتى مع هؤلاء أخذت تلك الصعوبة تتخذل وتفقد حدتها وأخذت السبل تمهد أمامنا نوعا ماخصوصاً بعد ان يتمرس العضو قليلا فى المعهد و يتدرب على نظاماته ويفقه الدوافع لتلك الانظمة : تلك الصعوبة تنجم عن رغبتنا فى ان كل صبى يلعب العابا قوية يجب عليه ان يستنقع بالماء البارد بعد اللعب

مسألة الاستنقاع هذه (الدوش) من مستلزمات الرياضة الصحيحة المؤسسة على المبادىء الصحية القويمة ، ونحن نتبع فيها نصائح طبيب الجمعية الخاص ورأى مديرها الرياضى : وبمعنى آخر نحن نوقن ان الحدس والتخمين فى المسائل الصحية

خطر ومجازفة لايحسن بمن له مسكة من العقل ان يرتكبه ، فللأمور الصحية اخصائيوها وأربابها ، ونحن لسنا من هؤلاء ولا نمت لهم ، ولذلك فانا اتحرز فى معاملاتى مع الصبيان من ان انصح بشىء له علاقة بابدانهم وصحتهم وكل ماأفعل هو ان استنير برأى الدكتور ثم أحاول اتباع ارشاداته : فمن جهتنا اذن نحن واثقون مما نفعل فى هذه الناحية

ولكن هنالك عاملا خارجا عن ارادتنا يعقد المسائل ويزيد فى تبعاتنا ويعطل البرامج النافعة التى نأخذ بها لمنفعة الصبيان من غير ادنى فائدة للصبيان انفسهم ذلك العامل هو بعض الاباء والامهات فى هذا البلد

الحق ان الآباء والامهات فى هذا البلد يتصرفون كأنهم اخصائيون فى الطب والتربية والاجتماع والاخلاق وفى غير هذه الامور التى قد لانعدو الصواب ان قلنا ان فى كل البلاد المصرية لايوجد اخصائيون فيها الا النزر اليسير فيما عدا الطب : يتصرف الآباء على زعم انهم يعرفون بشكل قاطع مايفيد ابنائهم وما يضر: ثم انهم لايقبلون شيئاً يتعارض مع مااستقر فى عقولهم من هذه الآراء حتى انك لتصرف وقتاً طويلا وجهداً كبيراً فى افهامهم انه يجدر بهم ان يتركوا هذه الامور لاربابها ويثقوا بهؤلاء ، وقد يكون الوقت الذى صرفت والجهد الذى بذلت ضائعين؛ لابل نستطيع ان نوقن انهما ضائعان ؛ وانه يحسن بك ان تتأكد مما انت فاعل ثم تفعله على عهدتك ان استطعت الى ذلك سبيلا : حقا ان بعض الآباء مستنيرون يعرفون حدودهم فيطلقون يدنا فيما نحب ان نصنع بأطفالهم ؛ وحقاً ان منهم من يشرف مكتبى ويصرح لى بهذا ويعرب لى عن ثقته فيما نحن صانعون ـ نقول مع ان بعضهم يفعلون هذا صادقين مخلصين الا ان امثال هؤلاء قليل وأقل من القليل يعدون على أصابع اليد الواحدة ـ واما الغالبية العظمى منهم فيحبون ان ينصحوا لطبيب الجمعية بما يفعل ويرشدوا سكرتير قسم الصبيان فيما يصنع

وأغلب الظن أن الآباء فيما يفعلون مكلفون من زوجاتهم مضطرون . لا بل هذا هو الواقع بالفعل لأن الام تتبع نظاما خاصاً لوقاية ابنها من الامراض وهذا النظام مضحك لأنه مبنى على مزاعم فاسدة وخرافات شائعة ، فاذا انتاب الصبي زكام يجب ان يتدثر ويثقل ملابسه من داخلية وخارجية ويجب أن لايقرب الماء البارد وقد يكون كل ذلك فى أشهر القيظ أى فى يوليو وأغسطس اللذين يكادان أن يزهقا أرواحنا بحرهما الشديد . وليس من النادر أن ترى صبيا فى هذا الظرف متدثراً متزملا كأنه يعيش فى القطب الشمالى أو فى أسوج . تفعل الأم هذا متبعة فيه منطقاً بسيطا ولو أنه مغلوط ، منطقا له مقدمات ونتائج ولكن نتائجه غير مبنية على مقدماته . فالبرد فى عرف الام عكس الدفء ، ومتى أردت أن تقضى عليه لايكون ذلك بغير الدفء . والدفء يلزمه التدثر والتزمل بالملابس الكثيرة من صوف وقطن . هذا منطق بسيط ، ولكن هل هو مستقيم ؟ ذلك بالضبط مالا تتكلف الام ببحثه

وبناء على هذا يقبل الاب والأم من ابنهما ان يساهم معنا فى العابنا من سهلة خفيفة وقوية عنيفة . يقبلان هذا . أما الاستنقاع بالماء وأما تغيير الملابس عند اللعب فلا . لان هذا يسبب البرد والزكام للصبى . تقبل الام أن يلعب ابنها بكل ملابسه وهى مركبة من قطع لا عدد لها . وتقبل ان يعرق الى ان تكاد تملأ وعا كبيراً اذا عصرت ملابسه . ثم تقبل ان يخرج الى عرض الطريق وملابسه مبللة على هذا الحال — كل ذلك حتى لايتعرض ابنها للبرد والزكام — ثم هى واثقة أن نظاما مثل هذا لايعرضه لهذين العارضين وعبثاً تحاول اقناعها بخطأها لانها تعرف بما لا يدع مجالا للشك أن البرد يلزمه الدفء وأن الدفء يلزمه كثرة الملابس

أما من جهتنا فنحن نعلم أن الملابس المبللة تعرض صاحبها للامراض الصدرية ونعرف أيضا أننا ملزمون ان نقاوم هذا النظام الذى تضعه الام وان تقاومه

للنهاية من غير هوادة أولين . ثم نعرف ايضا أننا مضطرون لان نمنع الصبي من الالعاب الرياضية التي تستلزم مجهودا اذا كنا لانستطيع ان نجعله يغتسل ويفرك جسمه حتى يجف وحتى يعاون الدورة الدموية فتنشط تحت الجلد مباشرة . وبمعنى آخر نحن نرفض ان نخضع لمشورة لاتصل الينا من اخصائي مهما كانت النتائج التي تترتب على ذلك

وقد ترتب على ذلك فعلا بعض نتائج لأني أذكر أني اصطدمت بأم من هذا القبيل فمنعت ابنها عن أن يغشى معهدنا . وكل ذنبنا في ذلك أننا حتمنا على هذا الصبي ان لايلعب بملابسه العادية . فكان يخلعها . ولما علمت الأم بذلك منعت ابنها إلا إذا قبلنا ان نتركه بملابسه كما هي فيلعب فيها ؛ وهذا بالذات مارفضنا أن نأخذ به : فانقطع هذا الصبي عن قسم الصبيان رغما عن علاقة الصداقة التي تقوم بيننا وبين أبيه وعائلته ؛ ولقد تراودت مع هذه العائلة كثيرا بعد ذلك ؛ ولكن مايزال الصبي متألما من الزكام والبرد ومازالت أمه تكوم الاقمشة المختلفة فوق بدنه ؛ ومازلنا نحن عاجزين عن ان نفعل شيئاً

هذه ناحية واحدة اذن للصعوبة التي تعترضنا . وهي ناحية واحدة من صعوبة واحدة بين صعوبات جمة ؛ وأما الناحية الاخرى من المسألة فهي آتية من الصبيان أنفسهم . فهم ايضاً يفضلون أن لايستنقعوا اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا يحبون أن يراوغوا ويتهربوا ولا لوم عليهم في ذلك لان للماء البارد سمعة رديئة عندهم أولا . وثانيا لأن لهذا الماء لذعة خفيفة حتى وان كان الوقت صيفا خصوصا عند اولئك الذين لم يعتادوا الاغتسال بالماء البارد . وكل مايقبلونه ويرتضونه هو أن يبللوا وجوههم ورءوسهم واما ماعدا ذلك فليس من الامور المستحبة عندهم هذا في مبدأ الامر . أما بعد ذلك . بعد أن يكونوا قد تمرسوا على الانظمة واختبروها وعلموا أنها تعمل لخيرهم لاغير فلا تعود هنالك صعوبة مطلقا . بل تنحصر مأموريتنا

فى ان نجعلهم يقتصدون ما أمكن فى مكوثهم تحت ميازيب الماء وإلا يطيلوا زمن تعرضهم للرذاذ لأن الاطالة فى هذا التعرض مضرة كما يقول الطبيب

من هذه العوامل نجمت حالتنا التى نحن بصددها والتى أوردناها تحت باب الطاعة وان كان يجوز ان توضع تحت غيره من الابواب

انضم لعضوية قسم الصبيان صبى فى الخامسة عشر من عمره مديد القامة اصفر الوجه نحيل البدن تكاد تجزم أنه فى حاجة الى غذاء وهو فعلا فى حاجة الى الغذاء وان كان منزله يفيض به . انضم هذا الصبى اذن لعائلتنا واخذ يشترك معنا فى الالعاب الخفيفة التى لاتطلب حركة سريعة أو مجهودا كبيرا . وخيراً صنع لأننا لم نكن لننصحه بالاشتراك فى مثل هذا المجهود من دون ان يكون بدنه قد اعتاد الحركة والنشاط ومن دون ان يكون قد تدرج فى الحركة والنشاط

ثم تولدت فيه الرغبة للالعاب القوية السريعة وشعرنا نحن ان جهازه الجسمانى قد تكيف بشكل يجعله يستفيد من مثل هذه الالعاب فسمحنا له بأن ينال قسطه منها . خلع ملابسه الخارجية اذن وارتدى ملابس الالعاب فوق الملابس الداخلية وخرج الى الملعب الرياضى وكان ذلك فى أشهر القيظ والدنيا توشك ان تشتعل من الحرارة . فدعوته الى واخبرته انه لايستطيع ان يلعب بهذا الشكل وهو مرتد نفس الملابس التى سوف يخرج بها فى عرض الطريق واقنعته بعد بحث كثير ان هذا مضر بصحته . فكان دفاعه الذى لايبغى عنه تحولا أن هذا العمل قد يعرضه للبرد والزكام . ولكنه اقتنع على كل حال وانتصح بنصيحتى . ثم لعب

فرغ من اللعب ودخل مع الداخلين ليبدل ملابسه وتبعتهم حتى أحمل من لم يستحم منهم على الاستحمام . فوجدت بضعة منهم يوشكون ان يرتدوا ملابسهم العادية من دون أن يغسلوا أبدانهم فأخذت الاهبة وأجمعت أمرى على ان أقابل هذه الحالة واتغلب عليها فى الحال حتى لاتتعرض أبدانهم أوصدورهم لبعض النزلات الشعبية أوغيرها

ونحن نعلم من الاختبار أولا ومن قواعد التربية ثانيا ان التربية لاتجدى اذا كانت بالجملة بل يجب ان تكون بالتجزئة وتتناول الصبيان أفراداً وليس جماعة . لان الجماعة — وخصوصا متى كانت مؤلفة من صبيان صغار — من شأنها أن تشجع الفرد وتشد من عزمه فيوغل فى الخطأ استنادا على روح الجماعة وما أسرع ما تخلق المربى فى جميع روح العصابة Gang Spirit اذا لم يتحرز ويتشدد فى تصرفه معهم واذا لم يتريث ويحتال حتى لاتنبت مثل هذه الروح . وخير مايفعل المربى ان يأخذهم منفردين اذا كانت تلك الروح توشك ان تتكون على مبادىء غير مرغوب فيها ولاغراض غير منتجة وغير نافعة لتكوين شخصياتهم . ولكن كيف يتسنى لى فى هذا الظرف بعينه أن أعالج هؤلاء الصبيان منفردين ؟ هل انتحى بكل ناحية منزوية فى مكتبى وأتحدث اليه ؟ لم يكن ثمة مجال لذلك لانهم أما ان يغتسلوا فى الحال أولا يغتسلون مطلقا فى هذا الظرف . وبمعنى آخر لا يتسع الوقت للاخذ والرد . فكان من المتحتم على اذن ان أبدأ كلامى ونصائحى وأبدأ فيها من أى طرف ومع أى صبى . ولم يكن لى الا ان أتخير أحدهم وأبدأ به ؛ ولانه لم يكن لى معرفة بنفسيات هؤلاء الصبيان بالذات لانهم حديثى العهد بمعهدنا لم يكن أمامى الا ان أعالج واحداً منهم كيفما اتفق فان نجحت معه عالجت غيره ولكنى اصطدمت بعقبة كأداء فى مفتح الطريق

تقدمت الى صبى وقلت له

— اغتسل قبل ان ترتدى ملابسك

— لا . . . . (قال هكذا بلغة جافة شديدة قاطعة من غير ان تصحبها رنة اعتذار)

فقلت كيف ذلك ؟

فقال . لا — موش عاوز . . . .

وكانت جافة أيضا من غير تلطف فى القول . . . . قالها بشكل جعلنى افهم انى

انا المقصودة بهذا الرفض وليس الفعل ذاته ، وبعبارة أخرى التي الكلمة في وجهي كأنه يتحداني . فصمت قليلا لاقلب المسألة في عقلي علني اهتدي الى اسباب هذا التحدي ولكني لم اهتد لتلك الاسباب لانها غير موجودة أصلا ، فانه لايعقل ان صبيا يتحدى رجلا مسئولا له بعض السلطان عليه هذا مع العلم انه لاداعي مطلقا لهذا التحدي . فهو اذن ليس تحديا رغما عن كون تصرفه يدل على ذلك ورغما عن ان باقي الصبيان نظروا الى هذا الفعل على انه تحد مقصود

تبين هذا لي بعد أن حللت الظروف والظواهر بقدر ما استطعت ان احللها فلم يكن لي في هذا الظرف الا أن اتبع العقل والمنطق والا أن اهزأ من العاطفة الغليظة التي كانت قد تملكتني ، قررت للتو والساعة ان تصرفه برئ ، وانه لايقصد الى العصيان أو الى التحدي ، ولم يتبق لي اذن سوى أن افهم الاسباب التي من اجلها يرفض أن يغتسل ، وهذه الاسباب مجهولة وهو لا يريد الكشف عنها أو لا يستطيع ذلك . وعلى أي حال لم يكن ذلك الوقت انسب الاوقات للبحث وراءها وعلى هذا تركته من غير كلمة أو اشارة وذهبت الى غيره وتحدثت اليهم على مسمع منه ومرأى

قلت لغيره — يحسن بك ان تستنقع فقال كلا . وهكذا كلمت ثالثا ورابعا ولكنهم امتنعوا جميعا عن ان يقبلوا . فزاد الحرج في صدري واسفت لهذا الظرف الذي صادفني ، خصوصا وقد شعرت أن جميع المشاهدين حملقوا في وجوه بعض كأنهم يستوحون بعضهم عما يتبع هذا التصرف الذي لم يكونوا يفهمونه الا على انه تحد صريح

قلت ، فليكن ، وانصرفت مثقلا بالشعور ان المعضلة في الواقع لم تنته ولكنها ابتدأت

وبعد أيام قابلت الصبي فدعوته الى وداد الحديث الآتي :

ـــ كيف حالك ؟

ـــ الحمد لله

ـــ وما رأيك فيما حدث تلك الليلة

ـــ ما هو ؟

ـــ رفضك بطريقة عليها مسحة القطع والبت ان تغتسل

ـــ انى اخشى الماء البارد

ـــ هذا حسن ولكن ما قولك فيما ترتب على ذلك

ـــ وماذا ترتب عليه ؟

ـــ ترتب عليه رفض الجماعة كلها ان تنتصح بنصيحتى، ماذا كنت تقصد بالضبط هل كنت تقصد ان تتهرب من الاغتسال لاغير أم كنت تريد ايضا ان لايغتسل غيرك ؟

ـــ لم اكن ارمى الى شيء من هذا مطلقا

ـــ انى اميل الى تصديقك . ولكن هذا بالضبط ما ترتب على امتناعك أولا وعلى الطريقة التى بها امتنعت ثانيا . فهل فكرت قليلا فى هذا الامر بعد ان انصرفت الى منزلك ؟

ـــ نعم فكرت واسفت لهذا الظرف وشعرت بحروجة الموقف وتمنيت لو لم افعل . ثم انى قررت بعدها بزمن قصير انى اخطأت وانه كان يجب على ان لا امتنع وليس هذا فقط ولكنى آليت على نفسى ان اغتسل بعد كل لعبة كما تفعلون فى هذا المعهد

ـــ كفى فنحن متفقان وما زلنا صديقين

ـــ شكرا وسوف ترى منى ما يسرك

قد يقول القارىء : هذا حسن ولكن ماذا عملت لجميع هؤلاء الصبيان الذين شاهدوا هذا التحدى أو الذين شعروا ان خطأ أو صوابا ان صبياً تحدى مربيه

من غير ان يكون لهذا التحدى المزعوم نتائج تترتب عليه ؟ الم يكن يجدر بالمربى ان يقدم لهؤلاء الصبيان درساً فى الطاعة مثلا ؟ الم يكن ينبغى على المخطىء ان يشعر هؤلاء بأنه أخطأ وبأنه تصرف تصرفا معيباً وبأنه آلى على نفسه ان لايعود الى مثل هذا التصرف ؟ تجول هذه الاسئلة وأمثالها كثير فى خواطر القراء ، ولست أنكر انها جالت فى خاطرى مرة من المرات فبحثتها مع نفسى وحللتها ووصلت فيها الى نتيجة مرضية

وقبل ان نجيب على هذه المسألة ، أو بعبارة أخرى لكى نجيب عليها بطريقة معقولة يحسن بنا ان نجيب على هذا السؤال ، ماالغرض من وجود هؤلاء الصبيان فى هذا المعهد من الأصل ؟ هل التحقوا به لكى يعلموا ان له مديراً وانه يجب عليهم ان يخضعوا لهذا المدير ويطيعوه ؟ أظنه من المتفق عليه ان غرضا كهذا لايصح ان يجول بخاطر أى انسان ، فاحرى بهم ان لايلتحقوا بهذا المعهد ولا يعرفوا مديره او يخضعوا لهذا المدير ويطيعوه من ان نوجدهم فيه ونؤاخذهم بهذا الخضوع وتلك الطاعة ، فالمعهد لم يوجد للمدير وانما للصبيان ولن يمكن ان يكون الأمر بخلاف ذلك

ولا يمكن ان يكون قد وجد لمعاقبة المذنبين فيه لأنه يكفى ان لايوجد أصلا فلا يوجد فيه مذنبون ، لابل نحن نوقن ان لامذنبين فيه لانه ليس اصلاحية للاحداث وان كان يحاول ان يصلح من الاخلاق مااستطاع الى ذلك سبيلا ، وبمعنى آخر لم يؤسس هذا المعهد على شىء سلبى ، أو على مقاومة بعض أنواع التصرف ، وانما وجد لكى يكون ميدانا للنشاط الايجابى — ذلك الضرب من النشاط الذى عليه تتوقف الاخلاق بجملتها وتفاصيلها — وكل مانسعى اليه اذن هو ان نوجد البيئة الملائمة للصبى لينشط ويفعل فيبنى اخلاقه بمقتضى ذلك النشاط ، وبمعنى آخر اننا لا نقبل الصبيان لنعاقبهم متى سرقوا أو كذبوا أو عصوا

بل نقبلهم وفى نفس الوقت نحاول اصطناع البيئة بشكل لايترك لهم مجالا لهذه الامور فلا يفعلونها أصلا . واما اذا ارتكبوها فيجب أن نرجع الى نفوسنا نحن المربين حتى نصلح من طرائق معالجتنا لهم أولا وحتى نغير من عوامل البيئة ثانيا . وليس يعنى هذا اننا لانقاوم هذه النقائص . وانما كل مانرمى اليه هو ان المربى يجب ان يرجع الى نفسه والى البيئة والظروف التى اصطنع قبل ان يعود باللائمة على من هم فى عهدته وتحت رعايته

انا أعلم ان هذا الكلام لايروق كثيرين من المربين ، ولكن ماذنب الكاتب فى هذا ؟ ماذنبه وهو لايأخذ فى هذا الا برأى أئمة التربية المجددين أولا وباختباراته وتجاربه فى التربية ثانيا ؟ ثم هو يشعر بعد اطلاعه وتجاربه ان كثيراً من المعضلات التى تقوم بين الطفل والمربى انما منشأها فى الأصل من المربى . وان هذا الأخير لو رجع الى نفسه وحاسبها ودقق فى هذا الحساب لوجد انه هو الملوم الى حد كبير ، وانه لابد واجد فى مزاجه وميوله وتصرفاته مايبرر بعض تصرفات الاطفال

فليس اذن من الأمور المهمة أن يعلم الصبيان ان الطاعة واجبة عليهم أو ان المربى قادر أو غير قادر على الاقتصاص منهم ومن المذنبين ، وانما المهم أن لايعصوا فيما يعود عليهم بالخير ، والمهم أيضاً أن يكون لهم من قوة الشخصية وعناصر النفس الابية مايجعلهم أن يعصوا ويقاوموا أيضاً متى كان العصيان والمقاومة واجبين عليهم ، وبمعنى آخر يجب الا يكون الغرض من التربية الزام الصبيان بالطاعة لاى سبب من الاسباب بل تجنيبهم للاخطاء التى تعود على اخلاقهم بالاضرار ، وبعد ذلك ليعصوا ماشاؤا أن يعصوا ، فالطاعة اذن ليست غاية فى نفسها وانما هى وسيلة لشىء آخر . ومتى استطعنا أن نصل بالصبيان الى هذا الشىء الآخر من غير أن نلزمهم بطاعتنا فليكن . ولنسلك تلك السبل

بعد هذا نستطيع نجيب على السؤال الاول وهو : ماذا عمل لهؤلاء الصبيان ؟ نجيب على هذا السؤال بالقول أنه لم يعمل لهم شيء على الاطلاق . وهم لايدرون شيئا عما تم بعد الحادثة أما اذا خطر لاحدهم أن يتحدى على هذا النسق فستكون حالته خاصة وستعالج على أنها كذلك

اذن فليحملوا هذه الحادثة على أى محمل يريدون . وليس لانسان مهما كان ذاسلطان أن يتدخل فيما بين الصغار وبين شعورهم . وليس لنا فى الواقع تدخل الا فى تصرفاتهم . ثم يجب الا نتدخل فى هذه الا بقصد توجيهها الى الوجهات التى نظن أنها صالحة . وبمعنى اخر لايجدر بالمربى أن يحاول منع بعض التصرفات بل يجب عليه أن يوجهها ويسددها الى غايات عالية

obeikandl.com

البـــــــــاب الثالث

الولاء للجماعة

obeikandl.com

الفصل الأول

ضرورة الولاء للجماعة

قد ينجو الصبي إذا خان قضية رفقائه ولم تكن الظروف تساعد على ان ينال جزاءه الحق ، وخصوصاً متى كانت جماعته غير منظمة ، وليس لها رأى عام يتحكم فى الافراد . قد يفعل مايعد خيانة فى نظر الحق والعدل ومع ذلك لايكون لهذه الخيانة نتيجة تترتب عليها — ذلك لأن الجماعة فى هذه الحالة لاتشعر بوحدتها ولا تكون لها روح الجماعة ومميزاتها . فى مثل هذه الحالات لايكون أمام المربى إلا أن يعاقب الفرد بنفسه او يتركه من غير عقاب أصلا . وكلا الامرين لايخلو من مآخذ . فالعقاب من طبعه ينقل الحالة من وضعها الاصلى — صبي أخطأ لا أكثر ولا أقل — الى مايشبه النزاع بين المربى والتلميذ ، وأما الترك فيجعل الصبي يشعر أن مسائل الاخلاق تافهة نوعا ما

ونحن لانميل للعقاب من طبعنا وان كنا فى بعض الحالات نسبب بعض الآلام للصبيان المخطئين ، ولكننا نفضل على أى حال ان لانلجأ اليـــه وبذا نحافظ على العلائق بيننا وبين الصبيان حتى نستطيع ان نستخدمها فى حملهم على أن يقبلوا على بعض أنواع النشاط الذى ينتج منه فائدة لأخلاقهم ، نحافظ على هذه العلائق ونحاول بكل الطرق الممكنة أن نزيدها وثوقا وتمكيناً علماً منا بأنها أفعل فى نفوس الصبيان وأنجع الوسائل التى تستخدم معهم لتنزيه سلوكهم وتصرفاتهم عن النقائص وأن كان لايمكن ان تنزه عن الاغلاط والاخطاء . والحق ان حسن العلاقات وعمقها بين الصبي ومربيه هى أثمن مايملك هذا المربى ، ويجب أن يحرص عليها بأكثر مما يحرص على أى شيء آخر

وهو يستطيع ان يحرص عليها وأن يستخدمها متى كان بجانبه راى عام أو روح قوية للجماعة (Group Spirit) يستطيع أن يستخدمه لتبكيت الصبي ولزجره من غير ان يلجأ الى الطريقة المباشرة كأن يحضر الصبي أمامه ويشرع يوبخه وينهره عن هذا أو ذاك . أما اذا كانت الجماعة منظمة يستطيع المربي ان يترك هذا للرأى العام ويحتفظ هو بالعلاقات الحسنة يستخدمها بطريقة ايجابية منتجة . ونحن نوقن أنه متى كان الرأى العام متنبها ويقظاً ومستعداً ، ومتى أخذ يتحرك ليتناول المذنب يستطيع المربي ان يؤمن ان النتيجة ستكون سريعة

أما فى الحالة التى سنوردها الآن فلم يكن قد وجد عندنا رأى عام أو روح خاص بالجماعة . لم يكن عندنا هذه الروح لأن هذه الحادثة قد وقعت فى وقت مبكر من تاريخ حياة معهدنا — حدثت من سنتين تقريباً وكنت حديث العهد بالمعهد فلم أدخل فيه بعض تلك الانظمة التى تساعد على ايجاد رأى عام ، ولأنه لم يكن قد وجد بعد كنت اوبخ وانتهر عندما يوجد داع لذلك ، وبعبارة اخرى كنت أحاول ان أقوم بتلك الوظيفة التى أنصح الآن بتركها للرأى العام

والآن لنا فى معهدنا كثير من هذه الانظمـــة ، ويعيننا فى وظيفتنا رأى عام للجماعة سوف نتناوله بالشرح فيما يتلو من هذا الكتاب . هذه الروح تضغط المذنبين نوعا ما ، وأنا استخدم علاقتى بالفرد بطريقة ايجابية لمنفعته ولتدبير أنواع النشاط اللازم لنمو اخلاقه عند سنوح الفرص الملائمة لذلك

حدث مرة اننا ازمعنا أن نمثل رواية فى قسم الصبيان ، ورواياتنا عادة تمس الحياة العامة أو حياة الصبيان فى هذا البلد على الخصوص . نكتب الرواية بأنفسنا بعد أن نفكر فى هيكلها سوية . ثم يستعد الصبيان فى أدوارهم ، وينظمون مسرحهم ويقومون بكل مايلزم لمثل هذا المشروع . نحن لانكثر من أمثال هذه المشرعات حتى لاتستنفد كثيراً من أوقاتهم ، وانما نتحين الاجازات والعطلات حتى نستثمرها فيما يعود عليهم

ولما لم يكن لدينا ناد للتمثيل كنت أوزع الادوار بنفسى على من يليقون لها ويليق لهم من غير استشارة أحد من الصبيان . بالطبع لم تكن هذه احسن السبل لأن فيها تعسفاً وفيها تقليداً لانظمتنا المدرسية الشبيهة بالعسكرية . ولكنى لم اكن املك فى ذاك الوقت غيرهذه السبيل اذلم تكن الجماعة قد تكونت بعد . ولم تكن قداخذت تقوم بوظيفتها فقمت انا بتلك الوظيفة ما استطعت

كنت ادعو الصبيان الذين اخترت الى مكتبى افراداً واحاديثهم بشأن الرواية واعرض عليهم الدور الذى اخترت لهم واسألهم عما اذا كانوا مستعدين لأن يقوموا به . ومن قبل منهم اعطيه دوره . ومن رفض اشكره على صراحته واتقبل عذره شاكراً راضياً ثم اصالحه واقفاً ويخرج . وبالطبع كانوا يعلمون انهم أحرار مطلقو الحرية فى القبول وعدمه . فلم يكن ثمة ضغط عليهم بأى شكل من الاشكال والصبيان على العموم يحبون التمثيل ويشتهون أن يساهموا فيه لأنه يستقيم مع طبائعهم بأكثر مما يستقيم مع طبائع البالغين . والواقع أن الاطفال يصرفون جزءاً كبيراً من وقتهم فى بعض انواع التمثيل . فكان الصبيان اذن يقبلون على هذا . لا بل بعضهم كان يحزن لانى لم اعطه دوراً يمثله . وبعضهم كان يحزن ويذهب حزينا غير مستطيع أن يفهم وجهة نظرى . وهذه الصعوبة ايضاً كنت استطيع أن اتجنبها لو كان لنا ناد للتمثيل منظم

دعوت اذن احد هؤلاء الصبيان وعرضت عليه الدور الذى ارى أنه يليق به فقبله بطيبة خاطر ووعد بأن يفرغ جهده ليتقنه ويقوم به خير قيام فسررت من ذلك ودعوت له بالنجاح فيه ثم انصرف

ومضى وقت طويل ، واوشك ميعاد الرواية أن يحين ، وأنا من جهتى ماض فى تحضير ما يجب تحضيره . والصبيان يستعدون فى ادوارهم بينما كل هذا يحدث اذا بى اتسلم مظروفا . ففتحته ووجدت به دور هذا الصبى وبه ايضاً مكتوب يعتذر

فيه عن القيام بدوره ، ثم لم يزد على هذا ، بالطبع لم يكن هذا التصرف مستحبا لدينا ولم يكن مساعدا لنا على تحقيق مشروعنا ولم يكن منه الا أنه زاد فى الاعباء الملقاة على عاتقنا . فقد انشأ لنا حالة تتطلب حلا سريعا والا استطاع هـــذا الصبي أن يفسد مشروعات معهد كبير محترم ، وهذا بالذات ما يجب أن لا يكون تحت أى ظرف ، لا يجب أن يمكن صبي مثل هذا من الوصول بالمعهد الى مثل هذه النتيجة سواء أكان يقصد الى مثل هذه الغاية من تصرفه أم لا يقصد ، لأنه لو استطاع ولو عن غير قصد أن يفسد اغراض المعهد لما كنا نأمن أن يحاول بعض الصبيان أن يقلدوه لاغراض عندهم ، ولاستقر فى اذهانهم انهم مستطيعوه . وهذا ما يجب أن نحتاط له بكل ما نملك من قوة ووسائل ، نحتاط له لخير الصبيان انفسهم حتى لايهزلون حينما يجب أن يجدوا ، وحتى تبقى للمعهد فى نفوسهم كرامته فلا يستخفون به فيعود هـــذا الاستخفاف على اخلاقهم باضرار بالغة لا اظنها تخفى على المشتغلين بالتربية

أخذت الدوراذن وأعطيته لصبي آخر واستعد فيه وقام به خير قيام ، فمثلت الرواية فى ميعادها وحضرها ذلك الصبي مع الحاضرين . وأظنها نجحت نجاحا كبيراً . كل ذلك وأنا أرى ذلك الصبي كل يوم تقريبا من غير أن أفاتحه بشيء ، وأغلب الظن أنه كان ينتظر ان يرى المعهد مقلوبا رأساً على عقب . ويرى مديره يسعى هنا وهنالك ويهرول من هذا الى ذاك حتى ينقذه أحدهم من ورطته . وأغلب الظن أيضا أنه كان ينتظر أن أدعوه الى مكتبي وأتحدث اليه حديثاً لينا لطيفا وأحاول أن أفهمه أهمية مركزه وأرجوه ان لا يتركنا فى مثل هذه الورطة

أنه عبث أطفال . ويجب أن ننتظر منهم مثل هذا العبث لأنهم لا يقدرون النتائج . لا بل يجب ان نحب منهم هذا العبث فهو دليل على التفكير وترتيب النتائج ، أنما يجب أن نوجهه الى حيث ينفع

فرغنا من تمثيل روايتنا ، وسويت حسابى مع عواطفى التى ثارت لهذا التصرف ثم دعوت الصبى الى مكتبى وقلت

ــ لماذا أرجعت دورك يافلان ؟

ــ أرجعته والسلام (وتستطيع ان تنتظر مثل هذا الجواب من الصبيان فى معظم الحالات . فلفظة « والسلام » هذه عبارة عن مقدمة لافضائهم بما فى نفوسهم) فقلت

ــ والسبب الحقيقى ؟

ــ والسبب الحقيقى انى لم أشأ ان أظهر على خشبة المسرح مع أطفال مثل فلان وفلان (سن هذا الصبى كانت ١٣ سنة وسن هذين ١١ و ١١ ونصف سنة)

ــ لماذا ؟

ــ لأنهم أصغر منى

ــ اذن يجب أن أخجل أنا اظهورى معك فى أى مكان لأنك أصغر منى بكثير هل ، يروقك مثل هذا المنطق ؟

ــ ؟؟؟؟ (وهذا أيضا نوع من أجوبة الصبيان)

ــ لاجواب عندك ، اذن أنت تشعر بأن هذا خطأ . فلنتحدث فى غير هذا ، ما قولك فيما فعلت بقسم الصبيان الذى تنتمى اليه ؟

ــ ماذا فعلت ؟

ــ خنته فى أحرج مواقفه ، خنته حيث كان ينتظر منك أن تقف بجانبه

ــ كلا لم أخنه ولست أنا خائناً

ــ لقد تصرفت تصرف الخائن ، ذلك لان قسم الصبيان وثق منك لترفع رأسه بين الناس فهربت وتركته فى أحرج المواقف ومثلك فى هذا مثل لاعب يترك فريقه فجأة والفريق على وشك نضال عنيف

ـــ كلا لم اخن القسم فقد وجد من يقوم مقامى

ـــ ان كان قد استطاع ان ينحو من هذا المركز الحرج فذلك لم يكن من عملك انت او بارادتك . اتريد ان لايثق بك قسم الصبيان ؟

ـــ كلا ، أريد منه ان يثق بى

ـــ بكل أسف ليس تصرفك مشجعاً له على هذه الثقة

ثم فتحت درج مكتبي وأخرجت منه مشروعا كان يرمى الى تكوين لجنة من الصبيان واعطائها بعض السلطة لتتصرف فى ناحية من برنامجه ، وقد كان الغرض من هذا النظام أن ننمى روح القيادة والزعامة فى الصبيان ، وقد كتبت اسم هذا الصبي من ضمن هؤلاء الذين وقع عليهم الاختيار ليتزعموا ويقودوا اخوانهم فى بعض ضروب النشاط . اريته هذه الورقة وقلت

ـــ اترى هذه ؟

ـــ نعم

ـــ أترى هذا الاسم ؟

ـــ نعم هو اسمى ـــ وما الغرض من هذا ؟

ـــ كنت أضع مشروعا للجنة من الأعضاء الكبار نوعا فى هذا القسم حتى يشتركوا معى فى وضع سياسته وحتى يكون عليهم جزء من المسئولية الملقاة على عاتقى ، وبالطبع لاختار لمثل هذا الشرف الا الذين يكونون موضع ثقة قسم الصبيان

ـــ وهل أنا عضو فى هذه اللجنة ؟

ـــ هذا ما كنت آمله

ـــ والآن ؟

ـــ والآن لاشيء . نحن مازلنا صديقين وانا مستعد لمساعدتك بكل ماأملك من قوة الا انني يجب ان أتريث أمام اسمك

ـ لماذا ؟

ـ قد تكلف بشيء فتتركه فى آخر لحظة وتترك المعهد فى مركز حرج كما فعلت

ـ كلا ، لن أفعل هذا

ـ وما هى الضمانات على ذلك ؟

ـ أنا أعلم انى لن اتخلى عن قسم الصبيان فى الأوقات الحرجة

ـ لكن هذا ماتم بالضبط فى حادثة التمثيل

ـ ولكنه ان يحدث مرة ثانية

ـ لقد اتفقنا اذن

فى هذه الحادثة خدمتنى الظروف وأسعفتنى لانى كنت فعلا أفكر فى هذا الصبي لينضم الى فريق القادة فى قسم الصبيان ، ولان هذا الظرف كان مواتيا وملائماً للدرس الذى أردت ان يتعلمه ، استخدمته الى أقصى حد ممكن ، وأظن ان الحظ المحض والصدفة الغير المدبرة هى التى مكنته من ان يرى غلطته ، أما لولم يكن الامر كذلك ، ولو لم يكن هذا المشروع موجوداً فى درج مكتبى ، ثم لولم يكن اسم هذا الصبي من الأسماء التى فكرت فيها لتنفيذ هذا المشروع ، نقول انه لو لم تكن الامور مرتبة بهذه الكيفية من تلقاء نفسها لما استطعت ان أؤثر فى هذا الصبي أوأفعل معه شيئاً ـ ذلك لأن الشهوة كانت قد تملكته وكانت تسيره كيف تشاء وفى هذه الحالة بالطبع لاينفع منطق أو عقل . لأنه اذا كانت الشهوة تعمى البالغين الذين يدركون الامور بشكل أعم فكم بالحرى تفسد هذه الشهوات قوة الادراك عند الصبيان ؟

وكما قلت سابقاً لم يكن لنا رأى عام ولم تكن روح الجماعة قد تكونت بعد فلم يتسن لى ان استخدمها بالطبع ، ولكن ليس لى ان اشكو أو أتذمر لان الظروف فى هذه الحادثة كانت ملائمة لاقناع هذا الصبي ـ عن طريق شهواته أيضاً ـ بأن تصرفه معيب

الفصل الثاني

الولاء للجماعة أيضاً

لسنا مغالين اذا دعونا الحادثة السابقة خيانة لانها فى الواقع كذلك. فالجندى الذى يهرب من الميدان عند بدء القتال خائن ، والزعيم السياسى الذى يترك حزبه فى وقت الخطر خائن ، وأى انسان يترك جماعته فى الازمات خائن لهذه الجماعة ، وهذا مافعله صبينا بالذات . وهذا هو الوصف الذى ينطبق على تصرفه ، ولا ينطبق على تصرفه وصف سواه ، فنحن اذن لسنا مغالين أو نريد أن نهول فى الامر ونكبر على غير داع . ولسنا نريد ان نصم هذا الصبى ونسوى سمعته ، ولكننا نحاول ان نذكر التصرفات باسمائها لاغير

والواقع ان هذا الصبى لم يكن يدرى مبلغ مافعل والاثار التى تترتب عليه . وبمعنى آخر انه لم يكن يرمى الى الخيانة أو الى مايقرب منها وانما كل مافعل هو انه قد تملكته شهوة عارضة ، وانه أخضع نفسه لهذه الشهوة . ولا لوم عليه فى ذلك مطلقا لانه صغير ولم يتمرس بعد ولم تكن لديه ملكة التفكير نامية مستكملة حتى يستطيع ان يزن بها الامور ويقدر العواقب . والحق انه دل على انه أهل للثقة بقدر ماتسمح له ملكاته واختباره

وانما فى الحادثة التى ذكرنا فى الفصل السابق لا يسعنا الا ان نقول ان تصرفه كان خيانة ، وان كانت خيانة غير مدبرة أو مقصودة ، ثم أنه يجب ان يعالج منها حتى لاتكبر معه وتصير لازمة من لوازم اخلاقه وتتبعه كظله أينما سار . كان يجب ان يعالج من هذه الظاهرة . وهذا ما حاولنا أن نفعله . وهذا بالضبط ماسوف نفعله معه ومع غيره اذا بدت هذه الظاهرة عليه أو على غيره . وقد

كانت الظروف ملائمة لنا فى تلك الحادثة كما قلنا

أما فى هذه الحادثة التى نزمع ان نشرحها فى هذا الفصل فلم تكن الظروف ملائمة لعلاجها . لقد بينت للصبي الاثار التى تترتب عليه باوضح ما استطعت. وقد استخدمت كل ما أملك من قوة حجة وبيان لهذه الغاية . ثم حرصت على ان لا تتملكنى سورة الغضب للمركز الحرج الذى أوجد المعهد فيه ، حاولت أن أتملك كل عواطفى الحادة لان الغرض من هذا المعهد هو تربية الصبيان وتحسين أخلاقهم وليس المعهد غرضا فى ذاته . نعم نحرص عليه لانه هو اداتنا فى التربية الاخلاقية ولكن هذا الحرص لايعدو ان يكون محافظة على اداة نافعة لغرض اسمى ليس غير . ولذلك لم افكر لحظة فى المركز الحرج الذى وضع فيه المعهد : لم افكر فى هذا الا بقدر ما استعمله كحجة لتفهيم الصبى معنى تصرفه . واما فيما عدا ذلك فقد كان الصبى نفسه محور تفكيرى فى اثناء معالجتى لاخلاقه

كانت هذه الحادثة ايضاً تختص بالتمثيل ، وكان عندنا رواية واخترت الاعضاء على الطريقة التى شرحت وقبلوا جميعهم ان يقوموا بادوارهم وكان من القابلين صبي لايتجاوز الثانية عشرة حسن المظهر والبزة فصبح العبارة والالقاء لا تلعثم فيه ولا تردد . كان كسولا ليس عن عجز اوضعف فى العقل وانما لايستطيع ان يحصر فكره ويجمع رأيه على أمر من الامور ويسير فيه رغم الجهود التى يتكلفها ولكنه قبل على اى حال واخذ دوره ليستعد فيه

ثم ارجم الدور مع بعض الصبيان ، ولم يكتب لى بالسبب ولم يفاتحنى به ، بل ارسله ، والسلام ، ثم ثارت نفسى بعض الشىء ، ثم هدأت أو الزمتها أن تهدأ وتسكن واعطيت الدور لآخر ، ومثلت الرواية كالمعتاد

ودعوت الصبي الى مكتبي . وكانت ظروف هذه الحالة اسوأ من ظروف الحالة السابقة ، ففى الحالتين لم اكن املك رأيا عاما أوجهه الى ناحية معلومة فيمهد السبيل

ويعبدها ويزيل منها الموانع حتى اصل الى غرضى باخصر طريق واسهله ، لم يكن لنا هذا الرأى العام فى الحالتين على السواء ، والى هنا هما متشابهتان ولكنهما تختلفان فى انه فى هذه الحالة لم يكن لدى مشروع مثل المشروع السابق ولم يكن اسم هذا الصبى من ضمن اسماء اخرى لغرض مثل ذاك ، واذن فهذا سلاح لم اجده فى متناول يدى لاستعمله فى هذه الحالة . هذا عامل مهم فى الموضوع لم يكن متوافراً لنا ولكن هذا لم يكن ليمنعنا عن أن نتحدث الى ذلك الصبى ففعلنا . قلت :

— لماذا ارجعت دورك ؟

— لانى فقدت اللذة فى الظهور على المسرح

— الم تعلم انك فقدتها قبل ذلك ؟ الم تكن تدرى بميولك النفسية قبل أن تعد بالاضطلاع بهذا الدور ؟

— كلا . لقد خطر ببالى أن ارجعه فارجعته

الم تفكر فى معهدك وفى اخوانك قبل أن ترجعه ؟

— وماذا على المعهد وماذا على اخوانى من هذا ؟

— كأن المعهد يثق بك

— وماذا جرى لهذه الثقة ؟

— تبددت

ولماذا ؟

— لانه وثق بك مرة ، وثق انك ستكون عند كلمتك التى اعطيتها له وانك ستبذل اقصى ما تستطيع من جهد لاظهاره للناس بأحسن مظهر

— وأنا مستعد لأن افعل هذا

— ولكنك لم تفعله فى المرة السابقة . لم تكلف نفسك اقل عناء من اجله كأنه لا يعنيك سواء انجحت مشروعاته أم لم تنجح وسواء أكان يوفى بعهوده للجمهور أم لا يوفى بها

ـ انى اهتم لهذا كله

ـ اذن لماذا لم تبرهن على هذا الاهتمام بالفعل ؟

ـ عندما تحين الظروف افعل

ـ لقد حانت الظروف فامتنعت عن أن تفعل

ـ ما كنتش عاوز امثل

ـ لقد اخطأت فى تصرفك

ـ لا أرى انى أخطأت

ـ حسن أذهب اذن

ثم صافحته واقفاً كما هى عادتى معهم ، وخرج .

ماذا استطيع أن أفعل فى هذه الحالة أكثر مما فعلت ؟ الحق ان هذه التصرفات تدفع بالانسان الى الحنق ، ولكن ماذا يجدى الحنق والغيظ إلا أن يزيد المسائل تعقيداً وإلا أن يؤذى الصبى ولا ينفعه ؟ اذن فلنبلع حنقنا ولنبرد غيظنا لأنهما فى الواقع دليل مادى على عجزنا المريع فى فهم هؤلاء الصبيان ، وماذنبهم هم اذا كنا لا نفهمهم كما يجب ، ليس لهم ذنب فى هذا واذن فلا يجب أن يتألموا او يعاقبوا ، بل يجب ان نكد أذهاننا نحن ونستثمر عقولنا ونستخدمها فى حل هذه المعضلات التى تجبهنا وتقف فى سبيلنا

إذن لاشىء يعمل فى هذه الحالة ، وإذن يجب أن نفكر أكثر وان نمعن فى التفكير ، فلنستنبط اذن بعض النظم التى تكفل للصبيان قدرا معقولا من الفرصة (Fair Chance) حتى يستطيعوا ان يروا النتائج التى تترتب على سلوكهم ، لنكن عادلين معهم ، ولنكن أوسع منهم صدرا واقدر على التفكير العميق ، ثم لنساعدهم ، فهم فى حاجة الى المساعدة

فى هاتين الحالتين لم يكن أهون لدى من أمر صريح أصدره فينفذ ، أو نوع

من العقابات اقدره فينزل بهم ، ولكن هذه سخافة لا استطيع ان احتضنها فى عقلى برهة من الزمان ، فلا يجب ان تخطر ببالى لحظة على أنها سبيل ممكنة او محتملة لأنها ليست كذلك ؛ ولا يجب ان تخطر ببال انسان ينوى ان يكون مربياً يوما من الايام

واذن فالى الوسائل لنرتبها وندبرها بشكل آخر يكون أكثر ملائمة لطبائع الصبيان ، لابد ان يفكر المربى فى وسائله وفى تصرفاته قبل ان يفكر فى تصرفات الصبى ، ذلك لأن الخطأ يجوز علينا كما يجوز عليهم سواء بسواء

لسنا ننوى الآن ان نزيد على ما قلنا فى مسألة الولاء للجماعة شيئا جديدا ، نريد ان نكتفى بهاتين الحالتين اللتين أوردناهما ، خصوصا وأن لنا عودة الى هذا الموضوع فى الباب الخامس عندما نتناول العوامل الايجابية فى بناء الاخلاق ، فاذا كنا قد عجزنا فى معالجة احدى الحالتين ، لابل لأننا عجزنا دون ذلك ، فكرنا فى ايجاد بعض الانظمة التى تجعل عدم الولاء للجماعة صعبا شاقا على الصبيان ، وبمعنى آخر ان عجزنا فى العلاج جعلنا نلجأ الى طرق الوقاية أولا ، والى تقوية أركان الاخلاق ثانيا حتى تقل الاحتمالات لوجود هذه النقائص ، والحق أن اختبارات المؤلف فى تلك العوامل الايجابية لمما يشجعنا كثيرا ويزيدنا ايمانا وثقة بأن اصطناع الاخلاق من الامور الممكنة والمحتملة مادام المربى منتبها لما يحيط بالصبيان من البيئة والعوامل النفسية

نترك هذا الباب اذن لنعود اليه بشكل آخر فى بعض صفحات هذا الكتاب فيكفى ماذكرنا من المشاهدات لوضع هذه القضية — عدم الولاء للجماعة — تحت نظار القراء

obeikandl.com

الباب الرابع

الخوف

obeikandl.com

الفصل الأول

الخوف

أعرف أحد الامريكيين المشهورين فى هذا البلد . هذا الأمريكى له ابن صغير ، وهو كباقى الأمريكيين يعتنى كثيراً بتربية هذا الصبى ويصرف معه وقتاً طويلا ويشترك معه فى العابه ويتعاون معه فى المشاريع المختلفة . هذا الكبير ذهب الى أحد البيوت التجارية واشترى زوجى قفازات للملاكمة ، زوج كبير يصلح لرجل وآخر صغير لايصلح الا لصبى ، فقابله أحد معارفه وسأله

ـ ماالغرض من هذه القفازات ؟

ـ للملاكمة

ـ ومن سيتلاكم بها وأحدها لايصلح لرجل

ـ انا وابنى

ـ انت وابنك ؟ وهل تريد ان ينشأ ولدك ملاكما ؟

ـ ليس حتما . ومع ذلك هو وما يريد عند مايكبر

ـ ولكن ماالغاية من هذه الملاكمة ؟

ـ أريد ان أحقق بها غرضاً اخلاقياً

ـ عهدى بالملاكمة أنها تنفع البدن فتقويه ولكن مادخلها بالاخلاق ؟

ـ أريد ان ينشأ ابنى قوياً أولا وهذه احدى السبل لذلك ، ثم أريده ان يكون شجاعا غير هياب يحتمل الضرب ويقاوم ، انا لايهمنى ان كان يتعلم أن يضرب أم لايتعلم وانما أرغب فى أن أراه يصمد للضرب واللكم من غير ان يتهيب ذلك ومن غير ان يفر أو ينكمش ولذلك فسوف ألاكمه بعض الأحيان ، ومتى اعتاد

هذا الضرب من الرياضة فسوف يكون له جلد وشجاعة ليقف فى وجه من يحاول الاعتداء عليه . انت تعلم يافلان اننا نحن معشر الأمريكيين لانحب الرجل الرخو الناعم الضعيف القلب

صدق هذا الامريكى فيما ذهب اليه وانصف فى اختيار هذه السبيل بالذات فى تربية ابنه ، ولا نظن ان شعباً من الشعوب المتمدينة أحوج منا نحن المصريين للشجاعة والاقدام ، لاننا نهاب المنازلة جسما لجسم . فلم ير المؤلف فيما رأى من شعوب العالم الراقى ان اثنين يمسكان بملابس بعض ويقفان عند هـــذا الحد من المنازلة وينطلقان فى السباب والشتائم إلا فى مصر ، أو اذا لم يفعلا هذا يقفان على جانبى الشارع ويكتفيان بالمهاترة الكلامية وذكر الآباء والأمهات ويهدد أحدهما الآخر بقوله انه سيصفعه أو سيدك عنقه إذا ماوصل اليه . هذا وهو يعلم أنه لن يصل اليه لان الجبن يقيد الاثنين

لقد مر بالمؤلف حوادث من هذا القبيل وشاهد تصرف الطرفين فى كل منهما ، أما احداها فقد حدثت فى شارع سليمان باشا حيث اختلف افنديان وشعرا ان الخلاف لايسوى إلا بمنازلة فأخذا بملابس بعضهما ووقفا على هذه الحالة وهما ممسكان بأطراف الملابس يتراشقان بالشتائم . كنت ماراً بتلك الجهة فوقفت أراقبهما مايقرب من العشر دقائق ، وبعد ان أشبعا بعضهما شتما وجذبا فى الملابس تركك أحدهما الآخر وسار فى حال سبيله وانتهى النزال على هذه الحال المزرية ، وحادثة أخرى وقعت تحت حسى فى رأس البرولفت اليها نظر صديق كان بجانبى . كان ثلاثة يسيرون جنبا الى جنب ونحن جالسون على القهوة . وكانوا يتحدثون بحدة نوعا ما ولم نكن ندرى موضوع الحديث . فهم أحدهم ونفض يده وصفع أحد رفيقه صفعة دوى لها الشارع فما كان من المصفوع وهو افندى فى سن الضارب أو ما يقرب منه الا ان قال والا ان أخذ يقول ويردد هـــذا القول

تضربنى أنا ؟ والله لأوريك . . . . تضربنى أنا ؟ والله لأوريك ، وسار ثلاثتهم فى الشارع والمصفوع يردد هذا الكلام الفارغ . وكان أفضل له لو وضع يده مكان الصفعة وطأطأ رأسه وعاد من حيث أتى مادام يشعر أنه عاجز عن رد الاعتداء هذا العجز المزرى بكرامة الرجولة

يحدث هذا هنا وفى هذا البلد بينما لايحدث مثله أو مايقرب منه فى غيره من بلاد الغرب (والمؤلف لم يكن له الحظ ان يزور الشرق فلا يعلم عنه شيئاً من هذا القبيل) هنالك يقبل الرجل منهم على مقاومة الاعتداء مهما كلفه هذا الاقبال من الآلام ، هم يعلمون انهم رجال وان الرجولة عندهم هى النقطة الحساسة التى تهون دونها كل الشدائد والاهوال ، وانها لاتتوافر للانسان الا متى قام باعبائها ، فهم يقومون باعبائها من غير تردد . ولعلمهم ان الافراد هنالك لايقيمون على الضيم ولا يصبرون على الاعتداء تراهم يتحرزون من أن يعتدوا على بعضهم لأن لمثل هذا التصرف عواقب وخيمة ، لذلك ترانى فى كل السنين التى قضيتها بين شباب أمريكا لم أر مطلقا ان اثنين تشاتما ، لم يحدث أمامى حادث واحد من هذا القبيل فى ظرف ثلاث سنين قضيتها بينهم ، وفى كل هذه المدة حدث أمامى حادثة ضرب واحدة بذاتها ، وحتى هذه لم تستدع المهاترة والسباب فقد اختلف الشابان وخلعا ستراتهما وصدرياتهما ونازلا بعضهما وأخذا يتبادلان اللكمات الى ان غلب أحدهما وانتهت الحادثة عند هذا الحد ، وعادا موفورى الكرامة مرهوبى الجانب ، وكلا الغالب والمغلوب سواء فى هذا الشرف

اذن نحن خوافون ، لايجب ان نمارى أو نداور فى هذا النقص فى اخلاقنا ، ويجب ان تتجه التربية عندنا الى مداواة هذا النقص واذن يجب ان يدخل فى حساب الوالد والمربى ان يحرص على ان ينال صبيه قسطاً وافراً من الشجاعة ، ولا بأس عندنا ان يضرب الصبى غيره وان يضربه الغير بعض الاحيان . وبمعنى

آخر تنصح للآباء ان لايحولوا بين الصبي وبين الضرب واللكم فى جميع الحالات، يحسن ان ينال الصبي حظه من هذا فهو سينفعه وسيقوى قلبه ويشجعه . كنت أزور عائلة أمريكية فى مصر . وكان للعائلة صبيان متقاربا العمر فاختلفا وأخذ يلكمان بعضهما . وحمى وطيس الضرب وأخذت اللكمات تنهال بسرعة لابأس بها كل هذا والأم والأب جالسان يراقبان ، ولم يتدخلا الا بعد ان تركا المجال فسيحاً للصبيين ليعاقبا بعضهما . ثم قال الآب « هـذا حسن لقد احسنا واستفادا من هذا النضال »

أرجو أن لا يسيء أحد فهم ما اقصد . انا لا ادعو المدارس أو المعاهد لأن تسمح بالشجار أو الضرب . لأن هذا بالطبع لايجب أن يكون . وانما ادعو العائلات لأن تفهم أن هذه الحوادث فى البيوت وفى الشوارع — ان حدثت من تلقاء نفسها — مفيدة الى حد محدود وتساعد على تكوين الرجولة فى الصبي . ويحسن أن ينال الصبي حظه منها عفواً وبمقتضيات الظروف من غير أن يدبرها احد ، أما حماية الصبي من أن ينال بضع لكمات ، أما حمايته من هذه على طول الخط فلا يعود منها شيء على اخلاقه سوى أنه يعتاد أن يتهيب الضرب ويخافه ويتهرب منه مهما كان الثمن الذى يدفعه لهذا التهرب . فقد يسلم الصبي فى كل شيء الا فى أن تناله صفعة واحدة من زميل له ، فقد يسلم بكبريائه وبعزة نفسه لكى ينجو من الضرب

اذن فنحن لاندعو الى الفوضى والى التنازع وانما ندعو الى التربية الاخلاقية ومن حيث أن الضرب والتنازع لا يجب أن يكونا السبيل الى مثل هـذه التربية فيجب أن نستعيض عنهما بما يؤدى الغرض منهما من غير أن نجعل مثل هذه السبيل مشروعة . هنالك انواع كثيرة من النشاط تولد الشجاعة فى الصبي ويجب أن نوفر له هـذه الانواع حتى يتشجع

الحق أن العائلات عندنا غير صالحة لبث الشجاعة والاقدام فى نفوس

الاطفال . لا بل كثير من هذه العائلات يعمل على النيقض من هذا تماماً .فبعضها تحاول عن غير قصد بالطبع أن تنشىء صبياناً خوافين جبناء رعاديد ، وطريقتها الى ذلك بسيطة جداً . وهى انها تحمى الطفل أكثر مما يجب أن تحميه . ثم انها تغالى فى هذه الحماية الى ان تستلب منه جميع الخصال التى يستطيع أن يعتمد عليها الصبى فى الظروف الحرجة أو الشبيهة بالحرجة . فترى بعض هؤلاء الصبيان عاجزين عن أن يتصرفوا بما يخرجهم من ورطتهم بشىء من عزة النفس أو بقليل من الروح المعنوية

واذا كان الطفل لايخرج الى الشارع الا بصحبة خادم أوفرد بالغ من العائلة . واذا كان لا يؤتمن أن يركب الترام بمفرده أو يذهب الى المدرسة مجرداً من حماية العائلة له ، واذا كان لايتشجع على أن يذهب للسوق أو يخرج للرياضة أو يخطو خارج عتبة الدار غير مصحوب باحد . إذا كان لايفعل هذه أو يشجع على أن يفعلها بمفرده ، فماذا ننتظر من مثل هذا الصبى سوى أن يكون عالة على غيره فى جميع ما يعرض له؟ هل ننتظر من مثل هذا أن يكون رجلا مستقلا يوما من الايام؟

والمؤلف لا ينكر الاخطار التى يتعرض لها الصبيان فى شوارع القاهرة . ولا يريد أن يزعم أن هذه الاخطار خيالية غير حقيقية ، لا يستطيع ولا ينوى ان يزعم هذا أو شيئاً مثله . ومع كل هذا لا يزال الموضوع حيث هو ولا تزال التهمة قائمة وهى ان العائلات فى هذه البلاد تحمى الطفل وتصر على أن تحميه بغض النظر عن العواقب الاخلاقية التى تترتب على هذا

كان لاحد الامريكيين فى برلين صبى صغير ، وكان هذا الصبى تلميذاً فى احدى المدارس التى تبعد عن بيته بمرحلة طويلة ، أخذ هذا الامريكى ولده الى المدرسة بنفسه فى أول يوم ، وفى اليوم الثانى قال لابنه ، يا بنى أنت كبير ويجب أن تعتمد

على نفسك لا غير فيجب ان تذهب الى المدرسة منفرداً من الآن فصاعداً ، فبكى الصبي واحتج وتردد فى الذهاب بنفسه بدون حماية والده . ولكن اباه اغلظ عليه لكى يذهب منفرداً . فذهب بينما ابوه يتبعه من بعيد مواريا نفسه خلف الابنية والمارة وهو يحرص على ان لا يراه . ذهب الصبي اذن واعتاد الذهاب منفرداً الى مدرسته فى مدينة كبرلين وهو غريب عنها

وكان لاحد المصريين صبي فى الثالثة عشرة من عمره وكان هذا الصبي عضو فى قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية . وكان الصبي يرغب فى ان يستفيد من مزايا هذا المعهد العديدة . ثم أنه كان يشعر من نفسه انه مستطيع ان يذهب الى ذلك المعهد ويعود منه منفرداً ، لا بل كان يحتج على ابيه ويعارض فى أن يستصحبه أحد . ولكن احتجاجه ومعارضته كانا على غير جدوى لأن الأب — وخلفه الام بالطبع — كان يصر على أن لا يدع هذا الصبي يغيب عن عينيه لحظة فى الطريق ، وكان هذا الأب المسكين يرصد جزءاً كبيراً من وقته يصرفه فى الذهاب والاياب وفى انتظار ابنه ريثما يفرغ من العابه فى قسم الصبيان . كان يفعل هذا فى كل مرة يزمع الصبي الذهاب الى المعهد

وبالطبع سئم الأب هذه النزهة الاجبارية ، وحق له ان يسأمها ، فاراد ان يجد حلا موافقا لهذه المعضلة . وكل حل موافق له مادام الصبي لا يروح منفرداً أو يغدو منفرداً . فوجد الحل المعقول عنده الحل الذى لايطيب له حل سواه ، وهو ان هذا الصبي لايجب أن يظل عضواً بقسم الصبيان ، وعلى هذا انقطع الصبي ولم نعد نراه بينما هو فى نظرى من أحوج الصبيان الى وسائل هذا المعهد

ثم قابلت أباه واستوضحته فقال

— أما الصبي فمحتاج الى ماتقدمون فى معهدكم وشديد الرغبة فى ان يعود اليكم

— اذن ما المانع فى أن يعود الينا ؟

لانأتمن أن نطلقه وحده فى الطريق . لابد وأن يصحبه انسان كبير وليس لدى الوقت الذى أصرفه فى المجىء والرواح . فهل يمكن ان خادم المعهد يأخذه من يده الى أن يضعه فى الترام نمرة كذا ؟ أرجو ان يكون هذا ممكنا لأن هذا يحل لنا مشكلة مستعصية

— أظن هذا غير مستطاع لسببين أولا لأن لنا خادما واحدا وعندنا أعضاء كثيرون . فاذا بدأت هذا لا أعلم أين ينتهى بنا المطاف . هل نستأجر حارسا لكل صبى عندنا ؟ ومع ذلك فليس هذا السبب المهم وانما السبب المهم حقاً هو ان هذا العمل مضر باخلاق الصبى . فاذا كنا لانثق به لينظر الى نفسه فى الطريق وهو فى هذه السن فماذا يفعل فى مستقبل أيامه ؟

— أنا أعلم هذا وأعرف ان التربية الصحيحة تستلزم ان هذا الصبى يغدو ويروح منفرداً . ومع كل هـذا لايطاوعنى قلبى ان أفعله . لا أستطيع . كلا لا أستطيع

والمؤلف يشعر انه لايستطيع حقاً . فهو فى حاجة لأن يعود طفلا مرة أخرى ويعيش فى نظام آخر ويخضع لنوع آخر من التربية حتى يستطيع . ومن حيث ان هذا غير ممكن فسوف يدفع هذا الصبى ثمناً غاليا لحنو هذا الأب

هذا ما يدعونا لان نرسم هذه الخطة لتربية الصبيان . فندعو لان يتركوا لانفسهم قليلا حتى يتمرسوا وحتى يختبروا الجانب الخشن لهذه الحياة . يجب ان يتعرضوا لشدائدها نوعا ما حتى تنمو فيهم خصائص الرجولة . وبالطبع هنالك أنواع كثيرة من النشاط الذى يؤدى الى هذه الغاية متى خلى بينه وبين الصبى . فليقبل الصبيان اذن على بعض أنواع النشاط وليوفر الآباء مثل هذا البعض لأولادهم قسطا نافعا منه

وأول هذه الوسائط الالعاب الرياضية ومنها الملاكمة أيضاً . فى الالعـاب

الرياضية يضطر الصبي لأن يلتحم مع اخوانه جسما لجسم ويداً ليد ويقاوم بقوته البدنية ويستعمل هذه القوة البدنية فى الهجوم وفى الدفاع . هذا الضرب من النشاط يولد الشجاعة حقاً . وينتزع من فؤاده الرهبة التى يستشعرها من الناس ويشعره أيضاً ان حظه فى النزال قد يساوى حظ غيره وأنه ان كان مجازفا حقاً فغيره مجازف أيضاً . ثم يعرف بالخبرة والمران ان الهروب ليس أدعى للسلامة من الاقدام فى جميع الحالات . كل هذه أمور تتوافر للصبى فى الالعاب الرياضية بشرط ان تكون من النوع الاجتماعى الذى يتطلب عددا من الصبيان يشتركون فيها

فكرة السلة أو كرة القدم مثلا تخدم هذا الغرض أجل خدمة وهما من الوسائل الايجابية فى ايجاد عنصر الشجاعة فى الصبيان ، ومتى استطاع الصبى أن يساهم فى هذين النوعين من الرياضة ويشترك فيهما بقسط وافر فيلتحم مع باقى الصبيان عندما يجد الجد ويحمى اللعب ويهجم بقلب كبير ويبلى بلاء طيباً عندما يستعر اوار اللعبة فلا بد أن يتوافر عنصر الشجاعة للصبى اذا لم تكن هنالك عوامل أخرى تحاول القضاء عليه

يلذ للمؤلف كثيراً أن ينتحى ناحية قصية من الملعب الرياضى ويشاهد سلوك الصبيان فيه . والحق أن هذه المشاهدة تفتح له كثيراً من الابواب فيرى عن كثب بعض نواحى الفرد الاخلاقية خصوصاً فى الصبيان الجدد فى المعهد . فان هؤلاء يتميزون عن ابناء المعهد الاصليين بشيئين ، أولهما الصعوبة التى يجدها الصبى الجديد فى التوفيق بين عضلاته ونظره أى مايسميه النفسيون والفسيولوجيون (Coordinatiom of eyes and muscles) فترى الصبى من هؤلاء يتحرك ويهم بالعمل قبل ان يؤون الأوان أو بعده وليس فى الظرف المناسب ، وبمعنى آخر تراه يهم بامساك الكرة مثلا قبل ان تصل المكان المناسب أو يتأخر فى امساكها ، وفى كلا الحالين يفشل ، وبالطبع يحتاج الصبى الى زمن وخبرة ومران

حتى يعمل حينما يجب ان يعمل لاقبل ذلك أو بعده

والشيء الثانى الذى يتميز به الصبى الحديث العهد بالمعهد هو خوفه وتردده فى اللعب . فانك ترى مثل هذا الصبى يحرص على أن يكون بعيدا بجسمه عن بقية الصبيان فى اللعب . فيمد يديه بأكثر مما يجب ان يمدهما ويبعد جسمه عن بقية اخوانه بأكثر مما يجب ان يبعده . كأنه يخشى أنه سوف يتهشم اذا ما اصطدم بغيره ثم يلعب على هذه الحالة ويحرص على أن لا يجازف بأكثر من هذا مهما كلفه الامر فليس الغرض الاول عنده أن يسبق زميله الى الكرة مثلا . وانما غرضه المهم هو أن ينجو بنفسه من هذا النضال

تشاهد هذا ولا أظنك تستطيع ان تفعل شيئاً سوى أن تضع مثل هذا الصبى مع من هم فى سنه وحجمه حتى يشعر ان الكفة متعادلة نوعا وان الحظوظ متساوية وان الاحتمالات تقضى بأنه سينجو سليما اذا ما اصطدم بغيره . وبمعنى آخر تدخل عاملا طفيفا من الطمأنية على عوامل البيئة . وهو أن تتساوى أجسام اللاعبين . ثم تتركها تفعل فعلها فى الصبى . ثم تتيقن أنه مادامت العوامل كما هى ومادامت لم تدخل عليها بعض العناصر الغريبة فسوف يقدم هذا الصبى ويتشجع بعد الاختبار والممارسة

أما اذا ترك مثل هذا الصبى من غير تغيير أو تبديل فى عناصر البيئة فسوف يتأصل فيه هذا الخوف ويصير لازمة من لوازم أخلاقه وخصوصا لو تصادف وصدمه أحد الصبيان الكبار بقصد أو بغير قصد . متى حصل هذا أو شيء مثله فسوف يزداد حرص الصبى على ان ينجو بنفسه اذا حمى وطيس اللعب . ثم اذا كان هذا هو حظه واخوانه يهزلون فما باله اذا كانوا يجدون ؟

هذا من ناحية الالعاب الرياضية . وأما فى غيرها فيجب ان يترقب المربى الفرص حتى يزرع بذور الشجاعة والاقدام فى الصبى كلما وجد ان الفرص سانحة

لهذا النوع من التربية ، يجب ان يراقب الصبي كثيرا ويتدخل فى بيئته كلما استطاع ذلك . ويجب ان يفعل هذا باستمرار ومن غير انقطاع مادام الصبي فى عهدته ويجب ان يعلم أنه ليس لمثل هذه الامور حد تقف عنده — أو بمعنى آخر لايكفى لبذر بذور الشجاعة ان يتدخل المربى فى البيئة مرة واحدة أو عشرين أو مائة مرة بل يلزمه ان يتدخل ويصر على ادخال بعض العوامل فى البيئة ويلحف فى هـــذه السياسة من غير ان يهمل أو يتوقف . يفعل هذا الى أن يصير عاجزا عن فعله بطريقة من الطرق . حينئذ وحينئذ فقط يجوز له أن ينتظر من الصبي أن يكون مقداما شجاعا فى أغلب الحالات

هذا ما نقصده بمعالجة البيئة . وهذا بالضبط مايفعله قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية مع الصبيان الذين يلتحقون به ، واليك الامثلة على ذلك

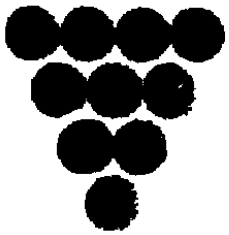

الفصل الثانى

خوف يستر وراء الدين

حدث أننا ذهبنا الى رحلة فى القناطر الخيرية لنصرف اليوم بطوله وكنا عشرين صبياً . ومن عادتنا فى هذه الرحلات أن نحضر الغداء معنا كل على مايشتهى ويريد وتبعاً لما تصنع له أمه . ثم نعمل بعض المرطبات بانفسنا هنالك . نذهب الى مكان مثل هذا ونرتب برنامجنا ونجعل لكل شىء ميعاده كالأكل وتناول المرطبات والألعاب والراحة

وحدث فى فترة الراحة أن الصبيان وجدوا أنفسهم شارعين فى لعبة جديدة . وأقصد بهذا أنهم لم يفكروا فيها ولم يتدبروها وانما أتت لهم عفواً فوجدوا أنفسهم يلعبون وهم لايشعرون ، وتتلخص هذه اللعبة فى أنهم انقسموا الى فريقين متقابلين ، وكان هم كل فريق أن يهجم على فرد من الفريق الآخر فيطرحونه على الأرض ويقيدونه ويمنعونه الحركة ثم يخلعون له حذاءه وجواربه ويتركون هذه بجانبه ثم يلوذون بالفرار ويختبئون بين الأشجار

جلست أراقب بلذة لأن اللعب بجميع أنواعه ان لم يكن مضراً فهو مفيد ، وقد كانوا يحرصون على أن يجردوا بعضهم بعضا من الاحذية على مقربة منى حتى يرونى أى الفريقين أبرع فى هذا الميدان وأنشط . وبينما هم يفعلون هذا وأنا أرقبهم بسرور ، اذا بصبى يأتى الى حيث أجلس ويجلس بجانبى ففهمت الدافع الحقيقى الذى حدا به لأن يجلس الى جانبى ، فهو يريد ان يحتمى بى لان الصبيان سيتركونه حتما احتراما لى . فهمت هذا لانى أعرف هذا الصبى كما أعرف كثيرين غيره — أعرفه وراقبته فى جميع أنواع النشاط فى قسم الصبيان ، فهو جبان وخواف

للدرجة القصرى . يـكره ان يحتك بالصبيان أمثاله فى الهزل والجد على السواء ويهرب من الاحتكاك بهم بـكل السبل المستطاعة . وأما فى اللعب فهو آخرهم اقداما وأقلهم شجاعة وأولهم فراراً من وجه اى مهاجم وأسرعهم فى أخلاء السبيل لـكل فرد من الفريق المقابل . هذا من حيث تصرفه فى المعهد

أما من حيث بيئته فى عائلته فهى ليست بيئة صالحة للنماء الخلقى المستكمل . فانا أعرف أباه وأمه وأعرف أنهما من النوع الذى يحرص على أن يكون ابنهما رخواً زاعمين ان مثل هذا من الدين ومن الاخلاق . وهما يفهمان أمر المسيح ، من لطمك على خدك الا ين فحول له الايسر أيضا ، فهما مغلوطاً ويسيران على هذا الفهم المغلوط ، فيستطيع هذا الصبى أيقف مكتوف اليدين لكل صافع ولا يحرك يداً خوفا وجبناً وفى نفس الوقت يحجك بأن هذا أمر المسيح وأنه يحرص على ان يطيع هذا الامر.

هو مثل ذلك الصبى الذى حضر الى باكياً والدموع تنهمر بغزارة من عينيه وقال « افندى . . . . . فلان ضربنى ، فقلت ولماذا لم تضربه فقال « حرام »

ـــ وكيف كان ذلك ؟

ـــ المسيح قال كيت وكيت

ـــ وماذا تنتظر منى أن أفعل ؟

ـــ أن تعاقبه

ـــ ألم يقل المسيح كذا وكذا ؟

ـــ نعم ولـكن ان عاقبته انت فلا جرم على أنا

ـــ اذن تريدنى ان اجرم أنا

ـــ كلا لا أريدك ان ترتكب الخطأ

ـــ اذا كان عقابه خطأ فاتركه من غير عقاب واذا كان صواباً فعاقبه انت

ـــ أنا لا أستطيع لأنه أكبر منى

— ها ها . . . هذا حسن . اذن انت لم تسامحه اطاعة لامر المسيح لابل لم تسامحه أصلا . وانما أنت موتور منه ولكنك عاجز عن ان تفعل شيئاً آخر . واذن فلا تلومن المسيح لهذا العجز

— هو كذلك أنا لست كفوءاً له

— اذن اترك المسألة لى لأتصرف فيها بما ينفعك أولا ثم بالعدل ثانياً . وانما أعلم هذا وسر بمقتضاه — لاتسمح لأى صبى أن يعتدى عليك . رد اعتداءه بكل ماتملك من قوة وسوف أقف بجانبك فى مثل هذه الأحوال

وصاحبنا من هذا النوع الخواف الجبان والذى يدارى خوفه وجبنه بشىء من الكتب المنزلة أو بأمر من أحد الأنبياء والقديسين . وهو يعتدى أو يقاوم الاعتداء أن استطاع ويتحل المعاذير لجبنه ان عجز . هذا هو صاحبنا الذى نروى لك قصته الآن

ثم انه مترهل كثير اللحم والشحم . وذلك لان أمه تحرص على ان تطعمه كثيراً وتحشو له بطنه مااستطاعت الى ذلك سبيلا . وليس هذا فقط ولكن عائلته تحرص على ان تحميه وتحوطه من كل أنواع الاختبارات الشاقة العنيفة نوعا ما . فهو لايركب عجلة لئلا يسقط . ولا يخرج الى الشارع لئلا يضربه أحد ولا يلعب مع الصبيان لئلا يتعرض جسمه وهكذا وهكذا الى آخر قائمة التحوطات والحمايات . وبالطبع لانتظر من هذا الصبى وبيئته كما وصفنا أن يكون شجاعا مقداما

تقدم هذا الصبى اذن وجلس بقربى ليحظى بحمايتى كما قلت فيما سبق . وهو لايعلم بالطبع ان حماية الصبى لاتدخل فى حسابى . وانما مايدخل فى حسابى ان يتشجع ويقدم فيستطيع ان يحمى نفسه

— فقلت لماذا لم تشترك مع اخوانك فى العابهم هذه ياافلان ؟

— لانى لاأحب هذا الضرب من اللعب

ـ لماذا ؟

ـ لأن حـــذائى ضيق ولا أستطيع ان ألبسه من غير الاداة ـ ولا أداة معى الآن

ـ هل يستحيل لبسه من غير هذه الاداة ؟

ـ كلا يمكن ذلك ولكنه صعب

ثم تركته جالساً بقربى وأخذت أتأمل فى كيف استطيع ان أغير فى عناصر البيئة أو أدخل عناصر جديدة بحيث لايهاب الاقدام كل هذه الهيبة . وبالطبع شعرت أنه لايجدى اذا قلت لهذا الصبى أنه فى الواقع جبان لان مثل هذا التصرف يدخل العوامل الشخصية فى الموضوع وتصير المسألة بينى وبينه عوضا عن ان تكون بينه وبين البيئة ، تركت هذا الرأى اذن وأخذت أبحث عن غيره الى ان وجدت حلا لهذا الأمر . أو خلت انى وجدت حلا فأخذت أجربه لتو والساعة عسى ان ينجح ، وقد نجح فعلا

جلست اراقب الصبيان وهو بجانبى معفى من النزال اكراما لى ، ثم حانت منى التفاتة فرأيت صبياً صغيراً يصغر كثيراً عن صاحبنا ولكنه يساهم مع باقى الصبيان فى الهجوم والفرار ، نظرت فوجدت حـــذاءه فى قدميه فالتفت الى صاحبنا وقلت

ـ أترى هذا الصبى الصغير ؟

ـ فقال نعم

ـ هل تستطيع ان تتغلب عليه وانت تكبره كثيراً ؟

ـ بالطبع أستطيع ذلك

ـ هل تستطيع ان تنتزع حذاءه من قدميه ؟

ـ نعم بالطبع

— اذن دونك وهذا الصبي وارني صدق قولك

— فقال هل حقا تريدني ان أفعل هذا ؟

— فقلت بالتأكيد

فما كان منه الا ان هم اليه وطرحه على الارض وجلس على ساقيه وخلع حذاءه وجواربه ، ولكنه ماكاد يفرغ من هذا حتى داهمه الفريق المعادى وفعل به مثلما فعل بزميلهم ، فوجد نفسه بحكم الظروف ناصراً لفريق ومعادياً لآخر ، ووجد أنه قد انساق الى المعمعة بحكم الظروف فحمل حذاءه الى مكان مأمون وألقى بنفسه فى زمرة المناضلين وظل يناضل معهم الى آخر الشوط وعاد بعد ان فرغت الجماعة من اللعب وهو ممتلىء بالفرح وبالثقة فى نفسه

انا لا ازعم اننا قد انتهينا من هذا الصبي وانه قد صار شجاعا مقداما لا غبار عليه ، لا ارعم هذا ولا شيئاً مثله او يقرب منه ، وانما اقول انه لو تكررت الظروف الملائمة لهذا الصبي ولو توالت هذه الظروف على هذه الحال ، ، لو قدر له ان يلتحم فى عراك هزلى او جدى مرة او مرتين ، ولو قدر له ان يخرج من هذه جميعاً على مثل الحالة النفسية التى خرج بها من نضال القناطر الخيرية لتبدلت اخلاقه ولصار له شان غير هذا الشأن

ولكننا لا نجد سبيلا الى هذا الصبي بالذات لأن والده من النوع الذى يؤمن ان الصبيان انما خلقوا للدروس والاستذكار ، وان لا عمل لهم فى هذا الطور من الحياة الا هذا ، وان ما عدا هذا من الشيطان الرجيم . ولهذا السبب فالصبي ممنوع عن ان يتصل بنا ، لا بل ممنوع عن ان يتصل بغيرنا ، ونظامه الذى وضعه له والده هو هذا : من البيت الى المدرسة ومن المدرسة الى البيت ، وما عدا هذا لا يدخل لهذه العائلة فى حساب

ونحن عاجزون عن ان نقنع هذا الأب بخطأه فعسى ان يقتنع به من غير ان يعطل نمو الصبي بوجه من الوجوه

الفصل الثالث

خوف يستتر وراء القانون

من اغراضنا أن نحرص على أن نبث الروح الرياضية بين صبيان المعهد ونحن لا نفعل ذلك بالوعظ أو بالكلام أو بالمحاضرات تلقى عليهم فى هذا الباب . لاننا نعلم هذا علماً منا بأن الكلام لن يجدى ، وأن الصبيان قد شبعوا وملوا من هذا الضرب من العلاج ، لهذه الاسباب نحرص على أن تكون البيئة ذاتها مما يساعد على هذا وينبئه . فندخل على هذه البيئة جميع العناصر التى تساعد على نيل هذا الغرض . ونجد على العموم أن النتيجة مشجعة على المضى فى هذا السبيل وانها تشجع ايضاً على أن نزيد فى التجارب التى نجريها من هذا القبيل

أما اذا فشلنا فى احدى هذه التجارب فنعترف لانفسنا ولغيرنا بهذا الفشل ونقبله أولا ثم نحاول أن نكشف عن العوامل التى ادت الى هذا الفشل لنتجنبها ونحيد عن طريقها - ثم نجرب بعض العوامل الاخرى علها تنفع وتأتى بالغرض المقصود . وفى كل هذا نحرص على أن نمنع العوامل الشخصية أن توجد بيننا وبين الصبيان

حدث مرة اننا انضممنا لاتحاد كرة السلة للصبيان الذين تحت السادسة عشرة من عمرهم . انضممنا لهذا الاتحاد ودفعنا الرسوم وأخذنا نعد فريقنا ليوم النزال . وفريقنا يتقن هذه اللعبة اتقاناً كبيراً فكان من المحتمل جدا أن نحظى ببطولة مصر فى هذه اللعبة

نزل فريقنا الى ميدان اللعب فى يوم من الايام وأخذ يتمرن على رمية السلة كالعادة . ونزل الفريق الآخر وهو مكون من اوربيين . فاذا بهم أكبر منا بما

لا يقاس . أكبر فى الاجسام جداً ومظهر بعضهم يدل على انهم أكبر فى السن المحددة فقد كان للبعض منهم عوارض نابتة . نظر اليهم فريقنا فدب الرعب فى قلوبهم . وايقنوا أن حيلهم لن تجدى مع هذه الاجسام . فتشاوروا وتدبروا واوفدوا زعيمهم ليلفت نظرى الى هذا الامر

أما انا من جانبى فقد ذهبت الى مندوب الاتحاد وسألته عما إذا كان متأكداً أن سن هؤلاء الصبيان اقل من السادسة عشرة . فذهب الى مدربهم الاوربى وسأله فأجاب بالايجاب وقال أن جميعهم اقل من هذه السن ، ثم سألت المدرب بنفسى فاجابنى بمثل ما اجاب مندوب الاتحاد . مع كل هـــذا شعرت أن صبياننا سوف يظلمون واننا سوف نخسر فى هذا النضال ولكن ماذا استطيع أن افعل فى مثل هذه الحال ؟ لا أستطيع شيئاً مادام المدرب ومندوب الاتحاد أخذا على عهدتهما هذا الكلام . واذن تكون سنهم اقل من السادسة عشرة حقاً ويكون واجباً على أن اثق بكلامهما فوثقت ، فليكن اننا نناز لهم بكل ما نملك من قوة ومن روح رياضية بغض النظر عن النتيجة ، وما كدت اصل الى هذه النتيجة حتى كان رئيس فريقنا قد وصل الى حيث كنت وقال

ـــ هل حقا أن هؤلاء اقل من السادسة عشرة ؟

ـــ هكذا يقولون

ـــ من يقول بهذا ؟

ـــ مندوب الاتحاد ومدرب الفرقة ـــ كلاهما يقول بهذا

ـــ هذا غير صحيح

ـــ والآن . . . يحسن بك أن لا تتهم احداً بالكذب من دون أن يكون لديك الاثبات على صحة هذا الاتهام . وهل لديك الاثبات ؟

ـــ كلا

ـــ اذن لاتتهجم على الناس فى شرفهم

ـــ ولكن أجسامهم تدل على أنهم أكبر من ذلك بكثير

ـــ هذا حق ـــ ولكن هذه ظنون ، لأن المظاهر الخارجية تخدع فى أحيان كثيرة

ـــ وما العمل الآن ؟

ـــ لامجال للتساؤل فلننزل على حكم الاتحاد ونلعب ـــ هذا رأيى ـــ ومع ذلك فارجع الى اخوانك وتدبروا الأمر وأجمعوا على امر وأنا أنفذه لكم

ورجع اليهم وتشاوروا قليلا ثم جمعوا جموعهم وحضروا الى حيث كنت وهم يكادون ينفجرون من الغيظ . وقال واحد منهم

ـــ نحن لانريد ان نلعب ـ هذا ظلم لنا

ـــ ان كنتم تريدون أن تهربوا من الميدان وأن توسم بالفرار والهروب فدونكم وماتريدون ، ولكن هل تستطيعون فيما بعد أن ترفعوا رؤوسكم كرياضيين ؟ لا أظن ذلك وسوف يأنف أى فريق أن يلعب منكم

ـــ نحن لايمكننا أن نلعب مع هؤلاء

ـــ أتخشونهم ؟

ـــ كلا . ولكن لا أمل لنا فى أن نتغلب عليهم

ـــ اتلعبون فقط عندما تستطيعون أن تقهروا منازليكم ، أما اذا شعرتم بالعجز تهربون ؟ أهذه هى رياضتكم ؟ فليكن

ـــ كلا نحن لانلعب لنغلب فقط ولكن ما العمل الآن ؟

ـــ أنا قلت رأيى وعليكم ان تتشاوروا فيما بينكم وتقرروا بسرعة ماذا أنتم فاعلون ففعلوا وقرروا أن يلعبوا

الحق أقول أنى كنت أجازف بكل شىء فى سبيل تربية هؤلاء الصبيان . لابل كنت أقامر لأنهم لو قرروا عكس ذلك لكنت وجدت نفسى فى أحرج المواقف

وأدقها وأبعدها عن اللياقة والروح الرياضية . ولكنى جازفت أملا أن يصدر عنهم مايشرفهم ويشرفنى ، وهذا ليس بهم كثيرا — وأملا أيضا — وهذا هو أهم شيء — ان يستفيد هؤلاء الصبيان من هذا الظرف

ولست استطيع أن أقطع برأى فى أثر الحادث فى اخلاقهم ، وانما يكفى هنا أن أقول أنهم لعبوا كما يجب أن يلعب أى فريق بروح رياضية عالية مدافعين جهد الطاقة مهاجمين بكل مايملكون من قوة ، وأعلم أيضا أننا قهرنا وغلبنا على أمرنا فى هذا النضال وخرجنا منه مهيضى الجناح شاعرين ان الكفة لم تكن متعادلة ، ولكنى عملت مافى وسعى لأخفف عنهم وأفهمهم أنهم عملوا مايجب ان يعمل فى مثل هذه الظروف ، وان كفاهم فخرا أنه لاغبار على تصرفهم بأى وجه من الوجوه

وأما أنا شخصيا فقد شعرت ان هذا الظرف لم يكن ملائما كل الملائمة لتعويد هؤلاء الصبيان الروح الرياضية التى ننشدها ، فقد كانت نفوسهم مريرة وافئدتهم منسحقة ولم يكن لى إلا أن أخفف وقع هذا الظرف فى نفوسهم وأن انتظر فرصة اخرى تكون أكثر ملائمة استطيع فيها أن اخدم قضية الرياضة باكثر توفيقا

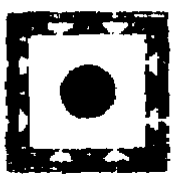

الفصل الرابع

درس من الخوف

ولم انتظر كثيراً لتتاح لى هذه الفرصة فقد سنحت بعد ثلاثة أيام من تاريخ هذه الحادثة ، فقد كنا تواعدنا على ان نلعب فى مباراة حبية مع احدى المدارس فى أرضنا ، وما أزف الموعد الا وحضر فريق تلك المدرسة ، ودهشت حقاً لان الكفة لم تكن متعادلة بل كانت تميل الى جانبنا . ذلك لان فريق تلك المدرسة كان أصغر من فريقنا فى السن ، وكان من المحقق أن فريقنا يستطيع ان يسحقهم ان أراد . فشعرت ان هذه قد تكون فرصة أصلح من سابقتها لتعهد الروح الرياضية فى صبياننا فيجب ان انتهزها لاعمل شيئاً يكون له الاثر المطلوب . فدعوت الى قائد فريقنا وقلت له

ـــ مارأيك الآن فيما لو انسحب هؤلاء الصبيان من اللعب ؟

ـــ ولماذا ينسحبون ؟

ـــ لانكم أكبر منهم سناً وأوفر جسما

ـــ وماذا عليهم فى ذلك ؟

ـــ عليهم شيء كثير ، فسوف تسحقونهم سحقاً وأنا لاألومهم فيما لو انسحبوا كما كنتم تزمعون فى ذلك اليوم

ـــ ولكنا نلعب حبياً وليس على كأس ؟

ـــ وهل يغير ذلك فى الامر شيئا ؟ وهل تتغير الروح الرياضية اذا كان اللعب على كأس ؟ وهل يجوز فى واحدة منهما مالا يجوز فى الاخرى ؟

ـــ لك حق يا يعقوب افندى وسوف نحاول ان نكون رياضيين بالمعنى المستقيم للكلمة

ثم حضر الحكم وبدأ اللعب . وكان الشوط الاول حاسما فى ان صبياننا متفوقون بشكل لايدل على التعادل . اذ أنهم أحرزوا فى ربع الوقت مايقرب من العشرين نقطة . ثم انتهى الشوط وأنا جالس أراقب والخجل يتملكنى ويتغلغل فى كل مشاعرى ولكنى سكت اذ انى لم أكن أستطيع ان أفعل شيئا من غير ان اتعسف مع صبيانا . والتعسف آخر السبل التى أسلكها . ولا أسلكها الافى الامور التى هى من الدرجة القصوى فى الاهمية . وحتى فى هذه لا أفعل الا بعد ان تفرغ جعبتى . وعلى اى حال تغلبت على مشاعرى واخذت اتتبع هذا النضال الذى لا لايستوى فيه الطرفان . ثم حضر الحكم وأخذ كل لاعب يحتل مكانه من اللعب . ثم بدأ اللعب

ولكن لم تمض دقيقة واحدة الا ورأيت رئيس فريقنا يطلب الى الحكم مهلة ففعل ، واذا بهذا الرئيس يجمع فريقه ويسر اليه ببعض الكلمات ثم يعودون الى أماكنهم . لم أكن أدرى ماذا قال لهم ولكنهم أخذوا يلعبون على كل حال ، ورأيتهم يتناوبون الكرة ويقذفونها من يد الى أخرى من دون ان يسددوها الى السلة فعجبت لهذا التصرف ولكنى لم أفهم السر على أى حال ، ثم حانت لواحد من فريقنا فرصة فسدد الكرة الى السلة وسجل النقطتين لفريقنا ثم دوى المكان بالتصفيق ، ولكن ماندرى الا ورئيس الفرقة يطلب مهلة أخرى ويرسل هذا اللاعب بالذات الى خارج الميدان ويستدعى غيره . فازدادت حيرتى ودعوت ذلك اللاعب واستوضحته الامر فقال

« لقد طلب الينا الرئيس ان لانحاول اكتساب نقط جديدة بل ندافع عن هدفنا ونمنعهم ان يسجلوا لانفسهم أشواطا ان أمكن . ثم نكتفى بهذا ، ولكنى كنت قريبا من الهدف بشكل أغرانى على ان اقذف بالكرة اليه ففعلت وسجلت الشوط فاخرجنى الرئيس من الملعب لهذا السبب »

فقلت حسن . يجدر بك ان تستمع نصائح الرئيس مادمتم فى الملعب الرياضى ، أما اذا فعل كل منكم مايحلو له فسيكون الأمر بينكم فوضى أليس كذلك ؟

هو كذلك

اذن اجلس بجانبي لتستريح

لو تكررت هذه المناسبات وكانت مثل هذه الظروف سانحة — وهى لابد عائدة وسانحة — لكان من الممكن ان نزعم ان أخلاق الصبيان تجد البيئة الصالحة لنموها فعلا ، ونحن نظن ان مثل هذه المناسبات ليست فريدة فى بابها أو منقطعة النظائر فى هذا المعهد لان بيئته غنية بمثل هذه الاختيارات ، لابل هو فى ذاته بيئة مناسبة لمثل هذا النماء الاخلاقى ، والصبيان فى الواقع فى حاجة ماسة الى أمثال هذا المعهد . لقد شعر بذلك أهل الغرب فتوافروا على ايجاد المئات منها ، وعلى الاهتمام بها حتى يعينوها على تأدية مهمتها العظيمة ، وفى الواقع قد شعر كثير من أئمة التربية هنالك ان هذه المعاهد متممة للمدارس وان الواحدة لاتقوم الا بالاخرى ، وانك لتجد ذكراً لمعاهد الصبيان فى معظم كتب التربية التى وضعها العلماء

obeikandl.com

الباب الخامس

العوامل الايجابية فى الاخلاق

obeikandl.com

الفصل الاول

الوقاية والعلاج

معظم ما مر بنا من الحالات هو أمثلة على الطرق السلبية فى معالجة اخلاق الصبيان . وبمعنى آخر الحالات التى مرت هى علاج لبعض العناصر السلبية فى الاخلاق . فلم يكن ما مر بنا وسائل ايجابية اتخذت لوقاية الصبيان بل هو مقاومة لشىء كائن من الاصل أو آخذ فى التكوين والنماء . حالنا فى هذا كحال الطبيب الذى يشرع فى معالجة الداء ومقاومته بعد أن اخذ سيره فى جسم المريض . فالمرض قد وجد والمريض أخذ يشكو منه وبقى على الطبيب أن يستأصله ان استطاع

وهذا كما لا يخفى ليس اسمى انواع الطب وليس هو الواجب المهم والاساسى للطبيب . لقد مر الزمن الذى كان يظن فيه أن مثل هذا التصرف هو المثل الاعلى للطب . لا يجب أن يقف الطب مكتوف اليدين خلى البال الى أن تنشب الامراض فى الناس ثم يقاومها ويحاول استئصالها والقضاء عليها . وأى مصلحة أو وزارة للصحة تسير على هذا الزعم لا تستحق أن تبقى بل يجب أن يقضى عليها كالداء سواء بسواء . فليس اذن يصح أن تبنى الانظمة الصحية على هذا المنوال السلبى الذى سمح للمصيبة أن تحل ثم يسعى جهده لتخفيف وقعها على الناس . ونقصد من هذا بالطبع أن الواجب ان تحتاط الهيئات سواء اكان هذا فى الطب أم فى غيره للحوادث قبل وقوعها . وبعبارة أخرى يجب أن تسبق الحوادث وتتحكم فى عواملها حتى لا يقع منها الا الذى يجب أن يقع ، وهذا بالطبع لا ينفى انها تعالج الحوادث اذا وقعت على خلاف ما تشتهى ونروم

واسمى انواع الطب اذن هو ما كان للوقاية وليس للعلاج وهذه هى السياسة

الى تحاول البلاد المتمدينة أن تأخذ بها . فهى لا تقف مكتوفة اليدين الى ان تضطرها الظروف للعلاج . بل تسعى جهدها لكى لا يشعر الناس انهم فى حاجة الى خدماتها

وكذلك الحال فى الامور الاخلاقية . فخير انواع التربيات على الاطلاق هو ماتوجه الى البيئة بقصد اصلاح عناصرها وترتيبها حتى تصير مواتية للبناء الاخلاقى ليس لأن هذه السبيل هى اسهل الطرق للتربية الاخلاقية فقط بل لأنها انجعها على العموم وابقاها اثراً

انجعها وأبقاها أثراً أولا لأن موقف المربى فيها موجباً وليس سلبياً ، وبمعنى آخر فيها يكون المربى متفقاً مع طبيعة الصبى التى تتطلب منه أن يفعل وينشط . فالمربى الذى يكون قد رتب عناصر البيئة بحيث تتطلب من الصبى أن ينشط يكون قد استخدم الطبيعة فى معاونته على اغراضه واستعان بها على توجيه حياة الصبى الى وجهات نافعة مفيدة . وبمعنى آخر لايجب أن يبنى المربى سياسته على الوجهة السلبية بحيث يقف للصبى وسيابته أمام انفه فى كل مرة يتعامل معه . لا يحسن أن تكون كل بضاعته « لا تفعل هذا . ولاتقرب ذلك . واياك وذاك » لأن الاطفال ليسوا مستعدين لأن يقبلوا هذا على علاته ويستسيغوه . وما اقرب أن يعمم الطفل هذا النحو من النصائح ويشعر أنه لا فائدة من اطلاع المربى على نياته . وما الفائدة من اطلاع المربى على هذه النوايا اذا كان الاغلب أنه سينتفض ويشهر سيابته فى وجه الطفل ويقول « كلا » ؟ أنه لخير للطفل ان يظن ولو خطأ انه من المحتمل ان يوافق المربى على ما يزمع الاخذبه . يحسن به ان يشعر ان القبول والرفض هما على الاقل فى درجة واحدة من الاحتمال ، متى استقر هذا فى نفس الطفل فسوف يعرض كثيرا من مشروعاته على المربى ويأخذ رأيه فيها . وسوف لا يتهم المربى بالتعسف او الاستبداد

اذن فالوجهة السلبية — ونحن ندمج العلاج الاخلاقى فى هذا الباب — ليست أقوم السبل فى تكوين شخصية الصبى ، بل من المحقق ان الناحية الايجابية أجدى فى الوصول الى هذا الغرض ، أجدى لأنها تستقيم مع طبيعة الصبى التى تتطلب الحركة والنشاط المستمرين ، وهذه الطريقة كما قلنا تقوم على تنضيد عناصر البيئة بشكل يستدعى بعض أنواع التصرفات من الصبى ، وهذا بالطبع ممكن الى حد كبير وان كانت بعض العناصر الكثيرة تخرج عن طوق المربى والصبى جميعاً

نقول ان التربية الموجبة أو المفيدة تقوم على معالجة البيئة وليس الصبى . أو بعبارة أخرى ، تقوم على الوسائل الغير المباشرة ، فلا يجب مثلا أن ينتظر المربى الى أن يرى أثار الجبن والخوف تبين على الصبى ثم يسعى فى معالجتها لان هذه كما قلنا طريقة سلبية ، ولأنها سلبية تجدها أقل جدوى ونفعا واصعب على المربى وأشق ، انما يجب على المربى الذى له قدر كاف من الذوق السليم ان يسلك الى نفس الصبى مسالك موجبة ، وبمعنى آخر يحتاط حتى لا تنبت جذور الجبن والخوف فى نفس الصبى أصلا . وذلك بترتيب البيئة بشكل تجعل الصبى مطمئنا نوعا وواثقا ان النتائج لن تكون مما لايطاق ولنضرب على ذلك مثلا حتى نبين بالضبط مانريد ان نقول

طفل عادى المشاعر والعواطف والقوى العقلية ، وليكن هذا الطفل فى الرابعة من عمره مثلا ، ثم ليكن لهذا الطفل كلب يلعب معه . وليكن ان الكلب قد غضب لسبب من الاسباب وعوى بشكل لم يعهده الطفل من قبل . فوقف الطفل فى مكانه بعيداً عن الكلب ، وقف فى حالة تردد وخوف وانتظار لما عسى أن يكون ، ثم لنفرض ان المربى واقف يرقب هذا المشهد أو كان بالصدفة على مرأى ومسمع من هذه الحادثة

هذا هو ترتيب البيئة من غير ان تمتد اليها يد المربى بالتعديل ومن غير ان يتناول عناصرها فيجعلها تتخذ شكلا آخر ، لنفرض أن هذا ما كان فاذا لم تتعد

الامور هذا الحد كان فى استطاعة المربى ان يعمل عملا ايجابيا فى تلك الناحية — ناحية الخوف والشجاعة — من نفسية الصبي ، وبمعنى آخر يستطيع المربى عند هذه النقطة ان يدخل عمدا بعض العناصر الاخرى على البيئة فتستدعى من الصبى بعض أنواع النشاط الذى يولد فيه الاقدام والشجاعة بدلا عن الخوف والجبن ، نقول انه الى هنا لايكون المربى مطالباً بمعالجة نفسية الطفل بل البيئة ويكون حاله كحال الطبيب الذى يرى جراثيم مرض معلوم ويرى جسم الانسان أيضاً ثم يرى ان الاتصال بينهما يوشك ان يتم ، ومتى كان الامر كذلك لايطلب من الطبيب ألا أن يترك الانسان وشأنه ويمدد يده الى الجراثيم فيبيدها فلا يعود فى حاجة الى معالجة مريض بل وقاية انسان صحيح سليم

ومعالجة البيئة على هذه الحالة يتطلب منه أن يدخل بعض العناصر عليها كأن يقول للكلب مثلا « ماذا جرى يافيدو ؟ لماذا غضبت ؟ أنت تستحق العقاب والتأديب ، فاسكت لئلا يؤدبك فلان (الطفل) اما اذا هدأت واستغفرت فسأطلب اليه أن يسامحك » ومتى سمع الطفل هذه الملاحظات فسوف تصل الى جهازه العصبى بعض المؤثرات الجديدة ، وسوف تستفز هذه المؤثرات بعض الاستجابات أو التلبيات المرغوب فيها

أو يستطيع المربى أن يقول للصبى مثلا « لماذا اعتديت على هذا الكلب يافلان ألا تعلم أن الحيوانات تستحق منا العطف والرحمة بدل الاعتداء والمضايقة ؟ لماذا أخفته وروعته وهو أولى بأن يطمئن اليك لأنك صديقه الذى تحبه ؟ انظر كيف هو يصيح خوفا منك » ، ثم يلتفت الى الكلب ويقول « تعال يافيدو يامسكين ، أنه لايقصدك بسوء فلا تخف وتصيح » يستطيع المربى أن يفعل هذا أو مافى معناه بهذا الشكل أو بشكل آخر قريبا منه حتى يدخل بعض عناصر الطمأنينة الى نفس الطفل ويستفز منه عوامل الثقة بالنفس والاعتداد بها لأن البيئة كما هى فى

هذا الظرف ينقصها هذا العامل المهم وتتطلب علاجا يدخل فيها أمثال هذه العناصر التي يشعر الطفل أنها معدومة . وأن عدم وجودها يحدث فيه الخوف والجبن

وبمعنى آخر أقصد أن أقول أنه يجب على المربي فى هذا الظرف وأمثاله أن يدفع بنفسه ليكون جزءاً من البيئة وعاملا فيها فعالا فيغير فى عناصرها ويبدل ويزيد ويحذف ثم يترك الصبي لنفسه يستجيب لمجموع هذه المؤثرات التى دخل فيها عنصر مهم جديد وهو هذا المربي ذاته ، ولن يكون إلا أن الطفل سيشعر بهذا المؤثر وسيستجيب له بشكل من الاشكال ، وسوف تكون الاستجابة من النوع النافع للاخلاق متى كان المربي مقدراً لما هو فاعل

أما إذا لم يفعل المربي هذا فقد يحدث أن الكلب يثور ويتحفز ويثب على الطفل فيلقيه على الارض ويعضه قبل أن يتداركه المربي . وفى هذه الحالة تنتقل المسألة من دور الوقاية الى دور العلاج لأن الخوف وثب الى فؤاده ونشب فيه بشكل مباغت لا تحتمله نفس الطفل وسوف يطول العلاج بالطبع وسوف يكون شاقا على المربي وعلى الطفل جميعاً ، وسوف يضطر المربي لأن يقرب اخلاق الطفل من ناحيتها السلبية ، وهذا وان كان ضروريا إلا انه ليس احسن انواع التربيات فيجب أن يتدارك المربي الظروف حتى لا يعود يجد نفسه مضطراً لمعالجة الصبي

ننصح اذن بأن يلقى المربي بنفسه فى البيئة حتى يعالجها فيعيد للطفل اطمئنانه وثقته بالبيئة . ومع اننا ندعو الى هذا الا اننا ننصح المربين أن يدرسوا الظروف بعقل وروية قبل أن يدخلوا فيها كعامل من العوامل ، يجب أن يكيفوا تصرفهم حتى يصير ذلك العامل المطلوب النافع فى بناء اخلاق الطفل . فلا يجب أن يكون غرضهم طمأنة الطفل وحمايته بل فائدته الاخلاقية . ولسنا نقصد من ذلك الى أن يتركوا الاطفال معرضين للاخطار ويمتنعوا عن حمايتهم للامتناع فقط ، بل يجب أن يحموهم لانهم فى حاجة الى الحماية حقاً ، وانما نقصد أن نقول أن الحماية وحدها

لا يجب أن تكون غرضاً فى جميع الحالات ، لأن المجازفة والتعرض للاخطار ضروريان فى تكوين شخصية الطفل وهما عاملان يجب أن يتوافر منهما للصغار قدر مناسب يستقيم مع تقوية نفوسهم وبث الشجاعة فيهم ، وأما اذا لم يحتط المربى لهذا فسوف يكون دخوله الى البيئة عاملا سيئاً فيها وسوف يعين العناصر الضارة فيها على قهر نفسية الطفل واخضاعها للعوامل الضارة بالاخلاق

ولنعد الى المثل السابق لنرى كيف يمكن أن يكون هذا ، لقد قلنا ان البيئة كما تخيلناها فى المثل السابق تحتاج فيما تحتاج الى شيئين مهمين وهما عنصر الطمأنينة والشجاعة — الطمأنينة على سلامة الطفل لئلا ينهشه الكلب ويمزق له ساقا ، والشجاعة لئلا تتغرس فى نفسه بذور الخوف ، وهى بعد ان تتغرس سوف تنمو وتكبر وتتحكم الى حد كبير فى تصرفاته فى حياته كلها — هذان اذن هما العاملان اللذان تحتاجهما البيئة فى هذه الحالة ويجب أن يضطلع بهما المربى بقدر معلوم وبقصد حتى يتوافرا للصبى فيسلم من عضة الكلب ومن الخوف على السواء . وبمعنى آخر يجب على الاب أو المربى أن لا يفزع ويضطرب وتتملكه العواطف الحادة فيعمل عملا سريعاً حازما لانقاذ الطفل فى هذا الظرف . يجب ان يتحكم فى عواطفه ثم يعمل

أما اذا فزع لهذا المنظر فسوف يثب من على مقعده بشكل مباغت ويحول بين الكلب والطفل كأنه يسارع الى انتزاع الطفل من بين مخالب الموت الاحمر فيفهم الطفل ان لو قد تأخر أبوه عن نجدته لنفذ فيه القضاء الاعظم — أما لو حدث هذا فقد دخل المربى كعامل فى البيئة وبالبته مادخل أصلا لأنه قد عاون الظروف الرديئة والبيئة المعادية على افساد نفسية الطفل ، واذا لم يعالج الطفل من هذا علاجا مقصوداً أو غير مقصود فسوف تبقى نفسه عليله الى الأبد

لهذا السبب قلنا انه يجب أن تكون التربية الاخلاقية موجبة وليست سلبية ،

أو بعبارة أخرى يجب أن نتناول البيئة وليس الطفل لأن خير السياسات ان يحتاط الانسان حتى لاتنشب فيه الأمراض من الاصل — هذا خير من أن يدعها تقع ثم يشرع فى علاجها

ثم هناك سبب آخر نريد أن نذكره هنا وهو ان السبيل السلبية كثيراً ماتسبب الاحتكاك بين شخصية المربى وشخصية الصبى كما مر بك فى الفصول السابقة ذلك ان معالجة المرض الاخلاقى تقوم فى الاصل على شعور مشترك بين المربى والصبى ان وجهات نظرهما اختلفت وان تصرف الثانى لايعجب الاول ولا يروقه وان الاول يفرض فى نفسه ويجعل الصبى يشعر أنه أفضل خلقاً وأعلى كعبا فى الفضائل وأعلم بقواعد السلوك من الثانى ، وكثيراً مايعجز الطفل عن ان يرى العيب فى بعض أنواع السلوك التى لاتعجب المربى لا بل كثيراً مايرى ان تصرفه لاغبار عليه وان المربى متعسف مستبد ليس إلا ومن هنا تتسع الهوة بين الاثنين ويستحكم الخلف حتى لايعود يفهم أحدهما الآخر وحتى لايعود يجمعهما شعور بالعطف المتبادل وبالطبع يدفع هذا بالصبى الى ان يفقد ثقته كلها أو بعضها بمربيه

فعوامل الخطر كثيرة فى هذا الضرب السلبى من معالجة الاخلاق ، وأهم هذه هو العامل الشخصى الذاتى الذى يدفع كلا من الطرفين الى جهة مضادة لتلك التى يسلكها الآخر ، ومتى دخلت العوامل الشخصية فى موضوع التربية فقـــد جاز الخطأ على المربى كما يجوز على الصبى ، وصار عرضة لأن يركب شهواته ويخضع لعواطفه ومزاجه واهوائه كما يفعل الصبى سواء بسواء ، وبمعنى آخر يصير المربى عرضة لأن يغضب ويحتد ويثور فينتقم ويعاقب ويتحكم ويستبد ولا يربى أو يقوم الاخلاق ، كل هذه أخطار ممكنة ومحتملة فى الناحية السلبية من التربية

ولكن هذا لايعنى أنه من الممكن أن نستغنى عن هذه الناحية ، كلا فان أمراً مثل هذا لايعقل ، ذلك لأن المربى لايمكن ان يكون دائماً أبداً جزءا من البيئة التى

يحيا فيها الصبي وينشط ، ولايعقل أنه يشهد كل المؤثرات التى تستفز صبيه للنشاط لأن هذا من المستحيلات المادية ، فسوف تفعل البيئة فى الصبي بينما المربى غافل أو غائب ، وسوف يوجد الصبي وجها لوجه أمام البيئة . من غير أن يكون المربى عاملا من عواملها ، ومتى استقر هذا فى أذهاننا وسلمنا به فقد حق علينا أن نقول أن المعالجة أو السبيل السلبية للاخلاق ضرورية ومحتمة ولايمكن الاستغناء عنها بحال من الاحوال ، وانما مازلنا نزعم أنه من الخير المحقق أن يستعين المربى بالبيئة فى تكوين أخلاق الصبي وترتيبها بحيث تتطلب نشاطاً معلوماً من الصبي — نشاطا ينمى أخلاقه بطريقة آلية

ولنأخذ على ذلك مثلا يساعدنا على أن نفهم المقصود من الاستعانة بالبيئة فى التربية الايجابية ، ولنأخذ الناحية الاجتماعية من الاخلاق ، ففى هذه لايجب أن يقف المربى مكتوف اليدين الى أن يرى الصبي مندفعا فى سبيل الفردية البغيضة ومحبة الذات المزدولة ، لايجب أن يقف مكتوف اليدين الى أن تستبين هـــذه الظاهرة فى الصبي ثم يعالجها ، بل يجب عليه أن يدبر للصبي مشروعات مشتركة يساهم فيها الصبي بقسط مع باقى الصبيان ، يجب أن يستنبط مشروعات لذيذة جذابة تستدعى جماعة من الصبيان يعملون متكاتفين لغرض واحد مشترك ويتوقف نجاحها على مقدار مايبذل الفرد فى معاونة الجماعة . ويجب أن يكثر من هذه المشروعات وينوع فيها ويستمر فى الاخذ بها مادام الصبيان فى عهدته . يجب أن يصر على هذه السياسة ولاينقطع عنها وهى كفيلة بأن تنمى النواحى الاجتماعية من حياة الصبيان ولا يتبادر الى الاذهان أن مثل هذه السياسة ستقضى على محبة الذات قضاء أخيرا كلا ، فيجب أن نوطن نفوسنا على أننا سوف نقابل حالات كثيرة منها مع كل مانعمل فى النواحى الايجابية . وسوف نجد أنفسنا مضطرين لمعالجة كل حالة على حـــدة .

وانما المقصود من ذلك أنه يجب علينا ان نستخدم النشاط والبيئة فندخل فى الثانية لنجعلها تتطلب نوعا معلوما من النشاط يستقيم مع الاخلاق . وليس بمستغرب ان نصل الى هذه النتيجة لأنه قد وصل اليها علماء التربية قبلنا ، والنتيجة هى هذه ، انما الاخلاق وليدة النشاط ،

« النشاط هو أبو الاخلاق » هذه هى القاعدة التى بنى عليها قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية . وهذا المعهد ليس مصحاً للمعلولين اخلاقياً . ولا هو اصلاحية احداث بوجه من الوجوه ، وانما هو معهد يرمى الى ايجاد بيئة ملائمة للنماء الخلقى ، والمؤثرات التى فيه تستدعى نشاطاً معلوماً — نشاطاً خاصا يؤدى الى نتائج عملية فى الاخلاق ، وبمعنى آخر ان كل أنواع النشاط المتوافر فى قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية يؤدى الى هذه الغاية والى غايات أخرى مهمة وهى تنمية مدارك الصبى العقلية وتقوية بدنه وانماء نواحى حياته الاجتماعية وانهاض شخصيته للقيادة والزعامة

فهذا المعهد اذن يأخذ بالسبل الايجابية فى التربية الاخلاقية وفى نفس الوقت لايضن بالعلاج فى الحالات التى تتطلب العلاج ، وعلى هذا فكل الحالات التى مرت فى هذا الكتاب كانت للعلاج فقط

وبالطبع لدى قسم الصبيان حالات أخرى كثيرة — لا بل أكثر مما مر فى هذا الكتاب لديه حالات ايجابية فيها رتب البيئة للصبى بحيث ينشط ويفعل فيبنى خلاقه بطريقة آلية ، ونحن مزمعون ان نذكر بعض هذه الحالات وكيف ان اسكرتير قسم الصبيان استطاع بادخال بعض المؤثرات الجديدة فى البيئة ان يحصل على استجابات اخلاقية مطلوبة ، وسوف يرى القارىء أنه يمكن للمربى متى حلل عناصر البيئة واكتشف العوامل الناقصة فيها وانه متى أدخل هذه العناصر المطلوبة على البيئة فسوف يحصل على نتائج اخلاقية مهمة

ويحسن بنا قبل ان نورد بعض تلك الحالات ان نحذر القارىء التعميم والاطلاق ، وبمعنى آخر نحن لانزعم اننا نستطيع ان نبني الاخلاق بتصرف واحد مخصوص فى ظروف مخصوصة . أو متى تشجع الصبي فى حالة خاصة فقد صار شجاعا واستمر كذلك . كلا نحن لانزعم هذا وما نخاف التعميم الا لهذا . وانما كل مانرمى اليه ونزعمه هو هذا « متى استمر الصبي يستجيب بطريقة خاصة ومتى توافرت له الظروف بحيث يستجيب هكذا لمدة طويلة من الزمن نستطيع ان نوقن أنه سوف يقبل على هذا النوع من الاستجابات كلما استفزته البيئة للنشاط » ومعنى هذا بكلام واضح ظاهر ، معناه ان الصبي الذى يجد الظروف معينة له على ان يشجع ويقدم مدة طويلة من الزمن فسوف يشب شجاعا مقداما ، وعلى هذا فنحن لانستطيع قياس أخلاق الصبي بحادثة واحـــدة اذ لايؤمن التعميم والاطلاق ، وقسم الصبيان يعلم ذلك حق العلم وهو لذلك يرتب البيئة بحيث ينشط الصبي بطريقة خاصة . ومتى تم ذلك يسعى القسم الى ان يوفر الظروف لمثل هذا النشاط ليتكرر ويعاد مادام الصبي متصلا به ، ومتى دامت الصلة بين المعهد والصبي مدة من الزمن فللقسم الحق فى ان يزعم ان حياة الصبي قد تغيرت

وليس هذا الزعم فروضاً واحتمالات وانما يشهد به كل من عرف صبيان هذا المعهد من سنتين ورآهم الآن ، والمؤلف واحد من هؤلاء فقد شهدته طول هذه المدة ووجدت ان حياة الصبيان فيه الآن تختلف عن حياتهم من سنتين مضتا ، واذن فللمؤلف الحق فى ان يزعم ان ماعمل كان ذا أثر نافع فى الاخلاق

والآن هلم الى بعض تلك الحالات

الفصل الثانى

تسامح بديع

ملعبنا الرياضى يطل على ملعب التنس الخاص بقسم الرجال فى جمعية الشبان المسيحية ، والواقع أنه لا يفصل هذين الا سور عال من السلك يمنع الاتصال بين الاثنين ولكنه يسمح للانسان أن يرى ويسمع ما يدور فى الملعب الآخر وللملاعب التنس خادمان صغيران موكلان بجمع كرات التنس للاعبين كما هى العادة فى كل الملاعب ، اذن فالطرفان ـ الصبيان والشبان ـ يلعبان على مرآى ومسمع من بعضهما

فيوماً من الايام سمعت نقراً على باب مكتبى فدعوت الطارق للدخول ، فدخل وفد من الصبيان مكون من خمسة ، دخلوا وجلسوا وعلامات الاهتمام بادية على وجوههم مطلة من عيونهم كأن الخطب جلل وكأن الفلك يوشك أن يتوقف عن الدوران ، ثم قال أحدهم :

ـ « يايعقوب افندى : نحن من عائلات طيبة واباؤنا من كبار الناس ومعظمنا انا خدم فى بيوتنا » وهكذا الى آخر هذا الحديث الذى يحتج به « الافندى » عندما تكون له شكاية ضد أحد افراد الطبقات الفقيرة من الشعب ، فالشتيمة مستساغة أو مغضى عنها متى كان مصدرها « افندى » ولكنها امر جلل متى صدرت من احد العامة ، ما علينا ، فمحصل الشكاية أن احد خدمه التنس شتم عضواً ، وهذا العضو طلب قصاصاً . فقلت :

ـ هل شتمت أنت ؟

ـ نعم

وهل شهد هذا الفعل أحد من هؤلاء ؟

— فقال الجميع كلنا سمعه وكلنا يحتج على هذا ويطلب منك أن تقتص لنا من هذا الخادم

(وكلام كثير غير هذا محصله . لا تنس انه خادم وان هذا « افتدى »)

— فقلت سأبحث الموضوع واتصرف فيه بما يجب وسوف تعلمون النتيجة

ان التسامح خلة حسنة وهو صفة للنفوس الكبيرة . وهو كمثل كل الاشياء الاخرى ينتظر الفرصة لينغرس فى نفوس الصبيان ويثمر، ومن واجبنا كمربين أن نتحين الفرص فنوجد له البيئة اللازمة . وبمعنى آخر يحسن بنا أن نستعين بالبيئة على ايجاد هذه الروح فى من يتصل بنا من الصبيان والاطفال . أما كيف نفعل ذلك فهذا يترك للمربى نفسه ليبحثه لأن لكل حالة ظروفها وملابساتها ولا ينفع فى الواحدة ماينفع فى الاخرى اوعلى أى حال شعرت أن هذه فرصتى فان استطعت أن اعمل فيها شيئاً من هذا القبيل فبها والا اقر بالعجز فى هذه الفرصة وانتظر غيرها الى أن تحين

وكان التنس موكولا الى من قبل الجمعية ايضاً وكنت استطيع أن اتصرف فى اموره كما اتصرف فى امور قسم الصبيان — فدعوت صبي التنس وهو لا يتجاوز الرابعة عشرة وسألته فى هذا فاقر واعترف بأنه دعا ابا العضو كلبا

— وكيف تقول مثل هذا الكلام ؟ هل تعلم أنه قبيح أن تتلفظ به فى هـــذا المكان ، وقبيح أن تتلفظ به فى أى مكان آخر ؟

— نعم اعلم ذلك ولكنى طلبت اليهم أن يرموا الكرات التى سقطت فى ملعبكم فرفضوا ؟

— واذا رفضوا تعاقبهم أنت ، وهم غير مخطئين ولا يستحقون العقاب الحق نك ولد بطال ولا بد من تأديبك

ثم ذهبت الى رجل التينس وطلبت اليه ان يستأجر صبيا غير هذا ثم اطلعت الرجل على السبب فى ذلك وزدت عليه بأنه أخطأ فى حق الجمعية وهذا ممكن

ان نسامحه فيه بشرط ان لايعود اليه مره أخرى ثم انه أخطأ فى حق عضو من قسم الصبيان وهذا شأن العضو يتصرف فيه كيف يشاء . وليس لنا حق ارشاده الى مايجب ان يصنع فى مسألة له فيها حق . ثم تركت المسألة عند هذا الحد وأظن ان الرجل فهم ما أرمى اليه — ذلك لان الحوادث التى تلت هذا إن كانت مما يدل على ان ظنى كان فى محله

والظاهر ان الصبى استسمح العضو فصفح عنه لانى كنت فى مكتبى واذا بطارق ولم يكن الداخل أحداً سوى هؤلاء الخمسة الاعضاء ، وقال أحدهم

— نمى الينا انك انتويت ان تطرد هذا الصبى

— فقلت نعم لقد نويت ان أفعل هذا بالضبط

— قال الشاكى : لكن أنا لست من هذا الرأى

— فليكن ولكنى سأطرده على أى حال لانه أذنب ذنباً كبيرا

— لقد أذنب فى حق أنا

— وماذا يهم ، لقد اذنب والسلام

— بالطبع هذا مهم جداً لانه أذنب فى حق أنا وأنا أريد أن اتنازل عن هذا الحق ، لقد طلبت ان يعاقب فلى الحق ان أطلب مسامحته

— وماهو الرأى الآن ؟

— الرأى أن يسامح وكأن المسألة لم تكن ، نرجو هذا ونلحف فى الرجاء لانه لو مسه عقاب لتألمنا جميعاً

— ليكن ما تطلبون

ثم خرجت الى ذلك الصبى وأخبرته أنه مسامح فيما فعل بشرط ان لايعود الى مثل هذه الالفاظ مرة أخرى . فاخذ يشكرنى . فقلت « لاتشكرنى أنا مطلقاً لانى ما زلت أرى عقابك بطريقة من الطرق ، والحق لم ينقذك من هذا العقاب أحد

الا من شتمت ، ثم انصرفت الى بعض شئونى ، وبعد برهة كنت داخل البناء اطل من النافذة على الملعب على غير قصد فرأيت صبي التنس والعضو يتحدثان من غير ان يرياني ، وسمعت الصبي يقول « أشكرك يافندى ، وأرجو المعذرة مرة أخرى » ، وسمعت العضو يقول « لا لا — لاتستحق المسألة كل هذا نحن — أصحاب »

الحق ان هذا الانتهاء أعجبنى وراقنى ، وأظنه يعجب القراء ويروقهم أيضاً ، ويحسن بى ان انبه الى ان كلا من من الطرفين قد تعلم درسه ولم تحدث حادثة أخرى من هذا القبيل

الفصل الثالث

انبثاق الثقة بالنفس

وحكاية اخرى من هذا القبيل حدثت بين اثنين من اعضاء قسم الصبيان ، حدثت فى زمن مبكر من حياة هذا المعهد . وكانت هى الاخرى تستدعى عقاباً . وقد كنا على استعداد لأن ننزل هذا العقاب بالعدل اذا لم نستطع أن نصلح المخطىء ونعلم الآخر درسا فى التسامح والعفو عند المقدرة

حدث ان صبيا شتم صبيا أصغر منه ، وخاف الصغير ان يتقدم بالمسألة الى ان لا ينتظره الصبى الآخر فى زاوية من الشارع ويضربه . فكان على أن اشجع الصغير حتى لا يخشى بأس الكبير أولا وأن أجعل الكبير يحترمه ثانياً وأن أساعد الصغير على أن يعفو عن مقدرة ثالثاً — كل هذه اغراض اسعى اليها مستغلا هذا الظرف فان نلتها غبطت نفسى وإلا اكتفيت ببعضها ، اما أن لم يكن هذا أو ذاك فكان على أن أنهض لمساعدة الصغير لانه فى حاجة الى المساعدة . قلت فيما سبق أن الصغير لم يطلعنى على المسألة ولكنها وصلت الى على عن طريق آخر ، ومن حيث أن لها خطرها قررت أن اسير فيها مهما كلفنى ذلك حتى ولو اضطررت أن أطرد المعتدى

دعوت الصغير الى مكتبى وقلت

— ماذا قال لك فلان ؟

— لم يقل شيئا

— لماذا تنكر الحادثة ؟

— أية حادثة

ـــ لا تمارى أو تكذب يابنى

ـــ الحق يايعقوب افتدى أنى أخشى أن يضربنى هذا الصبى أن قلت لك

ـــ يضربك ؟ وأين يداك حينئذاك ؟

ـــ هو أكبرمنى

ـــ وان يكن ، لايجب ان ترهبه الى هذا الحد

ـــ واذا ضربنى فى الشارع ؟

ـــ قاومه ، ثم اضربه مااستطعت ، وأهجم عليه غيرمدافع : فاذا بدأك بالمناوشة ابدأه أنت بالضرب ، ولاتكف عنه الا عندما تعجز عن ضربه

ـــ ولكن اخافه

ـــ خوفك هو الداء وليس عجزك ـ افهمت ؟ انت لست عاجزا ولكنك خائف

ـــ هو كذلك

ـــ اذن تشجع وانا اعينك عليه

ـــ كيف

ـــ هذا شأنى ، الا تثق بى ؟

ـــ نعم اثق

ـــ اذن ان اعتدى عليك فاضربه وانا سأدبر طريقة معونتك

ـــ وهو كذلك سأضربه أن تعرض لى بشر

ـــ حسن وما الحقيقة فى الموضوع

ـــ لقد شتمنى بأقبح الألفاظ وهى . . . .

ـــ هذا بالضبط ماوصل الى فاخرج الآن الى الملعب ودعنى أتدبر الأمر ولكن لايجب ان تذهب إلى المنزل قبل ان أراك

ـــ حاضر

ثم خرج هذا الصبي من المكتب وروحه المعنوية أسمى مما كانت . خرج وهو شاعر أنه انسان وان له خطراً

ودعوت المعتدى وسألته فى الموضوع . وحاول أن يكذب ولكنى جابهته بالحقيقة وأعلمته أنه يجب عليه أن يقول الصدق لأن هذا يجعلنى أن أعالج الموضوع على بصيرة . وأفهمته أيضاً أن المعالجة لاتعنى بالضرورة أن نعاقبه . لابل قد يمكن أن نفيده من حيث لايدرى . فاخبرنى بالحقيقة كلها . فقلت

اسمع . هذا جرم كبير وتستحق أن تطرد من أجله من هذا المعهد . وقد نفعل هذا لأن هذا هو رأيي الخصوصى ، وأغلب الظن أن هذا هو الذى سيكون . ولكن انتظر ساعة أخرى فاعطيك الرأى النهائى فى الموضوع . ولكن اسمع هذا وتدبره جيداً : إذا تقرر طردك من هذا المعهد فاياك ان تمس ذلك الصبي بسوء لأنى لن أدعك تفلت من القصاص مهما حاولت ، كفى اعتداؤك الفائت ولا يمكن ان أتسامح فى اعتداء جديد بشكل من الأشكال بعد أن تطرد من هذا المكان . هل انت فاهم ؟

ـــ نعم فاهم

ـــ اذن أخرج الى العابك وانتظرنى ساعة

ثم دعوت الصغير الى مكتبي وقلت

ـــ هل تحب قسم الصبيان ؟

ـــ نعم أحبه جداً

ـــ لماذا ؟

ـــ أحبه للألعاب المختلفة فيه ولحفلات الايناس التى نقيمها نحن وجميع المشاريع التى نضطلع بها أفراداً وجماعات ثم أحبه فوق كل هذا لأنك أنت فيه ، وأنت صديقنا الذى يصلح من أخلاقنا

— وهل حقاً يصلح هذا المعهد من أخلاق الصبيان ؟

— نعم بكل تأكيد . فالصبيان هنا يختلفون بأعمالهم وألفاظهم وتصرفاتهم عن الصبيان فى أى مكان آخر

— وهل يخسر الصبي اذا ماترك هذا المعهد ؟

— بالتأكيد

— قد يكون الأمر كذلك ولكنى فكرت فى مسألتك مع فلان وقررت أن أطرده على أى حال لان تصرفه معيب جداً ويستحق الطرد فى رأيى الخصوصى ، ولكنى مررت أن أترك مصيره بين يديك وانت تستطيع أن تنزل به العقاب الذى تظنه يتعادل مع ذنبه ، وأنا سأنفذ هذا العقاب ولو كان يقتضى طرده من المعهد وهو ماأرى أنه يستحقه . ثم أعلم هذا ، انى قد نبهته الى انه لايستطيع أن يعتدى عليك لأنى سأصل اليه حيث يكون وسوف أرى أنه ينال جزاءه الحق . وقد فهم هذا حق فهمه وقال انه لن يتعرض لك بشر مطلقا

والآن هو بين يديك لتقتص منه لهذا الجرم وسأتركك فى هذا المكتب ربع ساعة لتدبر الامر وسأعود كى انفذ ما تقضى

— سأفكر فى الامر

ثم خرجت وعدت بعد ربع ساعة لاسأله ماذا عول أن يفعل به فقال انه لم يصل الى حل بعد ويرجو أن اسمح له بعشر دقائق اخرى . فقبلت هذا بطيبة خاطر لانى شعرت انه فعلا يبحث المسألة بعقل وانه لم تطغ عليه عواطفه ولم تتدخل فى حكمه . لأنه لو كانت تحكمت فيه عواطفه لما احتاج الى هذا الوقت الاضافى ، وحكم العواطف بالطبع سريع حاسم

وعدت بعد عشر دقائق وقلت

— على ماذا عولت ؟

ـــ فقال عولت على أن اسامحه

ـــ لماذا ؟

ـــ لأن اخلاقه ستزداد سوءا بعد خروجه من هـــذا المعهد وبعد أن يفقد صديقاً مثلك يستطيع أن يرشده فى تصرفاته . فاذا طرد اين يذهب الا أن يقضى أوقاته فى الشوارع مع اناس اردياء ؟ انا اكره أن اراه يتسكع فى الشوارع من غير أن يجد من يرشده

ـــ لكنى اخبرته انى سوف اطرده

ـــ لكنك قلت ان امره متروك لى

ـــ هو كذلك وانا مستعد أن اقبل حكمك وانما اكره منه اعتداءه عليك ولا أحب أن يتكرر هذا الاعتداء

ـــ فليكن ، هذا افضل من التسكع على غير هدى

ثم خرجت الى الصبى وقلت له ـــ

ـــ لقد قررت ان اطردك من هذا المعهد ، فادخل واسمع حكم الصغير عليك

ثم دخل فاخبره الصغير بما قر عليه الرأى ، وأنه عفا عنه بعد أن كان فى استطاعته أن ينزل به اقصى عقاب فى مقدور المعهد أن ينزله ، فاعتذر الصبى حقاً وشكر الصغير على تسامحه معه ، ثم خرجا الى حيث كنت ويد احدهما فى يد الآخر ، ثم اصبحا صديقين حميمين يحترم احدهما الآخر ويحبه

وبعد مدة طويلة من الزمن قال لى الصبى الكبير أنه ما يزال نادماً على ما فعل حقا وانه يحاول أن يكفر عنه بتصرفه الحسن

ليست هذه الحالة من السهولة والبساطة بحيث نستطيع أن نقطع برأى فيها . فالعوامل فيها متعددة متباينة ، ولا يمكن للانسان أن يحكم فيها حكما يستطيع أن يدعوه صائباً من غير أن يصل الى اعماق النفوس ويكشف عما يشعر به الصبيان

ومالا يشعرون . فلا يستطيع الانسان مثلا أن يقطع برأى فى كل الدوافع التى حدت بالصبى الصغير لأن يسلك هذا المسلك ، لأن الاحتمالات فى هذا كثيرة فقد يكون الدافع عدة عواطف مجتمعة أو مجموع عوامل متباينة . قد يصح أنه سامحه خوفا ومداراة وهذا ما اردت أن احتاط له باعادة والطمأنينة الى نفسه فهل نجحت فى هذا أم لم انجح ؟ هذا ما لا استطيع القطع به . ثم قد يصح أنه سامحه لأنه يشعر حقاً انه خير لذلك الصبى أن يبقى تحت ارشادى وعنايتى ، وقد يكون الدافع له شعوره بأن هذا يرضينى

قد يكون أحد هذه هو الدافع الحقيقى ، لا بل قد تكون كلها مجتمعة ، وقد يكون أن الامر اختلط على الصبى ففعل هذا وهو لا يدرى فى الواقع لماذا يفعله وقد تكون الاسباب التى بنى عليها حكمه مستترة وراء عوامل اخرى يدريها أولا يدريها — كل هذه احتمالات وفروض قريبة للحق والواقع ، فمن يدرى ؟ لا يمكن لنا أن نصل الى الحقيقة وسط هذا التضارب بين الدوافع والحوافز — لا يمكننا أن نفعل ذلك الا اذا امتد نظرنا الى وراء الظواهر — وهـــذا بالطبع مستحيل علينا وعلى غيرنا

وكل ما يمكننا ان نزعمه الى درجة كبيرة من الصواب أن الصبى الكبير حفظ الدرس وشعر بما للصغير عليه من يد وأنه مدين له بكثير ، نستطيع أن نوقن بهذا الى درجة كبيرة ثم نستطيع أن نقرر ايضاً أن العلاقات بين هذين الصبيين كانت حسنة على طول الخط وان قليلا من الثقة بالنفس قد عاد للصغير منهما ، وان بعضاً من الاحترام لحقوق الصغير قد بدا يظهر على تصرفات الكبير

هل لارباب التربية أن يحللوا هذه الحالة ويدلوا على العوامل التى تكون قد غابت عن المؤلف ؟ اننا نرحب بأى رأى فى هذا الموضوع

الفصل الرابع

أثر الجماعة المنظمة فى الفرد

من أهم العوامل فى التربية الاخلاقية ان يؤخذ بيد الصبي ليشعر بروح الجماعة (Group Spirit) وليعتد بها ويقيم لها وزنا ، هذه الروح هى بمثابة الرأى العام فى دولة من الدول له من الأثر فى سياسة الجماعات وتصرفاتها مالا يمكن ان يدانيه شيء آخر . هذا الرأى العام هو الذى يسير السياسيين ويضع أشكال الحكومات ويرسم الخطط للنظم السياسية ، ويضغط البرلمانات فتتصرف تبعاً لذلك الرأى وتستنير به فى كل ماتزمع الأخذ به ، هو العامل الذى يرجح نفوذه فى كفة الميزان متى شاء شالت كفة ذلك الميزان ومتى شاء حطت

وليس هذا فقط ولكن للرأى العام القول الفصل فى الفضائل العرفية والاخلاق التى تواضع عليها الناس . فما يحمده ذلك الرأى هو الذى يسير فى أقليم بذاته وما يتجهم له ينعدم ويندثر بغض النظر عن علاقة هذا الشيء بالفضائل الحقة وبغض النظر عن انطباقه على قواعد العقل والمنطق أو عدم انطباقه على تلك القواعد ، فمتى كان تصرف بذاته مكروهاً من جماعة معينة فسوف يندثر هذا التصرف على مرور الزمن مالم يتغير رأى الجماعة فيه بشكل من الاشكال ، وبعبارة أخرى أن تقدير الجماعة لازم للفرد ، والفرد يسعى اليه بكل الطرق الممكنة المشروع منها وغير المشروع فى بعض الحالات ، ومتى وجدت لصاً فاعلم ان هناك فى تاريخ حياته جماعة يهتم لرأيها فيه قد رضيت منه هذا المسلك على أقل تقدير ان لم يكن قد امتدحته عليه

والصبي على الخصوص يهتم لرأى جماعة الصبيان فيه ـ تلك الجماعة التى يتصل

بها أشد اتصال ، ويسعى بكل مايملك من قوة لينال رضاها وتقديرها . قد تثور فى نفسه عناصر الفردية والذاتية ، وقد يقاوم الجماعة لنزوة طارئة ولكنه لن يستمر فى هذا ، ولن يصر عليه مادام متصلا بتلك الجماعة بذاتها ومنتمياً اليها لأن هذا لايتفق مع ماهو معلوم عن طبائع الاطفال خاصة والناس عامة ، فالقاعدة العامة هى أن الفرد يحاول أن يرضى الجماعة فى الاحوال العادية . ويقيم وزنا لرأيها فيه . ويسعى جهده لان يكون هذا الرأى مما يرضاه ويحبه

هذا بالطبع لايتفق مع ماهو معلوم عن الزعماء . فالزعيم أيضاً يهتم لرأى جماعته فيه ويسعى جهده لان يكون هذا الرأى حسناً مقبولا . وانما يمتاز الزعيم بأنه يستطيع أن يؤثر فى الجماعة بشكل يعجز عنه الافراد العاديون ، وبمعنى آخر يستطيع ان يكيف الرأى العام تبعاً لما يريد ويهوى . فهو منفرد فى هذا دون باقى الناس

فالصبى اذن يهتم كل الاهتمام لرأى الجماعة فيه ، ويقدره بأكثر مما يقدر رأى المربى ، والواقع انه لو تعارض رأى المربى ورأى الجماعة فسيتبع الصبى رأى الجماعة إلا إذا كان يخشى المربى ويخافه . ويتنج من هذا إذن انه يحسن بالمربى ان يستعين برأى الجماعة على تقويم أخلاق الفرد ، وهو لابد واجد ان هذه الاداة هى من أحسن مايستطيع ان يستنبط لهذه الغاية . فمتى استطاع ان يوجد رأيا عاما وروحا خاصا بالجماعة فسوف تكون هذه الجماعة أول من يفعل اذا شذ فرد منها أو خالف الروح العامة بشكل من الاشكال . أما اذا كانت روح الجماعة لاتتفق مع مايرمى اليه المربى فقد لايستطيع ان يفعل شيئا مع الفرد ، لابل من المؤكد أنه سيعجز عن أن يؤثر فى الفرد ، ثم أنه سوف يجد نفسه وجها لوجه أمام جماعة متحدة يشد بعضها بعضا فتسدر فى الخطأ والضلال

لقد اختبر المؤلف هذه الروح ، فكان يجدها فى كثير من الحالات ، وكان

يحاول أن ينتزع الصبي من تحت نفوذها ثم يعالج خطأه . ولم يكن هذا أمراً سهلا أو مأمون العواقب ، وصعوبته ظاهرة لاتحتاج الى شرح وإيضاح لأننا ذكرنا شيئاً منه فيما سبق . وبينا ان الصبي يفضل أن ينال رضاء جماعته من أن يخضع للمربي فيما لايوافقه أو يروقه

وأما أن المربي يحاول أن ينتزع الصبي من تحت نفوذ الجماعة فهذا غير مأمون العواقب ، ذلك لأن السبيل المتبع عادة معروفة معلومة وهي أن يأخذ الصبي على انفراد ، ويكلمه ، وبالطبع لايخرج كلامه عن معنى واحد معلوم مهما تعددت صيغ الكلام وأشكاله ، ومحصل مايقوله للصبي هو هذا : « هذه الشلة بطالة ، وهي تضرك ولا تنفعك ، فيجب ان تنقلب عليها وتخونها » بالطبع نحن لا نزعم ان هذه هي الألفاظ التي يستعملها المربي ، وانما نقول ان هذا هو محصل الرأي في آخر الأمر ، ولا نرى ان لتصرفه معنى غير هذا

ولهذا بالطبع أثر سيء في أخلاق الصبي لأنه يدفع به الى الفردية والذاتية اللتين نريد ان ننقذه منهما ، وليس يغيب عن اذهاننا أن الخلق شيء اجتماعي لا يقوم إلا على علاقة الفرد بجماعته ، ومتى كان أثره للخير فهو خلق فاضل وأما ان كان أثره يتجه للشر فهو خلق سيء . لقد شرحنا هذا فيما تقدم من هذا الكتاب ونحن لاننوي أن نعود له هنا ، وانما نحب أن نقول ان الجماعة الراقية المهذبة القوية هي التي تستطيع أن تجعل لرأيها وزنا عند الافراد وتضطرهم لان ينزلوا عند هذا الرأي ويحترموه ، واذا لم تكن كذلك ، أي اذا لم تكن قوية ومهذبة وراقية ، فقد توافرت بينهما أسباب الفوضى ، وبعبارة أخرى ان الفوضى توجد حيث لايوجد رأي عام مسموع الكلمة نافذ في الافراد

واذن فهذا الطريق غير مأمون ، وقد ينتج عنه اضرار بالغة ويتسبب عنه نقص

فى أخلاق الافراد . ذلك لأنه يضعف الرأى العام ويقوى الذاتية والفردية ويقويهما ويعمل للفوضى . ولا عاصم للاخلاق فى الفوضى . وعلى هذا يحسن بالمربى ان يتجه لروح الجماعة وللرأى العام ليكسبه لجانبه أولا ثم يتجه للفرد فيعالجه مستعينا بهذا الرأى العام . بهذا يكون قد خدم الاجتماع . وخدم أخلاق الفرد . ومهد السبل للقضاء على الفردية البغيضة المزدولة . ثم يكون قد أخذ بأسهل السبل لاصلاح أخلاق الصبي

قلت انى كنت أعالج الفرد على حدة وخصوصا متى كان مشتبكا مع الجماعة فى المصالح ومتفقا معها فى الرأى ، فكنت أدعوه الى مكتبى وانحدث اليه كفرد وأقنعه بخطأه . وكان عند ما يحتج بباقى اخوانه . أقول ، مالنا وللباقين ، وهل اذا أخطأ الباقون تخطىء أيضاً ؟ كلا يجب ان تتجنب الخطأ أين كان وبغض النظر عن علاقتك بالجماعة ، ثم اذا فرغت من هذا الصبي ادعو غيره وأفعل معه كما فعلت مع هذا . وهكذا الى ان آتى على آخر الجماعة . وبالطبع كنت انجح مع بعض الصبيان وليس مع البعض الآخر ، واما من نجحت معهم فلم اكن اثق بنجاحى الى النهاية لأن بعضهم كان ينقلب بمجرد ان يخرج من مكتبي ويتصل بجماعته مرة أخرى

وأخيرا وجدت بالاختبار والتأمل ان مثل هذه السياسة فى جوهرها غير ملائمة لانماء الروح الاجتماعى الذى اسعى لانمائه ، فهى لاتخرج عن أنها تعمل لتفكيك الجماعات واضعاف الرأى العام ، وانهاض الفردية البغيضة والذاتية من مرقدهما . وبالطبع هذا بالذات هو ما اكره أن أفعل مهما كانت النتائج لأنى قد وضعت أمام عينى غاية واحدة أسعى اليها ، وهذه الغاية هى تقويم اخلاق الصبيان بغض النظر عما اذا كنت مستطيعا أن أحملهم على اتباع ارشاداتى أولا استطيع

فبعد أن وصلت الى هذه النتيجة من التفكير ، قررت أن اعالج الجماعة كجماعة أيضاً وأن أحرص على أن أبقيها متحدة الكلمة مجمعة على رأى واحد فى جميع

الظروف ، ثم احاول أن أحملها كجماعة لها رأى عام متحد على ان تنهج طريقاً معقولا . أما اذا عجزت فى حالة بذاتها انتظر فرصة اخرى تكون أكثر ملائمة لتحقيق الغاية التى اسعى اليها

وعلى هذا فقد نظمنا اعضاء قسم الصبيان فى جماعات . كل منها لها غرض واحد مشترك وغاية تسعى الى تحقيقها . فاوجدنا ناديا لكرة السلة وآخر للكرة الطائرة وآخر للتمثيل ، وآخر للاشغال اليدوية وآخر للرحلات وهكذا الى آخر هذه الجماعات . ولكل منها رئيس وموظفون واعضاء . وانا بالطبع عضو فى جميع هذه الهيئات ، ثم اطلقت لهم الحرية فى اختيار الموظفين وترتيب النشاط وتوقيته ، فتجتمع كل جماعـــة في الموعد الذى تريد وتنشط حسب الانظمة الداخلية التى وضعتها لنفسها

وكان ان جماعة كرة السلة قررت أن تعقد مباريات مع بعض المدارس المختلفة فخاطبت بعض تلك المدارس واتفقنا على مواعيد معينة نتبارى فيها صبياننا . وأزف موعد احدى هذه المباريات وحضر الفريق فى هذا الموعد . واستعد فريقنا للنزال ووقف الجميع فى اماكنهم المعتادة ، كل هذا واحد اعضاء فريقنا لايزال خارج الملعب واقفا ينظر فى الفضاء ، فتقدمت اليه وسألته لماذا لم ينزل الى الميدان ؟ فقال

ـــ لا أريد ان العب اليوم

ـــ لماذا ؟

ـــ ليس عندى سبب

ـــ اذن يحسن ان تنزل

ـــ كلا لا اريد

ـــ وفريقك

ـــ ماله ؟

اتتركه يلعب ناقصا ؟

— ولم لا ؟

— لأنه يعوزه فرد

— يستطيع أن يلعب من غير هذا الفرد

— لكن هذه خيانة للفريق

— كيف ذلك ؟

— ذلك لأن الفريق كان يظن لآخر لحظة انك ستنصره على من ينازله ، وله حق فى هذا الظن لأنك عضو فيه ، وقبولك لهذه العضوية هو تعهد بطريق غير مباشر لأن تنصره فى كل نضال يدخل فيه فانت الآن تنكث بهذا العهد وتخون فريقك خيانة قبيحة ، تخونه وهو فى احرج المواقف

— لست خائنا ثم لا اريد أن العب اليوم

الحق اقول انى استأت أشد الاستياء واخذ الغضب يتملكنى ، وشعرت أن الموقف يتطلب عملا حاسماً واخذت افكر فى هذه الحالة الشاذة فعرضت لى جملة حلول وكنت امحص كل حل ، ومتى تبين لى أن فى احدها علة اطرحه جانبا واتناول غيره بالتمحيص والتحليل ، فقد عرض لى أن آمر هذا الصبى بأن ينزل الى الميدان واغلب الظن أنه كان يفعل ولكن هذا التصرف كان يترك اثراً فى نفس الصبى ولا ، وكان ينقل المسألة ثانيا ، كان ينقلها من وضعها الى نزاع شخصى بينى وبينه فكأنه فى هذه الحاله يكون اخطأ فى حق انا وانا الذى يرد الامور الى نصابها ، هذا فى حالة صدوعه بالامر ، اما اذا قاوم الامر وعصانى فتصير المسألة نضالا بين الصبى وبينى ، والنضال بين الصبى ومربيه هو آخر ما يجب أن يفكر فيه المربى وفى حالة عصيانه بالطبع كنت اشعر بالاهانة تلحقنى انا شخصيا فكنت انفعل واعاقبه بالطرد مثلا — أى نعم اعاقب واقتص ولا اربى واقوم الاخلاق ، جالت

كل هذه الامور بخاطرى فقررت أن ابقى المسألة كما هى ولا اجعلها تتطور الى شر من ذلك . ووضع المسألة كما هى الآن هكذا : أن الصبى هرب من الميدان لسبب لا يريد أن يبوح به أو بغير سبب على الاطلاق ، وان هذا التصرف يعد خيانة للجماعة التى ينتمى اليها ، وأن المسألة بين الصبى وبين جماعته ليحلوها على ما يشتهون ويرغبون ، ولا تنس ايها القارىء انى عضو فى هذه الجماعة ولى رأى فى مسائلهم ، فهناك اذن الضمانات الكافية على أن الامور ستسير فى سبيل قويم ، ولهذه الاسباب قررت أن اترك المسألة حيث هى فلا انقلها من موضعها . فقلت :

ـــ اذن انت تصر على أن تترك فريقك فى هذا الموقف الحرج من غير أن تنصره

ـــ نعم هذا ما قررت

ـــ فليكن

ثم تركته فى مركز لا يغبط عليه وذهبت الى مكانى وجلست انتظارا لما سيكون وتلفت زعيم الفرقة ليرى كل واحد فى مكانه فوجد ان فريقه ينقصه واحد فطلب الى الحكم أن يعطيهم مهلة وخرج من الملعب واتى الى وقال :

ـــ ينقصنا واحد

ـــ الا يوجد احد من فريقكم هنا ؟

ـــ هنا فلان ، ولكن لماذا لا يريد أن يلعب ؟

فلو اجبت على هذا السؤال الجواب الكافى لانصرف الزعيم الى اللعب وترك المسألة انتظاراً لما سأفعل أنا ، وبمعنى آخر لو قلت أنه لا يريد أن يلعب والسلام لشعر وشعرت معه الفرقة أن هذا التصرف له ما بعده عندى وانى سأفعل شيئاً . سأقتص من ذلك الصبى أو اعاقبه بشكل من الاشكال ، وقد يجوز أن يكون القصاص مثلا أنه لا يلعب مع هذا الفريق ، وقد يجوز ان الفريق يشعر أن هذا الصبى قدير فى اللعب فيطلب الى ان اغير نوع القصاص ، وبالطبع ان لم افعل

فسوف يكون الرأى العام لهـــذا الفريق مختلفاً مع رأيي وتكون الظروف قد ساعدت هـذا الصبي على أن ينجو على اهون سبيل ، لست مغالياً أو متعسفاً فى هذه الفروض لأن كل من له المام بطبائع الصبيان يستطيع أن يرى انها محتملة كثيراً ــ لهذه الاسباب جميعاً قلت للزعيم :

لا اعلم الاسباب فاسأله انت

فذهب اليه وتحادث معه على مسمع منى وان كنت تظاهرت بأنى متغافل عنهما ــ قال الزعيم

ــ انزل يافلان الى الميدان

ــ لا اريد ان انزل

ــ لماذا ؟

ــ لغير سبب ، لا أحب ان العب اليوم وكفى

ــ هذا كلام فارغ ، اتتركنا فى هذا المركز الحرج ؟

ــ لا اريد ان العب ، أأنت شريكى ؟

ثم علت اصواتهما قليلا . وحضر جميع أعضاء الفريق ليروا السبب فى هذا الاختلاف . حضروا وسألوا بالطبع ، وكان جواب الصبي واحدا لايتغير ــ وهو أنه لا يريد أن يلعب ــ فثار أعضاء الفريق واغلظوا له فى القول وتحرج مركزه كثيراً وساء ، وشعر أنه خاسر فى هذا النضال الذى تتألب فيه الجماعة على الفرد ، واخذ القلق والحيرة يساورانه ، ولـكنه كابر وأوغل فى المكابرة ــ كل هذا وأنا جالس أصغى اليهم واتغافل عنهم الى أن شعرت ان الرأى العام قد تكون فى هذه الحادثة بالذات ، ذلك لأن أعضاء قسم الصبيان الخارجين عن هذا الفريق اخذوا ينصرون الفريق واخذوا يكيلون اللوم لهذا الصبي ، تغافلت الى أن شعرت بهذا أولا ثم شعرت بأن الصبي نال جزاءه الذى يستحقه ثانياً ، وأن

الحالة تسوء إذا لم أتدخل ثالثاً . تسوء الحالة لأن الجماهير لاتتحكم فى عواطفها متى ثارت فيكون عقابها انتقاماً وليس حكماً بالعدل — لقد حان اذن موعد تدخلى فتدخلت

ذهبت الى حيث هم وسألت ما الخبر ؟ فقالوا أن هذا الصبى يرفض أن يلعب ويعاون فريقه من غير أن يقدم اسبابه لهذا الرفض — هذا قبيح — هذا مريع هذه خيانة عظمى . . . . هذا كنود . . . . . فقلت كفى . انزلوا الى الميدان والعبوا وناضلوا اشد نضال تستطيعونه . وبعد اللعب اقضوا فى أمر هذا الصبى قضاءكم فقالوا

— أى نعم نتزل الى الميدان ونلعب دونه . . هلموا ياإخوان هلموا الى الميدان ونزلوا . ولعبوا . ولست أذكر اذا كان فريقنا قد انتصر أم غلب على أمره ولكنهم لعبوا على أى حال وأبلوا بلاء حسناً

وبعد اللعب مباشرة . وبعد ان حيوا الفريق الزائر بالهتافات المعروفة حضر إلى الزعيم وقال

— هذا الصبى لن يلعب معنا ، يجب ان نفصله ونضم غيره

— فقلت لاتتعجل ، انتظر ريثما يجتمع الفريق فى مواعيد اجتماعه وأبحثوا المسألة

— حسن ، سنفعل هذا ولكن الا ترى معنا انه أساء الى فريقه بهذا الهروب المزرى ؟

— نعم ارى هذا الرأى فاطمأن من هذه الناحية

— اذن سادعو الفريق للاجتماع فى موعده المحدد وأطرح عليه هذه المسألة

— هو كذلك

وفى الموعد المحدد اجتمع الفريق ، وكانت العواطف قد هدأت نوعا ما ، وقرر ان هذا الصبى يفصل من الفريق الا اذا كان يشعر انه اخطأ فى هذا التصرف ثم وكلوا الى التحدث اليه ، ففعلت ورجعت اليهم بالخبر فى الاجتماع الثانى

وكان ان الصبى اعتذر لفريقه ، وكان ان الجماعة عفت عنه

الفصل الخامس

الآباء والأبناء

الغرض من قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية هو ان يستغل أوقات فراغ الصبيان خير استغلال لفائدتهم الأدبية والبدنية والعقلية وهذا المعهد هو الاداة لتنظيم أوقات فراغ الصبي ، وتوفير العوامل والمؤثرات التي تفعل في نفسه حتى توجهه في الطريق الذي يؤدي به إلى ذلك الغرض

فكل ما من شأنه أن يقف في سبيل هذه الغايات مجتمعة أو متفرقة لامكان له من أنظمة هذا المعهد ، لان كلا منها تستوى لدينا في الاهمية مع غيرها . فاذا تعطل نمو الصبي العقلي أو البدني أو الاخلاقي نرجع في الحال الى وسائلنا فنغربلها ونمحصها لنطرح منها مايعطل أو يساعد على التعطيل ، وبمعنى آخر ان النمو الاخلاقي أو البدني لايجب أن يحول دون قيام الصبي بواجباته المدرسية خير قيام ، لابل نحن نوقن ان هذه جميعاً مرتبطة بعضها برباط وثيق وان الاخلاق السامية والبدن السليم يجب أن يكونا عاملين في تقوية الصبي من الناحية العقلية وفي مساعدته على الاضطلاع بمسئولياته المدرسية على أتم وجه

نحن نؤمن بهذا ونؤكد أن التجارب التي أجراها علماء التربية في الغرب تدعم هذه النظرية ، ونشعر أن القارىء لايطالبنا بأن ننقل له مايقول هؤلاء لأننا نشعر أن هذه القضية في حكم البديهات ، ونظن أن رجلا كائناً من كان لاينكر ان الجسم السليم والاخلاق القويمة يساعدان على حسن قيام الصبي بتلك الواجبات ، ولم نقرأ فيما قرأنا ثم أننا لم نسمع فيما سمعنا أن الجسم السليم والاخلاق القويمة معطلان للأعمال المدرسية بأي حال من الاحوال . فهذه اذن قضية مفروغ منها

ولكننا نعلم فى نفس الوقت ان اللعب يستنفد الوقت بشكل عجيب ويبتلعه ابتلاعا ، وان الصبيان مغرمون باللعب ، وأنه لو ترك لهم الحبل على الغارب لنسوا ماعداه من الواجبات الملقاة عليهم ، فاللعب من طبيعته لذيذ والصبيان من طبيعتهم لايشبعون منه ، فيجب اذن أن يحرص المربون على أن يقيموا الحدود للصبيان فلا يعود اللعب يستهويهم ويجعلهم ينسون كل اعتبار آخر غيره ، وليس يعنى هذا بالطبع أن يحاول المربى أن يمنع الصبى منعا باتا أو يكاد يكون باتاً من اللعب لأن هذا أكثر ضرراً من غيره ، ومثل من يفعل هذا كمثل من يمنع الطفل عن الأكل منعا باتا لان بعض أنواع الطعام تضره ، أو يجيعه ولا يعطيه غذاءاً كافيا لان البطنة تسبب له الامراض ، فالتخمة وقلة الغذاء يستويان فى أن كلا منهما عيب يجب تلافيه ، فليست السبيل السلبية دائما آمن السبل

واذن يجب ان نقتصد وأن نعتدل فيما نفعل وفيما نترك ، ويجب أن لانسلك أسهل السبل دائما لان السهولة فى ذاتها ليست دليلا للشىء أو عليـــه ، وهذا بالضبط مايحاول قسم الصبيان أن يأخذ به مع الذين يلتحقون به ، فبرنامجه موزع توزيعا متناسبا بين أنواع النشاط من بدنى إلى اجتماعى إلى أخلاقى إلى عقلى ، والصبيان يساهمون بقسط فى جميع هذه المناحى من غير ارغام أوقهر ، وبمعنى آخر ليس الصبى مضطراً لان يشترك فى هذه جميعا وانما نحاول أن نجعلها جميعا مشوقة ولذيذة بحيث تستدعى انتباه الصبى وتغريه على الاقبال عليها والمساهمة فيها

وفى نفس الوقت ليس هذا المعهد مدرسة أو بيتاً ، ولا يحاول أن يكون كذلك ، وبمعنى آخر لا يرمى الى الاضطلاع بمسئوليات هذين المعهدين تلقاء الصبى ، ولايحاول أن يحل محلهما فيما يؤديانه له ، وانما كل مايضطلع به هو ان يقدم للصبيان البيئة التى لايجدونها فى هذين المعهدين والتى لاتسمح الظروف بوجودها فيهما ، فهو متمم لهما ، ويجب أن يتعاون معهما على خير الصبى من كل الوجوه ،

وهو فى الواقع يستطيع أن يخدمهما خدمة كبيرة فى هذا الباب لأن له من الوسائل مايجعله أقدر فى بعض الحالات على أداء مثل تلك الخدم التى يحتاجها الصبيان ، ونظن ان فى مامر بالقارىء من أبواب هذا الكتاب مايكفى لاثبات هذه الحقيقة

فليس هذا المعهد اذن ناديا بالمعنى المعروف من هذه الكلمة ، أى انه ليس مكانا للصبيان فيه يلعبون ويمرحون وكفى ، نعم انه يؤدى هذه الوظيفة خير اداء ، وله من خبرته ومن المضطلعين به الاخصائيين فى هذا الباب مايجعله أقدر من أى ناد آخر على خدمة أبدان الصبيان ، ثم ان نشاطه فى هذا الباب متنوع النواحى متعدد الجوانب بحيث يستطيع أن يتناول مختلف الأمزجة والكفاءات والاستعدادات الجسمية فى الصبى وينميها ويصل بها الى درجة بالغة فى التقدم والاضطراد ، وعلاوة على ذلك لا يعالج الصبيان بطريقة آلية ، فلا يخضعهم لأنظمته ويدفع بهم للالعاب المختلفة بغض النظر عن الفروق الفردية والحاجات المتباينة التى لايكاد الصبيان يتفقون فيها وبمعنى آخر ان هذا المعهد لايسير على الزعم المغلوط ان مايحتاجه هذا الصبى بالذات هو مايحتاجه غيره وغيره الى آخره ، وانما يسير على سياسة مستنيرة تقتضى أن تبحث حالة كل صبى على حدة من الوجهة البدنية ويقدم له مايظن الاخصائيون أنه يحتاجه ويعوزه ، فهو اذن يتبع الطريقة العلمية فى معالجة أعضائه من نقائصهم البدنية ، وقبل أن يرسم للصبى نظاماً رياضيا يسير عليه ، يكشف عن هذا الصبى كشفاً رياضيا ليتبين حالة جسمه ، ثم يقدم له العلاج الرياضى اذا كان يحتاج الى مثل هذا العلاج

وبعبارة أخرى هو لايفتح أبواب الملعب للصبيان ويتركهم وشأنهم ليلعبوا مايحلو لهم وينشطوا بالطريقة التى تروق فى أعينهم ، وهو لايسلمهم الى الصدفة العمياء لتوجه جهودهم ونشاطهم الى الوجهة التى تروقهم ، بل يعمل بتفكير ورويّة وبرأى مستنير ، يعمل وهو يدرى مايعمل ولماذا يعمله وكيف يعمله

ومع هذا فليس قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية ناديا بالمعنى المفهوم من

هذه الكلمة كما نوهنا سابقاً . وانما أظن انه معهد يحاول أن يقدم للصبي بيئة مستكملة الشرائط للنماء من جميع وجوهه — بيئة تكون العوامل فيها مرتبة مدبرة ومبحوثة ومفكر فيها حتى تستفز منه بعض أنواع النشاط المطلوب . ثم يراقب استجابات الصبي لهذه العوامل ويدونها حتى تستبين آثارها في حياته

ومع كل هذا نجد ان بعض الآباء لا يرون رأينا ولا يوافقوننا فيما نذهب اليه في هذا الصدد . والحق أن لهؤلاء بعض العذر في ترددهم في قبول وجهة نظرنا لأنهم بحكم تربيتهم وبحكم البيئة التي يعيشون فيها ليسوا في الواقع اهلا للحكم في هـــذه القضايا التي تحتاج الى اطلاع كبير على شئون التربية الحديثة ونظرياتها . ونظن اننا نكون متعسفين لو طالبنا هم بهذا الاطلاع لأن للتربية اربابها الذين يتتبعون تطوراتها . وأما الآباء في مجموعهم فلهم شئون اخرى في الحياة يحسن بهم أن يولوها التفاتهم ولكننا في نفس الوقت نرجو من المربين أن ينيروا الطريق ويصلوا ما بين بعض مبادىء التربية وبين الرأى العام في مجموعه . وبمعنى آخر يجب أن يعملوا بكل ما يملكون من جهد على نشر ثقافة عامة تكون معينة للاباء على معالجة اطفالهم بشكل مستنير نوعا ما

نقول أن بعض الآباء معذورون في عجزهم عن أن يروا كل هذا دفعة واحدة كما نراه نحن . لا يستطيعون أن ينظروا اليه نظرة شاملة محيطة . ولكنهم يرون بعض العوامل بارزة ، ويكون بروزها مدعاة لأن لا يروا غيرها من العوامل التي قد تعدلها في الاهمية والمكانة . وعلى هذا فبعضهم يشك في فائدة مثل هذا المعهد وان كان المتشككون قليلين والحمد لله — ولكن هؤلاء يلحقون ابناءهم بالمعهد ويوصوننا بهم من جهة الدروس والمدرسة . زاعمين أن انضمامهم قد يؤثر في سير الدروس

ونحن من جانبنا نحب أن نعرف من الأب عن الصبي لأن هـــذا يعيننا في

مأموريتنا ويسهل علينا الاضطلاع بها . ثم نحن من جانبنا نفهمهم بعض انظمة قسم الصبيان التي تهمهم . وما يهمهم منها هو هذا . ان هذا المعهد يفتح ابوابه من الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر الى الساعة السابعة مساء كل يوم من ايام السنة الدراسية وفي العطلة الصيفية تفتح ابوابه من ٩ الى ١١ صباحا ثم من ٥ الى ٨ مساء ، وبهذا النظام نحرص على أوقات المدرسة بالطبع . وليس هذا فقط ولكننا نحب أن لا يحضر الصبي الى المعهد كل يوم لأننا نشعر انه في الواقع لا يحتاج الى كل هذا الوقت في المعهد . وانما نشعر انه يحتاج الى ان يحضر الى المعهد مرتين أو ثلاثا على الأكثر في الاسبوع ولا يمكث معنا أكثر من ساعتين في الدفعة الواحدة ، وهذا يكفيه لأن يروض جسمه ويقويه ويروض نفسه فترتاض . ثم أن لكل عضو عندنا تذكرة تنتزع من مكانها عندما يدخل ويوضع عليها تاريخ حضوره . وبذا نستطيع ان نعرف كم مرة في السنة حضر الى قسم الصبيان وفي أي تاريخ أن شئنا حتى يتسنى لنا أن نضبط أوقات الصبيان ونمنعها ان تضيع وتتشتت ، ويستطيع أي آب ان يسألني ، هل حضر ابني في يوم ١٠ يناير سنة ١٩٣٠ أو ١٩٢٩ ، أو كم مرة حضر في شهر يناير مثلا من السنة الفلانية ، ويمكنني أن اجيبه عن هذا في الحال . بعد هذا البيان اسأل الاب كم مرة يجب أن يصرح لابنه بالمجيء الى المعهد ، وكم من الوقت يجب أن يبقى . فبعض الآباء الذين يعرفوننا ويثقون بنا يتركون هذه المسألة لي كل الترك ، وأنا ادبرها بالطريقة التي اظنها تنفع الصبي في دروسه واخلاقه وصحته

وأما بعض الآباء فيدلوننا على رغباتهم ويشيرون علينا بما يرونه يتفق مع نجاح الصبي في دروسه كأن يحددوا لنا عدد المرات التي يجوز فيها للصبيان أن يحضروا الى المعهد . وبالطبع نتفاوض في الامر معهم ونتفق ، ثم اننا نسير بمقتضى هذا الاتفاق

حضر الى مكتبي احد هؤلاء الآباء وقال

ـــ حضرتك فلان ؟

ـــ نعم

ـــ لقد سمعت بما يقوم به معهدكم للصبيان من الخدمات . وعندى صبي أريد أن الحقه بمعهدكم اذا كنتم تقبلونه

ـــ نحن نقبل الصبيان بشروط

ـــ وما هي ؟

أولا أن تكون سن الصبي من ١١ الى ١٥ سنة فقط

ـــ هذا متوافر لصبينا

ـــ ثانياً ان يكون الصبي وأبوه موافقين على انضمامه لمعهدنا . وبمعنى آخر نحن لا نقبل صبياً هو أو أبوه معارضا فى هذا القبول

ثالثاً أن أقابل الصبي نفسه على انفراد وتتحدث بعض الوقت حتى استطيع أن أفهم بعض نواحى حياته وشيئا من نفسيته لأرى هل يستفيد من الالتحاق بهذا المعهد أم لا يستفيد

ـــ فقال سيحضر اليك بأقرب فرصة لتحادثه

ـــ اذن نحن متفقان

ـــ مهلا فلي بعض الملاحظات احب ان انبهك اليها

ـــ تكلم

ـــ هذا الصبي مغرم باللعب ، عفريت قد اعيتنا فيه الحيل

ـــ كيف ؟

ـــ أولا ـــ تراه شعلة حركة ونشاط ، لا يستكن لحظة أو يهدأ ، ثم أنه كالقرد لا يترك شيئا فى مكانه ، ولا يتركنا مستريحين لحظة ، ومادمت فى البيت

فلا انقطع عن النواهي والأوامر التي تستدعيها تصرفاته

ـــ معنى هذا أن الحيوية فائضة فيه ، وأن نشاطه غزير متوافر ، وأنه في حاجة الى بيئة يصرف فيها هذا النشاط . وهذا لا يزعجني كثيراً لأنه دليل على أن هذا الصبي يستطيع أن ينتفع بنظامنا وأن يفيد منه فائدة كبيرة ، وبعد فالوسائل متوافرة لدينا بحيث نستطيع أن نوجه هذا النشاط الى الوجهة التي نريد . فالامل اذن في أمثال هذا الصبي كبير

ـــ وهناك شيء آخر أريد أن أوجه اليه نظرك وهو أن ابني مغرم باللعب كما قلت لك ، مغرم به بشكل يجعله يضحي بدروسه في سبيله ، وكان من نتيجة ذلك أنه فشل في امتحاناته في الدور الماضي . وفي الحق أني اجد نفسي عاجزا عن أن أجعله يحصر فكره في الدروس بشكل جدي ، فما أكاد أحول نظري عنه حتى يلقي بالكتاب جانبا ثم يلعب ، وبعبارة اخرى لا يجلس الى مكتبه ويفتح كتبه إلا اذا كنت أنا في البيت بجانبه أراقبه وأدفعه للدرس . أما اذا لم أفعل ذلك فهو دائما أبداً في الشارع يلعب ، والآن أنا أخشى من التحاقه بهذا المعهد من هذه الوجهة لأنه سوف يحضر هنا كل يوم بعد المدرسة ليلعب ، وهذا مالا أحب أن اراه بشكل من الاشكال

ـــ في هذا المعهد نحن نضبط الحضور ونقبل الصبيان فيه بحساب وتقدير ثم أننا نحصر على الورق عدد المرات التي يأتون فيها الى هذا المعهد ، ونستطيع أن نتصرف في هذا بالشكل الذي يوافق الآباء ، ولن يتمكن ابنك من الدخول إلا في الايام التي تحددها ، فكم مرة في الاسبوع اذن تريده أن يحضر هنا ؟

ـــ اصرح له بالحضور يومي الخميس والجمعة بعد الظهر فقط . واما ماعدا ذلك فلن أقبله

ـــ اذن ـــ اعطني مهلة حتى ارى الصبي واتحدث اليه بهذا الشأن

ـــ وماذا له بهذا الشأن ؟ هذا شيء نقرره نحن وما عليـــه الا أن يخضع لقرارنا . ألا تعلم بأنه يجب على الآباء ان يحكموا الصبيان بيد من حديد !

ـــ كلا لاأعلم ذلك ، ونحن فى هذا المعهد لانفعله ولا نفعل مايقرب منه . وانما نتفاوض مع الصبيان فيه مفاوضة حرة من كل قيد ونريهم جميع العوامل التى تدخل فى الموضوع ثم نجعلهم يحكمون لانفسهم ، فان اختباراتنا الماضية تدلنا على أنهم يحسنون التقدير اذا كان المربى عادلا معهم . واعلم من الآن انى لاأنفذ نظاما فى الصبى لايقبله برضاه وبمطلق حريته . وما عليك من ذلك ؟ الم تضع النظام بنفسك ؟ فانتظر لنرى هل يقبله الصبى أم لا ؟

ـــ لابد ان يقبله راضيا أم مكرها

ـــ اذن فانتظر ، فقد يقبله راضيا ونكون قد وفرنا على أنفسنا عناء نحن فى غنى عنه ، ونكون قد ساعدنا على تكوين أخلاق الصبى أيضا اذ جعلناه مسئولا عن نفاذه الى حد ما . فهذا أحسن أساليب التربية

ـــ حسن . فليكن لك ماتريد من الوقت

فى هذا الحوار بينى وبين هذا الوالد يرى القارىء تصادم نظريتى التربية ، فالآب يسير على النظرية القديمة التى تقوم على الارغام والقهر ، والصبى فى رأى هذه النظرية مجرد من كل عوامل الصلاح والاخلاق ، وطبيعته شريرة بالفطرة ومتمردة بالطبع ، وعلى هذا فيجب ان يحكم بيد من حديد وان يساق سوقا الى الاخلاق المرضية ، ويحمل كرها على الرضاء بما يستنه له المربى . وسواء لدى هذه النظرية أن يوافق الصبى على النشاط المرغوب أم لايوافق ، وسواء لديها أفهم الغرض والغاية من هذا النشاط أم لم يفهم ، وكل ماهو مطالب به هو ان ينشط وهو مغمض العينين واثقا من نيات المربى نحوه ، وليس هذا فقط ولكنه مطالب أيضا ان يضرب برغائبه عرض الافق ، لابل يجب ان لاتكون له رغائب أو

سيول فى عرف هذه النظرية ، وثمة شيء آخر ينكره هذا الضرب من التربية على الصبى . وهو الارادة ، ففى مثل هذا النظام ليس للصبى ارادة بالمرة الا فيما يوافق أهواء المربين . وأما فيما عدا ذلك فالصبى آلة صماء يضغطها المربى فتدور بالشكل الذى يرغب فيه

وبعض الآباء والمربين لايفكرون فى مثل هذه الامور ولايحللونها كما حللناها الآن ، وانما يتصرفون على البديهة من غير تفكير ، وتصرفهم يقود الى مثل هذه النتيجة وهم لايشعرون . ولكن بعضهم يفكر أيضا ويصل فى تفكيره الى مثل هذه النتيجة ، ثم يقبلونها ويظنون أنها أحسن النتائج التى يجب ان يصلوا اليها ، هم يعلمون ان مثل هذه السياسة تقتل حرية الرأى فى الطفل ، ولكنهم يقولون وماذا علينا فى ذلك ؟ اليس الاطفال شياطين صغيرة ؟ فيجب ان نقيد هذه الشياطين بالسلاسل

وأما الظاهرة الاخرى التى تتبين من هذا الحوار فهى النظرية المضادة لتلك النظرية التى تزعم ان الصبيان أناس ، وأن الانسان يخطىء ويصيب وان خطأ الصبيان أكثر من صوابهم ، وانه ينقصهم الاختبار والزمن الذى يجعل صوابهم يرجح على اخطائهم ، وان كل ماتقدم لايبرر حرمانهم من حق الارتياء والبحث والمناقشة ، ولا يجب أن يحرمهم من حق الاختيار وهو الدعامة الوحيدة التى تقوم عليها جميع الفضائل ، وأنه متى انعدم حق الاختيار فقد انعدم الخلق وتقوضت أسس الفضائل

نحن لانتكر أن سبيل النظرية الاولى أسهل وأقرب منالا من السبيل الاخرى ، وان اعطاء الصبى بعض الحريات يزيد فى تبعات المربى ويلقى على كاهله من المسئوليات ماقد يضيق معه صدره وينفد صبره ؛ وهذا الكتاب ملىء بأمثال هذه الحالات ويفيض بالشواهد على هذا ؛ ومع كل ذلك لاينفى هذا بأن التربية

الصالحة يجب ان تسلك هذا السبيل : وتعطى للصبى أقصى ماتستطيع ان تعطى من الحرية والارادة وحق الاختيار بغض النظر عما يلحق المربى من العناء والنصب فى هذا السبيل : فقد أصرت نظم التربية الحديثة على ان تغفل المربى من حسابها لأنها لم توجد من أجله وانما وجدت من أجل الصبى ، ثم ماذنب الصبيان اذا كان هذا يلقى التبعات على المربين ؟ لاذنب لهم فى ذلك فلا يجب ان نحملهم تبعاته

نحن اذن نتبع هذه السياسة فى قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية ،فكان من المحتم اذن ان نرى ذلك الصبى ونفاوضه فى الأمر عسانا نستطيع ان نوفق بين ميوله وميول أبيه ، مراعين فى ذلك ان نترك له أكبر قسط من الحرية فى هذا الامر .

ثم حضر الصبى ودعوته الى مكتبى وجلسنا نتحدث . قلت

— أظن أباك حدثك فى شأن دخولك هذا المعهد

— نعم ، لقد فعل ذلك

— هل أنت راغب فى هذا الأمر ؟

— أرغب فيه كل الرغبة

— حسن ، فى أى مدرسة أنت ؟

— فى المدرسة الفلانية

— وفى أى فرقة

— فى السنة الثالثة الابتدائية

— وما عمرك

— ١١ سنة

— كيف تريد ان تنظم وقت فراغك ؟

— أريد ان أحضر هنا كل يوم بعد الظهر أصرف بعض الوقت فى الرياضات التى تتوافر لنا فى هذا المعهد ثم أعود لدروسى

ـــ وهل هذا يرضى أباك ؟

ـــ أبى لا يرضيه شيء أفعله

ـــ كيف ذلك ؟

ـــ فقال والدموع تجول فى عينيه لا أعرف كيف كان ذلك ، وانما أعلم شيئاً واحداً وهو ان أبى يعود على باللائمة دائماً أبداً سواء أخطأت فى تصرفى أم أصبت

ـــ اذن فالمسائل تحرجت بينك وبينه الى هذه الدرجة

ـــ هو كذلك

ـــ ومن السبب فى تحرج العلاقات بهذا الشكل ؟

ـــ لا أعلم

ـــ قد يكون هو المخطىء اليس كذلك ؟

ـــ نعم

ـــ وقد تكون أنت المخطىء اليس ذلك أيضاً ؟

ـــ قد يكون ذلك

ـــ هذا حسن . وما رأيك فيما لو تعاونا نحن الثلاثة فى تحسين هذه العلاقات وجعلها من النوع المرغوب فيه الذى يرضى عنه أبوك وترضى عنه أنت ؟

ـــ وهل هذا ممكن ؟

ـــ سترى

ـــ لو تم ذلك لخدمتنى خدمة كبيرة

حسن اذن فلنبدأ من الآن . ولنبدأ ببناء العلاقات بينى وبينك على أساس متين ، سأثق بك وأرجو أن تثق بى فتطلعنى على كل مايزعجك فى البيت وفى المدرسة وفى الشارع ، وأنا من جانبى أعدك بانى لن أرغمك على نظام لاتحبه . بل سأفاوضك فى كل نظام أضعه لك . وثقتى فيك تجعلنى أنتظر منك أن تعارض فى كل مالا

ترغب فيه ومتى رضيت عن نظام بذاته فلا تغيره من نفسك قبل ان تطلعنى على عزمك هذا ، هل أنت موافق ، وهل تعد بهذا ؟

ـــ نعم موافق

ـــ لنبدأ اذن بنظام حضورك الى قسم الصبيان ، كم مرة تريد ان تحضر فى الاسبوع ؟

ـــ كما ترى

ـــ ليس كما أرى أنا أو كما يرى غيرى ، وانما أريد ان أعرف رغباتك أنت أو ماتشعر به بينك وبين نفسك

ـــ رغبتى ان حضر كل ليلة

ـــ حسن جداً ، وأنا أيضاً لى رغبة أود تحقيقها ، وهى ان أذهب الى الاوبرا والمراسح والسينما كل ليلة فى الاسبوع أو ثلاث ليال على أقل تقدير ، ولكن يمنعنى عن ذلك عوامل كثيرة منها ان عملى يتعطل وصحتى تسوء وترتبك ماليتى ، ومنها ان والدتى تنقد هذا ولا ترضاه ، وعلى هذا يجب ان أوفق بين هذه الشهوة وبين تلك العوامل جميعاً ، وهكذا الحال معك فانك لو حضرت الى قسم الصبيان كل ليلة لما استطعت ان تستذكر دروسك بالليل فلا يرضى عنك أحد لا مدرسوك ولا أنا ولا والدك

ـــ لكن والدى يصر على ان لا أحضر سوى مرة واحدة فى الاسبوع وهذا قليل

ـــ نعم هذا قليل ولا ارضاه لك وسوف أساعدك على ان أحصل لك على أكثر من هذا

ـــ هل ترضى ان أحضر ثلاث مرات فى الاسبوع

ـــ ليست المسألة فيما يرضينى أنا ، ولكنها فى كيف ترضى أنت وتشعر معه انك سعيد

ـــ أنا أرضى بهذا وأكون مسروراً

ـــ اذن أنا أرضى بهذا ايضاً واظنه معقولا وسوف اتحدث الى ابيك به وارى ماذا يقول فى هذا النظام ، لاننا نحن ثلاثة كما تعلم ويجب ان نكون جميعاً راضين فلا يجوز ان يتفق اثنان منا على امر وينفذاه سواء ارضى الطرف الثالث ام لم يرض ، الا ترى ان هذا حق ؟

ـــ هذا معقول

ـــ اذن فسوف ارى اباك وسوف تعرف رأيه فى القريب العاجل ، وانما هنا لك شيء آخر احب أن تلتفت اليه وتقدره قدره الحق

ـــ وما هو ؟

ـــ هو أن تحافظ على اتفاقك كما سأحافظ على اتفاقى معك

ـــ سأفعل

ـــ ثم ارجو لفائدتك الشخصية أن تدرس وتستعد فى اعمالك المدرسية بأكثر ما تستطيع ، لأن هذا المعهد يهمه نجاحك من كل الوجوه

ـــ حاضر سأفعل هذا ايضاً وسوف ترى انى اقوم بواجباتى المدرسية خير قيام ، وسوف تكون راضياً عنى

ـــ حسن جداً ، وانا من جانبى مستعد لأى خدمة تطلبها منى متى كان ذلك فى استطاعتى

وصافحته واقفا كعادتى . وخرج

ثم قابلت الاب . وبعد محاولات كثيرة ، وجدال طويل ، وبعد أن اظهر التردد والشك فى ثقتى بابنه قبل هذا الحل ثم اقنعته ايضا بان يترك الحرية لابنه فى أن يختار الايام التى يحب أن يحضرفيها ، وضمنت له بأن ما سوف يقترحه الصبى لا بد وان يروق الاب ، فقبل ايضا ، ثم انصرف

أما الصبي فقد حافظ على عهده ، ووفاه با حسن ما يفعل الرجل ، ثم انه تحسن فى اعماله المدرسية وانتقل من فرقة الى اخرى وحصل على الشهادة الابتدائية . ودخل فى المدارس الثانوية ، وتوطدت الصداقة والثقة بينى وبينه ، وتحسنت العلاقة نوعا مابينه وبين أبيه ، وأخذ رأى أبيه يتغير فيه وان كان ابوه ما زال ينتظر منه أكثر من هذ ، ثم قابلت الاب بعد سنة تقريبا وسألته رأيه فى ابنه فقال « آه — موش بطال ، اهو بيدرس نوعا » ولم يزد على هذا مما جعلنى اشعر انه هوالطرف الوحيد فى هذا الميثاق الذى يوشك أن ينكث بالعهد ويفسد اغراضنا فى هذا الصبي

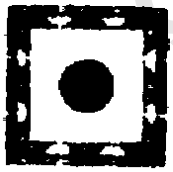

خاتمة

هذا فصل من حياة قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية ، وهذا مظهر من مظاهر الحياة فيه ، وأثر من فعل برنامجه ونظمه فى نفوس الصبيان

ولقد سئلت مراراً عما يفعله هذا المعهد مع أعضائه ، فكنت أعجز والحق يقال عن أن أعطى جواباً شافياً لهذا السؤال مما كان يجعل كثيرين من السائلين يذهبون فى طريقهم وهم غير مقتنعين بفائدة هذا المعهد للصبيان ، وبالطبع أعجز عن أن أفهم السائل فى دقائق قليلة الخدمة التى يقوم بها هذا المعهد ، أعجز لأن هذا الأمر كما يرى القارىء الآن يملأ مجلدات لأنه فى الواقع سؤال فى صميم التربية ، والتربية — كأى شىء آخر مهم — لاتشرحها جملة واحدة ، ولا تكفيها دقائق قليلة حتى تصير مفهومة لكل انسان

كنت جالساً مع بعض أصدقائى ، فهم انسان لاأعرفه وسألنى هذا السؤال

— هل تستطيع ياأستاذ أن تفيدنى بجملة واحدة كيف تكون الاخلاق فى الطفل ؟

بالطبع لم أستطع أن أجيب على هذا السؤال ، وأظن أن أى انسان فى مكانى يعجز مثلى ، قلت

— وهل تستطيع أن تفيدنى بجملة واحدة كيف يستطيع طلعت حرب أن يستثمر كل هذه الأموال ؟

— فقال نعم أستطيع — هو يفعل ذلك « بالأمانة »

— قلت الحمد لله ، عندنا اذن فى هذا البلد من الماليين اثنان طلعت حرب وانت ، أو ربما أنت أولا ثم طلعت حرب ثانيا .

لايستطيع الانسان فى الواقع أن يفهم أثر هذا المعهد وأمثاله فى حياة الصبيان لأول وهلة . ولا يتسنى له أن يحيط بهذا الاثر على عجل ، ولهذه الاسباب اضطلعت بنشر بعض نشاطه على الجمهور ليقدر هذا العمل التقدير الذى يستحقه

ولى غرض آخر من نشر هذه الصفحة من حياة هذا المعهد ، وهو ان تتنبه الامة المصرية لاطفالها وتفكر فى بعض الوسائل التى تعود عليهم بالخير من النواحى العقلية والاجتماعية والاخلاقية ، فلن تقوم لهذه الأمة قائمة قبل أن تنشىء جيلا أصلح للحياة من الاجيال السابقة ، ولن يكون هذا من غير عمل مقصود وسياسة معقولة متمشية مع قواعد التربية الحديثة

وارجو ان اكون قد فتحت بابا لوزارة المعارف وللمشتغلين بالتربية ومهدت لهم السبيل بهذا المجهود الضئيل حتى يرسموا خطة ناجعة للتربية فى هذه البلاد

مراجع

Boas, George (Our New Ways of Thinking)

Boyd, William (Towards A New Education)

Dewey, John (Democracy and Education)

Inge, W . R (Christian Ethics and Moden Problems)

Kilpatrick , W . H (Source Book in The Philosophy of Education)

Kimmis, C . W (The Child,s Attilude to Life)

King, W . P (Behaviorism A Battle Line)

King, W . P (Humanism Another Battle Line)

Lippmann, Walter (A Preface to Morals)

Lund, Fredrick H (Emotions of Men)

Roback, A . A (The Psychology of Character)

Thompson, G . H (A modem Philosophy of Education

Watson, J . B (The New Behaviorism)

Weld , H . P (Psychology As Science)

التربية والاخلاق يعقوب فام

obeikandi.com

فهرست الكتاب

صفحة

١ تقدمة الكتاب للاستاذ ا . م . القبانى

١ مقدمة المؤلف

٥ الباب الاول

الفردية

٦ الفصل الاول : فردية مستترة

١٠ الفصل الثانى : بحث نظرى فى الفردية

٣٣ الفصل الثالث : مزاج طارىء

٤٠ الفصل الرابع : مرض نفسى

٤٨ الفصل الخامس : فردية قبيحة

٦٣ الفصل السادس : ليست فردية

٦٦ الفصل السابع : التعاون والاخلاق

٧٣ الفصل الثامن : شواهد على الفردية

٧٩ الباب الثانى

الطاعة

٨٠ الفصل الاول : كبرياء يقود الى العصيان

٨٧ الفصل الثانى : بحث نظرى فى الطاعة

١١١ الفصل الثالث : النشاط الحر

١١٧ الفصل الرابع : حالة بغير علاج

obeikandl.com

صفحة

١٢٧ الفصل الخامس : مايرفضه الصبي يقوم به المربي
١٣١ الفصل السادس : تعجل الغايات
١٤٢ الفصل السابع : عصيان مجهول السبب الاصلي
١٤٩ الفصل الثامن : ضبط النفس وسيلة فعالة فى التربية

١٦١ **الباب الثالث**

الولاء للجماعة

١٦٢ الفصل الاول : ضرورة الولاء للجماعة
١٦٩ الفصل الثانى : الولاء للجماعة أيضاً

١٧٥ **الباب الرابع**

الخوف

١٧٦ الفصل الاول : الخوف
١٨٦ الفصل الثانى : خوف يستتر وراء الدين
١٩١ الفصل الثالث : خوف يستتر وراء القانون
١٩٥ الفصل الرابع : درس من الخوف

١٩٩ **الباب الخامس**

العوامل الايجابية فى الاخلاق

٢٠٠ الفصل الاول : الوقاية والعلاج
٢١٠ الفصل الثانى : تسامح بديع
٢١٤ الفصل الثالث : انبثاق الثقة بالنفس
٢٢١ الفصل الرابع : أثر الجماعة المنظمة فى الفرد
٢٢٩ الفصل الخامس : الآباء والابناء
٢٤٣ خاتمة الكتاب
٢٤٥ مراجع الكتاب

obeikandl.com